حرب أكتوبر

دراسات فى الجوانب الاجتماعية والسياسية

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
القاهرة

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
الأهرام



دراسات فى الجوانب الاجتماعية والسياسية





تم الاتفاق بين المركزين على اصدار كتاب مشترك فى نوفمبر ١٩٧٣ ، وتم اعداده بصورته الحالية فى يناير ١٩٧٤ .

وان ما جاء بالدراسات والعروض النقدية يعبر عن آراء كتابها ، ولايحمل بالضرورة وجهة نظر أى من المركزين .



المشتركون فى الكتاب *

● **كتاب الدراسات :**

● **د. أحمد محمد خليفة**	رئيس مجلس ادارة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **د. عبد العزيز الأهوانى**	استاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة
● **جميل مطر**	خبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
● **خيرى عزيز**	محرر بمجلة الطليعة — الأهرام
● **د. عبد الوهاب المسيرى**	مدرس بكلية البنات ، جامعة عين شمس وخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
● **د. على الدين هلال**	مدرس بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة وخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
● **محمد فيصل عبد المنعم**	خبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
● **السيد يسين**	رئيس وحدة بحوث السلوك الاجرامى بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
● **د. قدرى حفنى**	مدرس علم النفس ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس
● **د. ابراهيم البحراوى**	مدرس الادب العبرى ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس
● **د. على عبدالرازق جلبى**	خبير بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

(*) كتبت الاسماء حسب ترتيب نشر المقالات فى الكتاب .

● **كتاب العروض النقدية :**

● **د. هدى مجاهد**	خبير بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **نادية سالم**	باحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **عصام المليجى**	باحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **مصطفى كمال**	باحث مساعد بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **عمر سيد الأهل**	باحث مساعد بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **نجوى الفوال**	باحث مساعد بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **عاطف فؤاد**	باحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **منى أنيس**	باحث بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
● **سيد عبد العال**	باحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
● **محمد هويدى**	باحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

أشرف على تحرير الكتاب : السيد يسين

كلمـــة ..

عاش مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ــ مرحلة حرب أكتوبر قرارا وقتـــالا ..

من قبل .. راقب مسار احـــداث العالم وتفاعل المتغيــرات الاقليميـــة والعالمية ، وفحص ارهاصات ميلاد الاطار الدولى الجديد ..

ومن بعد .. عكف على تحليل نتائج الحرب ، وتابع أبعاد تفكك الوضع القديم وملامح النظام الجديد للعلاقات الدولية فى المنطقة بوجه عام ، وبين العرب واسرائيل بوجه خاص ..

والكتاب الحالى هو جهد مشترك بين المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنـــائية بجمهورية مصر العـــربية ، ومركز الدراســـات السياســـية والاستراتيجية . لقـــد تبينت مجموعة الخبراء والبـــاحثين بالمـــركزين انهم يشتركون فى مساحة واسعة من ميدان الاهتمامات والدراسات ، وانه اذا تم التنسيق بين جوانب من جهودهم العلمية وتخصصاتهم الأكاديمية ، فان محصلة الدراسة المشتركة سوف تكون أكثر شمولا واعمق احاطة .

وقد استجاب مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الى دعوة كريمة ومبادرة ايجابية تفضل بها الأستاذ الدكتور أحمد محمد خليفة رئيس مجلس ادارة المركز القومى للبحوث الاجتمـــاعية والجنائية . واثمر للتعاون بـــين المركزين هذا الكتاب الذى يشمل عددا من الدراسات والابحاث التى نقدمها مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية ومن الخبراء والباحثين بالمركزين ، واعتقد أن هذا الكتاب يترجم الاحساس العميق والاستجابة الواعية لـــكل ما تعبر عنه حقائق مرحلة حرب أكتوبر .

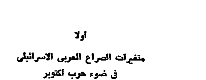
ويسجل المركزان ــ بهذا الجهـــد المشترك ــ التعامل المتبادل بقيمـــة اجتماعية جديدة تتواءم مع آفاق المرحلة المعاصرة ، وهى تطبيق وتنفيـــذ نموذج رائد من بين الانواع المتعددة للتعاون والتنسيق المشترك والواجب أن يكون بين مراكز البحث العلمى فى مصر وفى الوطن العربى .

واخيرا .. فى قلب كل هذه الاهتمامات العلمية ، يظل مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ملتزما ضوابط التفكير العلمى الهادف الذى يعيش حياة مجتمعه .. وقائع حاضره ومؤشرات مستقبله .

دكتور عبد الملك عودة

مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية





اولا

متغيرات الصراع العربى الاسرائيلى
فى ضوء حرب أكتوبر



٦ اكتوبر وممارسة العلم الاجتماعى

دكتور أحمد خليفة

منذ السادس من اكتوبر ونحن نسمع ان المجتمع العربى قد تغير منذ هذا اليوم . يقال هذا تأسيسا على تلك البوادر المشرقة التى صاحبت هذه الانتفاضة ، وما شوهد من علامات ايجابية وشواهد دالة على أن هذا المجتمع اذ استجمع قواه استطاع أن يسمو فوق سلبياته فى عزيمة مذهلة ، وفى انكار رائع للذات ، وترفع عن الصغائر ، وترابط وتعاون واستغراق كامل فى متطلبات المعركة ، وتدافع نحو المساهمة فيها ، واندفاع الى التضحية والفداء .

وقد ذهب البعض ، مقارنة بما كان يبدو قبل هذا التاريخ من ظواهر اجتماعية مقلقة وسلبيات واضحة ، ذهبوا الى أن المجتمع المصرى بين يوم وليلة قد تغير من النقيض الى النقيض .

وقد يصدق هذا للعين المجردة ، ولكنه يتناقص فى الواقع مع الحقائق العلمية المقررة ، فان التغير الاجتماعى كما هو معروف حركة بطيئة جدا ، وتطور يكاد يجرى بصورة لا تحس ، ولما كان من العسير عقلا وعلما ان يتغير أى مجتمع بين يوم وليلة كان علينا ان نحاول تكييف ما حدث تكييفا علميا واقرب الى المعقول .

وفى اعتقادى أنه من الممكن ان نلجأ فى هذا السبيل الى بعض الفروض . وقد يقوم الفرض الأول على أساس أن المجتمع لم يتغير فى الواقع وانما كان مثله مثل أى كائن مفكر ، واقعا منذ هزيمة يونيو تحت تأثير صدمة افقدته الكثير من قدراته وعطلت الكثير من ملكاته ، فلم يعد قادرا على أن يعبر عن حقيقته التعبير الأوفى والأفضل . وكما يحدث بالنسبة للفرد الذى تصيبه صدمة نفسية أو عصبية تفقده توازنه وتعرقل حركته وتشل تفكيره ، فاننا قد نستطيع القول بأن أى مجتمع بشرى أيضا يمكن لسبب أو لآخر وربما من أثر صدمة قاسية مفاجئة أن يفقد التوازن وأن تتعطل قدراته دون أن يفقد شخصيته الحقيقة فقدانا تاما ، فاذا ما وقع بعد ذلك ما يزيل أثر هذه الصدمة عاد الى قدرته الأصيلة على التخطيط والانتاج والحركة ، وبالتالى فقد يصح فى هذا الفرض أن السادس من أكتوبر قد جاء معه بما أبرأ المجتمع المصرى من علة يونيو ، وأطلقه من عقاله وحصره وعصابه ، ذلك أن ما تركته هذه العلة بنفسية الشعب العربى كان هزيمة أنكى من هزيمته العسكرية ، وتحطيما أبلغ من تحطيم قواته ومعداته ، تولد عنه شعور بليغ بالنقص والدونية والعجز والضياع ازاء عدو استطاع أن يصور نفسه كخصم لا يهزم له أبدا اليد العليا الباطشة المؤدبة ، وأن يصور الأمة العربية فى صورة فعل ماض لا مستقبل له ولا طريق أمامه

الا ان يسلم ويستسلم مع الشقة البعيدة ، والمسافة الواسعة التى تفصله عن عدو جاثم مصمم مدجج بالعلم والسلاح .

وجاء ٦ اكتوبر ليدحض هذا التصوير فى ساعات معدودات ويبدد الايحاء بالعجز الذى استطاع العدو أن يزرع وهمه فى نفوسنا ، اذ سقط الغريم جاثيا باكيا وادرك الانسان العربى ان هذا العدو الاسطورى يمكن على يديه أن يموت وأن ينزف وأن يفر وأن يقع فى الأسر وأن يخسر سلاحه وتطيش خططه . وكانت صدمة اليقظة التى شفت النفس العربية من وهنها ومن مرضها ، واذا الشعب العربى فى ٦ أكتوبر وكأنه شعب آخر خلا من السلبيات والمعوقات ومشاعر العجز والهزيمة .

هذا فرض . وهناك فرض هو الآخر ليس مؤكدا او ثابتا لدى الجميع ، ذلك هو مسألة الاصالة . ان بعض الشعوب لها من تاريخها وتجاربها ما يعطيها أصالة وقيمة دفينة كامنة لا تزول ، حتى وان مرت بها ظروف بدت معها وكأنها قد فقدت كل مقوماتها . وهو راى ينكره البعض اذ يرون ان التاريخ والمنجزات القديمة لا شـأن لها بقيم الشعوب وصلابتها ، وأن المنجزات ما هى الا عملة قديمة غير صالحة للتعامل بها فى العصر الحديث . الا أنه لا يستطاع بهذه البساطة أن يرفض كلية مثل هذا الفرض وأن صـعب تأكيده علميا . فان الوراثة حقيقة ، ووراثة الصـفات حقيقة بيولوجية مؤكدة فى الكائنات ، وليس هناك ما يمنع من أن تكون هنـاك صفات جمعية تنشأ ببعض المجتمعات نتيجة لعوامل مختلفة قد يكون من بينها التجارب والخبرات التى مرت بالجماعة ، وليس هناك ما يمنع من أن تكون هذه الصفات كامنة فى هذا المجتمع بصورة مالا يفقدها ، وانما يستجمعها العقل الجمعى اذا حان الوقت ليتصرف بشكل لا يعكس حضره فحسب ، بل يعكس هذه العناصر والقوى الدفينة فيه .

ولسنا بحاجة الى ان نتابع تاريخ مصر مثلا لنتبين شعبا كان من صناع الحضارة ، شعبا مشتغلا بالعلم قبل أن تخرج شعوب أخرى من كهوف البداوة ، شعبا اشتغل بالبناء والصناعة ومارس الادارة المنظمة ، وسن القوانين وحارب وقاتل وهادن وسالم ، وعرف التضـامن وتنن الحياة الاجتماعية ، كل هذا على هذه الرقعة التى يجرى فيها النيل . ليس من المستبعد ان تكون النفس المصرية قـد حملت دائما مقوماتها ومزاياها وخبراتها التى تراكمت على مر السنين .

وان كان هذا على اى حال فرضا غير ثابت ، فانه أصبح بكثير من أن يقال ان المجتمع المصرى قد تغير بين يوم وليلة .

وعلى أى حال فان تلك مهمة من مهام « العلم الاجتماعى » فى مصر ، مهمة ان يتوفر على دراسة شخصية الانسان المصرى من جميع نواحيها ، أن يتوفر على تحليل صفاتها ومكوناتها ومقوماتها ، وما هو أصيل وما هو مكتسب ، وما هو نابع وما هو وافد .

وعندما نقول العلم الاجتماعي فاننا نقصد شيئاً أوسع بكثير مما اصطلح على تسميته بعلم الاجتماع . فنحن نقصد كل جهد قائم على المنهج العلمي يستهدف دراســـة اي جنب من جوانب الظاهرة الاجتماعية ومكوناتها وعلاقات الانسان بهذه الظاهرة .

ولاشك في أن على العلم الاجتماعي في بلادنا مسئولية ضخمة في هذه الظروف ، وانه كتيبة رئيسية من قواتنا التي تواجه عدوا واسع الحيلة لا يملك قضيته ولكنه عريق في فنون المغامرة . فعلى الجانب الاسرائيلي تجرى عملية تسخير رهيبة لكل قوى العلم الاجتماعي هدفها ، من بين اهداف اخرى ، صناعة نمط ادراكي خادم لاهدافها يستعين بكل اساليب التنشئة والتكيف في الأسرة والشـــارع والمدرســـة والكيبوتز والصـــحيفة والنادي والمعبد والمصنع والجيش والحزب ، عملية لا تعف عن اي تزييف للتاريخ أو تشويه للحقائق ولا تتردد في اصطناع اطارات عامة تضفي « قناعا » دراميا على العملية كلها .

ولاشك في أن الحد الادنى لمســـئولية العلم الاجتماعي في بلادنـــا هو التصدي لتعرية الحقيقة الاسرائيلية كأساس لممارسة الصراع الطويل مع المنتظر معها .

لابد من الدراسة الموضوعية الواعية للاسس التي تقوم عليها اسرائيل وفي مقدمتها « العينـــات الثلاثـــة » : « **العنف** » و « **العنصريـــة** » و « **العمالة** » لتمزيق القناع الزائف الذي يغطي هـــذه الحقيقة وفضح المفاهيم الجذابة البراقـــة التي تدعيها اسرائيل لنفســـها وتنشرها بكل الوسائل ، وكشف العملات الزائفة التي طرحتها في السوق العلمي والفكري والسياسي والاقتصادي العالمي .

ان اسرائيل تدعي انها تنشد السلام رغم انها غنمت من كل حرب عنى منها العالم . فازت في الحرب العالمية الأولى بوعد بلفور ، وفازت من الحرب العالمية الثانية بقرار التقسيم ، ثم اغتصبت في غزواتها المتكررة للشعب العربي المزيد من الأرض العربية . وهي تدعي أنها تقوم على كفالة الحريات ، بينمـــا هي اداة مسخرة لخدمة أكبر الجرائم العـــالمية وهي الاستعمار والامبريالية . وتدعي أنها تنصر حقوق الانسان . بينما تقوم هي ذاتها على أساس حرمان الشعوب من حقها الأول ، حقها في تقرير مصيرها ، وبينما تقوم بذاتها على أساس التفرقة العنصرية والدينية في الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وتدعي اسرائيل أنها تحمل مشعل الحضارة في هذا الركن من العالم ، والواقع من وراء هذا انها رسول استعمار وكمين للامبريالية مثلها مثل جنوب أفريقيا وروديسيا ، وأن ما تدعيه من تقدم ليس الا استعارة من شعوب العالم ، نقلت نقلا وشحنت شحنا الى اسرائيل باعتبارها راس حربة للاستعمار .

ولكن ذلك كله لا يخفى الحقيقة التى يجب أن نعترف بها ، وهى أننا لم نعد نستطيع ان نتباطأ فى اعداد أنفسنا لمواجهة هذه الشحنات من التقدم العلمى والتكنولوجى التى تتكدس فى اسرائيل ، لم نعد نملك أن نتأخر لحظة واحدة عن تحريك عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، حتى تزول الشقة الفكرية والعلمية والتكنولوجية بيننا وبين العدو .

والتنمية الحقيقية ليست مجرد تكديس ثروة ، وهى لا تنقص الأمة العربية على أى حال ، بل شىء أبعد من ذلك . ان معيار التنمية الحقيقية أن تسفر عن صياغة الشخصية العربية بحيث تصبح شخصية «منافسة» فى السوق السياسى والاقتصادى والثقافى العالمى . وليس معنى ذلك مطلقا أن نقص الشخصية العربية على المثال الغربى ، ولكن من المحتم على أى حال أن تكون شخصية معاصرة تحمل ملامح العصر العلمى والتزاماته ، وتحمل لزاما فى الوقت نفسه ما أمكن ، الملامح الايجابية الأصيلة التى تميز الشخصية العربية .

هذه الشخصية وحدها هى التى تستطيع ان تقف موقفا علميا . والموقف العلمى شىء أبعد بكثير من مجرد الاشتغال بالعلم لدى فئة من الناس . ان الموقف العلمى يعنى الانتقال من الدراسة الى الحركة ، وممارسة المواجهة العلمية فى البيئة الانسانية فى كل صورها وأوجه نشاطها .

وبطبيعة الحال ، لم تكن الجماعة الانسانية منذ الازل تتخذ موقفا علميا ازاء بيئتها الطبيعية والبشرية ، وان كان تاريخ الانسان فى جميع الأحوال هو تاريخ صراع بينه وبين هذه البيئة ، ذلك الصراع الذى تحكمه قوانين تحدد البقاء والفناء والانتصار والهزيمة بين اطراف الصراعات المختلفة .

وقد دخل العقل البشرى عصرا جديدا اصطلح على تسميته بالعصر العلمى ، بعد صراع رهيب طويل مرير مع الظلمات الفكرية المتراكمة هى الأخرى من خبرات سابقة ، ولا شك فى ان العصر العلمى لم يكن بابا موشى بالذهب ، بل كان نتاج صراع عقلى منهجى تناول فلسفة الادراك حتى أدى الى توليد النظرة العلمية والابداع التكنولوجى .

هذا التطور الفكرى المنهجى هو الذى يحكم كل صراع فى العصر الحديث، تلك حقيقة صلبة ، فبغير الموقف العلمى فى هذا العصر ، يتجرد الخصم من سلاحه ويتعرى أمام خصمه . ولا نقصد بالموقف العلمى مجرد أسلحة فى الأيدى أبدعها العلم ، ذلك أنها ان حسمت اشتباكا قصيرا ، فانها لا تغنى فى المدى الطويل ، لأن العبرة أولا بالموقف العقلى نفسه القائم على الادراك الموضوعى لطبيعة وأبعاد الصراع ، ذلك الادراك الذى لا يتأتى الا بالتعامل مع الموقف باللغة المعاصرة وهى المنهج العلمى .

فى ضوء التحليل المتقدم نستطيع القول بأن السادس من اكتوبر قد أسفر عن بدايات مؤكدة لتخليق موقف عقلى معاصر ، أكثر نضجا ومنطقا ازاء الصراع الرهيب بين العرب واسرائيل .

لقد كان الانبهار بضربة العــدو فى الخامس من يونيو مضاعف الأثر لانه جاء خلافا لأى توقع أو حساب ، تأسيسا على موقف مشحون بالحماس والتفاؤل البالغ . وكان من الممكن أن تكون ضربة قاضية ، ولكن السادس من أكتوبر كان أروع ما يمكن أن يحدث لأمة أريد لها أن تستسلم بالايحاء للهزيمة الأبدية وأن تعطل ملكاتها ويشل لديها الحافز والحركة .

لم يعد للانبهار الأول أثر ، بل تبدد وتحول الى انبهار باليقظة نفسها ، وتخلف موقف عقلى جديد مبناه أنه صراع ممتد يمكن أن أسقط فيه ثم أقوم ، ويمكن أن أفقد بعض جولاته أو أكسبها ، ولكنه لا ينتهى الا اذا تقطعت أنفاس أحد الطرفين .

واذا كان ٦ كتوبر دليلا حاسما ناصعا على أن ٥ يونيو لم يكن التاريخ الأخير ، فانه فى الوقت نفسه دليل على أن ٦ أكتوبر لن يكون بدوره التاريخ الأخير . فالعرب معرضون لخطر دائم يلــوث بيئتهم الاجتماعية ويهدد وجودهم وذاتيتهم ، وهم لا يواجهون أسلحة مادية فحسب يستطيعون مقاومتها بمثلها ولكنهم يواجهون موقفا علميا مستقرا ، ومن ثم فان نتيجة الصراع مرهونة بالقدرة على المواجهة على طول خطوط جبهة الصراع . وكما لا نستطيع القتال بالنبال ازاء الصواريخ ، فاننا لا نستطيع أن نقاتل ونحن نعانى من أى قصور عقلى بالنسبة للعدو .

وفى الظن ان الأمة العربية وضعت أقدامها على أول طريق الانتصار والتحرير عندما أدركت أنه طريق طويل ، يحتاج سلوكه الى نفس طويل ، وأن العدو ــ بحكم تركيبه المصطنع ــ لا يملك هذا ، اذ ترتكز قدرته على استجماع القوى لضربة أو ضربتين ، ان طاشت منه كان عليه أن يقاسى مالا طاقة له به .

أما نحن ، فليس علينا ، ولا طريق آخر ، الا أن نقف على خط « المواجهة العقلية » مع العدو ، وأن نخطط لمستقبل معاركنا معه ، حتى يلفظ آخر أنفاسه .

القومية العربية فى حرب أكتوبر

نظرة نحو المستقبل العربى

دكتور عبد العزيز الاهوانى

هذه المقالة اشبه بمناقشة حول المستقبل القومى منها بعرض أوتحديد لما ادته القومية العربية من دور أو انجاز فى حرب أكتوبر . وذلك أن حرب أكتوبر لم تكن أول حرب بين الصهيونية والقومية العربية فهى الرابعة من ناحية التعداد الرسمى للحروب ، وهى معركة من سلسلة معارك متصلة منذ وعد بلفور فى الثانى من نوفمبر ١٩١٧ ، بل منذ المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى مدينة بازل السويسرية فى الثامن والعشرين من اغسطس ١٨٩٧ من ناحية النظر السياسى والتاريخى للمشكلة،بل لعلها أن تكون أقدم من ذلك زمنا . وحرب أكتوبر أيضا لن تكون فى تقديرنا وتقدير غيرنا خاتمة الحروب بين الصهيونية العالمية المؤيدة من الاستعمار والامبريالية وبين القومية العربية التى تشق طريقها نحو وحدة منشودة ونحو قيام دولة الوحدة الكبرى .

ومع ذلك فحرب أكتوبر تعتبر ذروة فى خط النضال بين الصهيونية والقومية العربية . وهى لهذا جديرة بأن تكون منطلقا لمناقشة قضية القومية العربية فى اطار أوسع بكثير من اطار معركة محدودة بزمان ومكان . ومن شأن حدث كبير كهذا الحدث أن يدفع الباحثين الى العناية برصد آثاره النفسية والمادية على شعوب المنطقة وأن يحفزهم الى مراجعة أحكامهم ومفاهيمهم ومواقفهم من قضية مصيرية كبرى كقضية الوحدة القومية .

ومهمة الباحثين فى هذا السبيل متعددة الجوانب متشعبة الميادين . وانها لتكاد تشتمل على كل نواحى الحياة العامة مادية ومعنوية ، واجتماعية وسياسية وثقافية والقضايا المطروحة لا تدخل تحت حصر . وواجب الباحثين أن يعمل كل منهم فى ميدان تخصصه . وأن يسبر أغوار القضايا التى يشعر أنه أقدر على سبرها والتعمق فيها والتى كانت موضوعا لاهتمامه ودرسه وعنايته من قبل .

وعلى ضوء هذا ، وانطلاقا من أحداث حرب أكتوبر ، استطيع أن اسجل هنا ظاهرة نفسية لاحظتها وشهدتها عند كثير من المثقفين المصريين . تلك هى أن ما رأوه من تعاون ومشاركة ايجابية بين الدول أو الحكومات العربية فيما يتصل بهذه الحرب كان مفاجأة بالنسبة لهم . والمفاجأة فى معناها النفسى هى حدوث ما كان يستبعد حدوثه ، أو على الأقل وقوع ما كان يرجح عدم وقوعه . أن هذه الحرب قامت باتفاق بين الدولتين مصر

وسورية . ولكنها لم تكد تقوم حتى شاركت فيها بنصيب قل أو كثر ، كل دول المنطقة العربية من أقصاها الى أدناها . ولم تكد تمضى الحرب حتى تقدمت الى مجال المشاركة قوى عربية عسكرية واقتصادية ، وسياسية . اتخذت مظهراً محليا ودوليا متماسكا . استلفت أنظار العالم كله ، بحيث كان أيضا مفاجأة أو شبه مفاجأة لكثير من الدوائر الأجنبية ، فضــلا عن هؤلاء المثقفين المصريين .

وندع جانبا موقف هــذه الدوائر العالمية التى فوجئت بهذا التضامن العربى ، ونقف عند المثقفين المصريين وبعض المثقفين العرب أيضا فى غير مصر من أقطار العروبة لنسأل عن أسباب هذا الشعور بالمفاجأة ، ولماذا جاءت الأمور خلافا لتوقعاتهم ؟

ان المفاجأة فى مثل هذه الحالات تعنى يقينا أن هناك خطــأ فى تصــور الأمور ، وتؤكد أن منطق الأحداث الجارية والوقائع القائمة يختلف عن منطق التفكير لدى من يتعرضون لمفاجأة مثل هذه . فما هو منطق هذه الأحداث وما هو منطق هؤلاء المثقفين ؟ وما هو المسار المتوقع للمنطقين ؟

تلك هى القضية التى نريد معالجتها فى هذه المقالة ، والتى نعتبرها من الناحية الفكرية والنفسية ذات أهمية وخطر كبير ، وذات أثر بعيد فيما يتصل بالمستقبل وذلك أنه لا يجوز لمن يريدون بناء مستقبلهم ، وتوجيه حاضرهم ، أن يكون بين منطقهم وبين منطق الواقــع التــاريخى صــدع أو فجوة أو انقطاع . واذا حدث هذا الصدع اختل البناء وفسد التدبير ، وتعثر أو اخفق التخطيط .

ان للتاريخ منطقا وان للحضارة مسارا ، وكلما اقترب الناس من فهم هذا المنطق وكلما وضــحت رؤيتهم لهذا المســار ، كلما كانوا أقدر على المشاركة فى صنع حاضرهم ، وفى توجيه مســارهم توجيها صحيحا نحو مستقبلهم . والمثقفون قبل غيرهم مطالبون دائما باعادة النظر فى مواقفهم ومراجعة منطقهم لكى لا يكون منطق الأحداث مفاجأة لهم ، ومصدرا للشلل والحيرة والعجز عن الاضطلاع بما يجب عليهم نحو الجيل الذى يعيشون فيه ، والأجيال التالية .

ان الذين فوجئوا بما رأوه من تعاون أو تضامن أو مشاركة أو ماشئت من مرادفات لهذه الصفات يقوم بين دول المنطقة بالنسبة لهذه الحرب ، ينطلقون غالبا فى تفكيرهم من منطق قطرى أو اقليمى أو وطنى محدود . وهم فى أغلب الظن لا يفهمون حــين يستخدمون لفظ (القومية) معناه السياسى الصحيح الذى اصطلح عليه علماء السياسة فى العصر الحاضر . فالقومية فى المفهوم الحديث تستلزم قيام الدولة القومية ، فاذا حكم على مجموعة من الشعوب أو الاقطار بأنها تنتمى الى قومية واحدة كان هذا تسليما واعترافا بأن هذه الشعوب تسير فى حركة سياسية تاريخية تهدف الى اقامةدولة واحدة ذات حكومة مركزية . فغاية القومية سياسيا ان تحقق الدولة . وانما كان الأمر كذلك لأنه يفترض أن الشعوب التى تنسب

الى قومية واحدة تتوفر لديها العناصر الأساسية التى تكون هـذه القومية الواحدة ، والتى تنتهى بها تبعا لذلك الى اقامة الدولة الواحدة . ومهما كان الخلاف فى عدد هذه العناصر والمقومات وترتيبها فهى اللغة ، والتاريخ المشترك ، ورقعة الارض المتصلة ، والمشيئة أو الارادة الشعبية التى تمليها وتفرضها المشاعر والمصلحة العامة . فمن نظر الى الشعوب العربية من هذه الزاوية ورأى أنها تشتمل على هذه العناصر المذكورة كلهـا اشتمالا حقيقيا ، كان منطلقة الفكرى وحدويا ، وكان عنده أن التعاون العربى الذى ظهر فى حرب أكتوبر أمر طبيعى لا مفاجأة فيه . بل ان صاحب هذا المنطلق يرى أن هذا التعاون على قيمته وجدواه ليس الا خطوة أولى نحو خطوات أوسـع ، ودرجة صغرى تفضى حتمـا الى درجات أعلى .
أما أصحاب المنطلق الاقليمى ، وهم الذين يرون أن الوحدات السياسية القائمة فى البلاد العربية مكتملة بذواتها مستوفية لكل كياناتها فهم الذين يفاجأون بما شهدوا ويشهدون ، لأنهم افترضوا أن الأمر لا يعنى الا الدولة القطرية التى انتزع منها العدوان الاسرائيلى جزءا من أرضها . وهم أيضا من هذا المنطلق لا يتصورون أبعاد الغزو الصـهيونى على حقيقته . ولا يدركون نوعية الصراع القائم فى المنطقـة . فاذا وجدوا مشـاركة وتضحيات من دولة عربية أخرى ، يفترض لديهم أنها قد سلمت لها أرضها ، كان ذلك مثارا لعجبهم . واذا رأوا أيضا أن امريكا قد التزمت بأن تقيم توازنا عسكريا بين اسرائيل التى لا يبلغ سكانها ثلاثة ملايين ، وبين حكومات الوطن العربى كله الذى يقـرب سكانه من مائة مليون ، داخلهم العجب أيضا ، الى كثير من أمثال هذه العجائب والمفاجآت .

واذن فهناك منطلقان من حيث النظر الى دور القومية العربية فى حرب أكتوبر . هما كما قلنا المنطلق القومى الوحدوى والمنطلق القطرى الاقليمى . وليس من شك فى أن الدور الذى اضطلعت به القومية العربية فى هذهالمعركة يرجح المنطلق الوحدوى ويؤيده ويشد من أزره ، ويدعو أصحاب المنطـلق القطرى الى مراجعة موقفهم ، والى اعادة بناء تصوراتهم للقضية من جديد . على أن أوجب المراجعة مفترض على المثقفين من الفريقين جميعا . فلكل حدث كبير يحمل فى طياته ما يضيىء الطريق ويكشف الخفايا ويفسر بعض ما كان غامضا ، بل أكثر من هذا ، ان الحدث الكبير فى العصر الحاضر يغير أحيانا الحكم على مفهوم كثير منالاحداث فى العصور السـابقة ، بل لعلنا نقول أنه يسوغ التاريخ الماضى صياغة جديدة باعتباره مفسرا وموضحا ومكملا لمساره .

ومشاركة فى هذه المراجعة وفى اعادة النظر المتجدد الى القضايا سأقف عند موضوعين يتصلان بما نحن بسبيله أولها موضوع الدولة القومية بين ماضى الأمة العربية ومستقبلها ، وثانيهما موضوع الغزو الصهيونى ، وتفرق ما بينه وبين سـوابقة من غزو أجنبى تعرضت لـه المنطقة العربية . والموضوعان متصلان اتصـالا مباشرا بحرب أكتوبر لأن الحرب صراع بين قوتين . والقوتان المتصارعتان هنـا هى القومية العربيـة من جانب والصيونية العالمية من جانب ثان . وبفهم القوتين فهما صحيحا وبادراك ما لديهما من امكانيات تفهم طبيعة الصراع ويحكم عليه حاضرا ومستقبلا .

الدولة القومية :

كتبنا وكتب غيرنا كثيرا عن عناصر القومية العربية ، وعن تاريخ هـــذه العناصر ، وعن التاريخ الحديث للوطن العربي ، وعن النزعات الوطنية والدعوات الاقليمية ، بما لا نحتاج معه لاعادة القول فى هذه القضايا . وان كان لها اتصال وثيق بموضوع حرب اكتوبر وبالصراع القائم فى المنطقة .

ولكن التصور الشامل للمعركة القائمة يثبت انها معركة تتجاوز حدود اى قطر عربى لان ابعادها العالمية ومشكلاتها الدولية ونفوذ الصهيونية وتغلغلها فى اقطار كثيرة من العالم ، وتحالفها او تبعيتها للامبريالية الآن وللاستعمار القديم من قبل ، يجعل ساحة المعركة اوسع كثيرا من ساحتها الحربية القائمة الآن . ومعنى هذا أن الدول العربية من حيث هى دول قطرية ستكون حتما أقل قدرة على حسم الأمور وعلاج القضية منها لو تم بينها نوع من التوحيد يضم شتاتها ويجمع قواها البشرية والاقتصادية والسياسية . وهذا النزوع الطبيعى الى الوحدة من شعوب تؤلف بينها رابطة قومية وتتعرض لخطر داهم مشترك ظهر بقدر من الجلاء والوضوح فى حرب اكتوبر الماضية وان اخوف ما تخافه الصهيونية وأقوى ما يفزع الامبريالية العالمية أن تقوم فى هذه المنطقة دولة كبرى موحدة ، لأن هذه الدولة الكبرى ستكون قادرة على تقرير مصيرها ، قادرة على حل مشاكلها بحيث يزول بوجودها وجود الصــــهيونية ، ويتقلص نفوذ الاســـتعمار والامبريالية .

لذلك كله كان الحديث عن الدولة القومية والتفكير فى أمرها وفى التمهيد لها ، والتطلع نحوها وتحليل الأحداث الماضية والحاضرة من نقطة النظر اليها ، مما لا يجوز اهماله ، ومما لا يعتبر ابتعادا عن مشاكل المرحلة الحالية ، لأنه من صميم الحاضر ، وليس قضية مستقبل مغيب بعيد يكون الحديث عنه رجما بالغيب ومسرحا للظنون والخيالات . اذ أنه ينبغى أن يستقر فى الأذهان أن المستقبل المنشود يشارك مشاركة ايجابية فى صنع الحاضر كما يشارك الماضى فى صنعه أيضا .

واذا كان تصـــــور قيام دولة عربية كبرى فى أول هذا القرن كان يعتبر ضربا من الخيال ، فان هذا التصور منذ منتصف القرن ومنذ قيام اسرائيل أصبح تصورا أقرب الى الاحتمال ، ثم هو بعد حرب أكتوبر أقرب الى التحقيق والاستطاعة . والأمر يستلزم كما قلنا تأملا ودراسة ، ويستلزم وضوحا فى الرؤية وادراكا للمشاكل والشبهات والشكوك التى تدور حول القضية ، لتبديدها ولوضع الأمور على أساس علمى ومنهجى سليم .

والقضايا التى يجب تناولها فى هذا الموضوع متشعبة ، والعقبات التى تؤخر الوحدة وقيام الدولة القوميـــة كثيرة تمس ميادين الحيـــاة كلها . والمسلمات التى تحتاج الى مراجعة عديدة ، وفهم روح العصر الحاضر بالقياس الى العصور الماضية لابد منه لمن مد بصره الى المستقبل . وطبيعة الدولة الحديثة واختلافها جوهريا عن طبيعة الدولة القديمة ينبغى أن يكون دائما فى الحساب لمن يعالجون هذه الأمور . ومن هذه الزاوية أعتقد

ان تساؤلا عريضا لا يزال يشغل المفكرين حول دولة الوحدة جدير ان يقدم على أسئلة كثيرة لانه يتطلب اجابة واضحة فى مسألة اختلطت فيها عناصر نفسية شتى .

ان السؤال الذى يفرض نفســـه على كثير من المثقفين والذى احاول الاجابة عليه هنا وتوضيح ابعادة هو : أليس قد عرفت المنطقة من قبل دولة مركزية ، بسطت نفوذها على المنطقة العربية كلها فى فترات تاريخية معروفة ؟ ثم الم تتفتت هذه الدولة المركزية الى دويلات متعددة بعد ذلك هى هذه الدول العربية القائمة اليوم ؟ ما هو المغزى الذى يمكن استخلاصه من هذه الواقعة التاريخية بالنسبة للحاضر والمستقبل ؟ ان هذا التسـؤل جدير بأن يطيل المرء الوقوف عنده ، لانه ليس تاريخا ماضيا وانمـــا هو مستقبل ايضا ، لان التاريخ المشترك ركن واســـاس من أركان القوميـــة وأســـها . وهذا التاريخ هو واللغة هما آية القومية وسندها . وأحسب ايضا ان هذا الموضوع لم تلق عليه أضواء كافية ، ولا أذكر فيما قرأت عن القوميـــة العربية أن نوقش باستفاضة طبيعة الدولـــة أو الدول المركزية العربيـــة القديمة من حيث هى تمهيد أو تعويق للدولة القوميـــة العربية المنشودة . ولست أطمع فى ان أفى الموضوع حقه ، ولكن لا أقل من نظرة الى بعض جوانبه ، لأن السؤال الذى أوردناه عن تفتت الدولة المركزية القديمة يقوم مقـــام الحجة فى يد كل من الفريقين المتعـــارضين . ذلك أن بعض انصار الوحدة يرون فى قيام تلك الدولة التاريخية شاهدا ودليلا على أن الوحدة هى الأصل ، وان التجزئة أمر عارض متكلف ، وهـــم غالبـــا ما يردون هذه التجزئة الى الاستعمار الأوربى الحديث ، وينسبون اليه اقامة الحدود المصطنعة وانشاء الدويلات التى لم تكن لها من قبل وجود ، وعندهم انه ما ان يزول الاستعمار الاوربى حتى تعود الأمور الى نصابها وتعود الدولة العربية الواحـــدة . وهذا ليس بصـــحيح . أما القطريون أو الأقليميون فيرون أن التجزئة التى حدثت هى المنطق التاريخى الصادق الذى يثبت أن الدولة المركزية كانت متكلفة ، وأن حقيقة الأوضاع تؤكد أن تعدد دول المنطقة سليم . وهذا ايضا غير صحيح .

نقول ان كلا الفريقين يخطىء فى استدلاله ، ويفهم الأحداث التاريخية فهما لا يتفق وطبيعتهـــا ولا يضعها فى اطارها الصحيح . فالدولة القديمة موحدة أو مجزأة لم تكن دولة قومية لتصبح حجة فى يد هؤلاء أو اولئك . والدولة القومية الجديدة ليست احيـــاء لدولة مركزية قديمة ، وهى فى الوقت نفسه لا يمكن أن تبقى فى حدود الدول الوطنية القائمة . وعلينا أن نقوم باستعراض سريع لطبيعة تلك الدولة المركزية التى قامت فى المنطقة من قبل ، ليتضح الأمر ، ولكن علينا قبل هذا الاستعراض السريع أن نتفق على مفهوم الدولة القومية فى الاصطلاح السياسى الحديث .

ان العصر الحديث يسلم بأن الشعب مصدر السلطات ، ويعتبر الدولة القومية من صـــنع الارادة الشـــعبية وانها نتيجـــة للوعى السياسى لدى الجماهير . وهذا مفهوم سياسى جديد لم ينشأ الا فى العصـــور الحديثة نتيجة للوعى السياسى الذى أشرنا اليه . وهذا الوعى كان اثرا لتطور اجتماعى واقتصـــادى طويل قضى على عصـــور الاقطاع وأنشأ طبقات

اجتماعية ناهضة حملت مسئولية الحكم من طبقات أو حكام سابقين عليها .
وهذا التطور الاجتماعي والسياسي الذى هو ثمرة الحضارة الحديثة جعل مفهوم الدولة الحديثة يختلف تماما عن مفهـوم الدولة القديمة التى كانت تستمد شرعيتها من مصادر غير الشعب ، من ارادة سماوية ، أو من حق الهى ، أو من وراثة لهـا امتيازات وحقوق . وتبعا لذلك اعتبرت الحركات القومية وليدة العصور الحديثة فهى عصور القوميات ، ومقابل ذلك لا تسمى دولة بالدول القومية . وهذا المفهوم السياسي الحديث للدولة هو الذى أخذ يشق طريقه الى أقطار الوطن العربى منذ بدات النهضة العربية الحديثة متأثرة بالحضـارة الاوربية ، وسائرة فى طـريق التطور الاجتماعى والسياسى والعالم المعاصر ، وتبعا للوعى السياسى الجديد لدى الشعوب العربية . وهو تطور يزداد يوما بعد يوم ، وينمو الوعى به جيلا بعد جيل ، حتى يستكمل نضجه وينتهى الى غاياته . وهذا الوعى السياسى الجديد هو الذى سيدرك بغير شك أن تحقيق غاياته تحقيقا كاملا لن يتم فى اطار التجزئة وان طبيعة العصر الحاضر وقيام الكتل الدولية الضخمة ، وفداحة اعباء التقدم العمرانى والاقتصادى ، وخلق مجتمع الكفاية والعدل، والتخلص من الاستغلال الخارجى والداخلى يستلزم اقامة الدولة القومية الكبرى التى هى طبيعة المنطق التاريخى الحديث .

وعلى ضوء هذا المفهوم الطبيعى الحديث لمعنى الدولة نستعرض فى ايجاز الدولة القديمة فى المنطقة لنرى طبيعتها ولنرى مغزى انقسامها الى دويلات ، وما يحمل ذلك من دلالات . ولنعرف أنها لم تكن الدولة القومية التى يراد استعادتها أو التى يفهم من تفتتها وجود قوميات متعددة فى المنطقة .

ان الدولة القديمة فى المنطقة العربية ارتدت ثوب الخلافة الدينية ، وتقلبت هذه الخلافة فى دورين تاريخيين : خلافة واحدة مقرها المدينة أولا على عهد الراشدين ، ثم دمشق على عهد الامويين ، ثـم بغداد فى الفترة الأولى من تاريخ العباسيين . وتلا ذلك دور آخر ازدوجت فيهالخلافة .فقام بجانب الخلافة العباسية فى بغداد خلافة فاطمية فى مصر والمغرب ثم جاء عصر ثالث تقلص فيه ظل الخلافة ، مع وجودها اسميا ، عن مناطق من العالم العربى قام فيها ملك لا يستمد شرعيته من الخلافة ، وانما يستمدها من الاستيلاء بالقوة على مقاليد الحكم . ثم تجىء بعد ذلك الخلافة العثمانية فى العصور الأخيرة فتمد سلطانها على مناطق من الوطن العربى ، ثم تقوم اثناء وجودها وبعد زوالها واثنـاء فترة الاستعمار الأوربى هذه الدول الحديثة التى تواجه بعد الغزو الاستعمارى الغزو الصهيونى الحالى .

فنحن اذن امام مرحلتين تاريخيتين ، مرحلة الخلافة موحدة أو مزدوجة ، ثم مرحلة ما بعـد الخلافة . اما المرحلة الأولى فكانت الحكومة تسـتمد شرعيتها فيها من الدين ، وكان أصحابها يرون أن منصبهم منصب دينى ، وأن سلطتهم تشمل الأمة كلها ، والأمة فى مصطلح ذلك العصر هى الجماعة الاسلامية بأسرها ، يستوى فى ذلك العرب والعجم على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وبقاعهم ولهذا لا يمكن أن يقال ان الخلافة كانت دولة قومية لأن

الدولة القومية كما رأينا تقوم على الارادة الشعبية من جانب ثم لأنها لا تتجاوز فى حدودها الأمة بمعناها القومى .

وقيام خلافتين عباسية فى بغداد وفاطمية فى القاهرة فى عصر واحد لا يمكن أن يستدل به على أن الخلافة قابلة للتعدد أو على أن نفوذ احدى الخلافتين يمكن أن يقتصر على العرب وحدهم دون المسلمين جميعا . فهذا مالم تقبلة و تسلم به الخلافة العباسية أو الفاطمية ، فكانت كل واحدة منهما تدعى الشرعية لنفسها وتعتبر الثانية خارجة عليها ، وتستمد كلاهما شرعيتها من الانتســـاب الى النبى ووراثته ، هؤلاء الى العبـــاس عم الرسول ، وأولئك الى على بن عمه ووصية فى رأيهم . والتكليف الـــدينى والمنصب الشرعى لا يحتمل الازدواج .

أما المرحلة الثانية ، وهى مرحلة ما بعد الخلافة ، فليس من الحق كما رأينا أن يقال ان الاستعمار الأوربى الحديث هو الذى أنشأها جميعا . فقد كان كثير منها قائما قبل الاستعمار . وكذلك ليس من الحق أن يقال أنها كلها نشأت يوم أن نشأت بارادة شعبية ، وان ضيق حدودها أو اتساعها كان مستندا الى خصائص بشرية أو حدود جغرافية فاصلة ، ليستنتج من قيامها ان المنطقة العربية تشتمل على قوميات متعددة ولا تنتظمها قومية عربية واحدة . والمسألة بالنسبة للدول القائمة مسألة وعى قومى وارادة شعبية ومصلحة مشتركة تصنع حاضرها ومستقبلها وفقا لغاياتها ولروح العصر الذى نعيش فيه وطبيعة الحضارة العالمية التى تسود المجتمعات الدولية . ونحن لا نشك فى أن منطق الوحدة هو منطق المستقبل وأن الصراع بين العرب وأسرائيل ، كما سنرى فى الموضوع التالى ، حافز من أهم الحوافز بالتعجيل فى مسيرة الوحدة .

ولكننا نحب قبل أن ننتقل الى الموضوع الثانى أن نقف وقفات قصيرة عند بعض شبهات أو قضايا تتصل بدولة الخلافة وما ذكرناه من معناها الدينى خلافا لمعنى القومية فى الدولة الحديثة .

واحدى هذه القضايا هو ما يجوز أن يقال حول فكرة الشرعية فى دولة الخلافة من أن دولة الخلافة اعترفت بفكرة (البيعة) واعتبرتها شرطا فى صحة الخلافة ، فليس يجوز للخليفة أن يباشر ســـلطته الا اذا بايعه الناس ، أو أهل الحل والعقد منهم على الأقل . ويجوز أن يقال أيضا ان الخلافة فيها تعهد بتطبيق حكم الله بحيث تسقط طاعة الناس للخليفة ويجوز لهم خلعه اذا لم يطع الله واذا خرج على أحكام الشرع . ومعنـــى هذين المبدأين ان الخلافة ليست دولة (ثيوقراطية) بالمعنى الذى كان فى دول أخرى كمصر الفرعونية ، وأن الخليفة بمقتضى المبدأ لا يتمتع بالحق الالهى الذى أضفى على الملوك فى فترات من التاريخ بحيث لا يجوز خلعهم . يضاف الى ذلك أن الخلافة لم تفترض نظريا مبدأ الوراثة فى مرحلة من مراحلها بما يجعلها قريبة من الدولة الحديثة .

أما القول بأن دولة الخلافة لا تتفق فى بعض المعانى وخاصة فى مراحلها الأولى مع الحكومة الثيوقراطية فى المصطلح السياسى أو مع أصحاب الحق

الالهى فى الملك فصحيح . وليس بشرط أن ينطبق التصنيف السياسى للدول انطباقا حرفيا كاملا على كل دولة ، بحيث تتشابه الدول من كل الوجوه تحت عنوان واحد . فالخلافة كنظام شرعى وتاريخى من نظم الحكم يختلف فى كثير من خصائصه عن نظم الحكم التى قامت قبله أو بعده . ولكن من الحق أن الخلافة التى وجدت فى العالم الاسلامى بعد أن استكملت الفتوح وبعد أن انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية فى الأقطار المفتوحة ، وبعد أن تشكلت هذه الشعوب القديمة تشكلها الجديد ، كانت خلافة أقرب ما تكون الى الحكم الثيوقراطى والى الحق الالهى للحكام والى الملك الموروث ، وان ادعت شكليا البيعة وكنت الخلافة الفاطمية فى مصر بالذات أكثر ايغالا فى هذا المعنى من الخلافة العباسية لأن الاعتراف بالأئمة لا يتجزأ من العقيدة الاسلامية عندهم . وهذه الخلافة المتأخرة المزدوجة وان باينت الخلافة الأولى التى قامت فى المدينة فان الخلافتين على السواء فى أن الجماعة الاسلامية لا الجماعة القومية خلافا لفكرة الدولة القومية الحديثة .

وكذلك يمكن أن يقال أيضا فيما يتصل بقضية الشرعية فى الخلافة ، أن الخلفاء قد فقدوا سلطتهم التنفيذية فقدانا يشبه أن يكون كاملا فى عصور طويلة ، وأنه قد قامت تحت اسم الخلافة دول مدنية ، لا يدعى أصحابها حقا شرعيا خاصا بهم ، وانما يستمدونه شكليا من الخليفة وأن هذه الدول قد اضطلعت بكل المهام التنفيذية فى الحكم ، مثل الدولة البويهية والسلجوقية فى الشرق ومثل دولة المماليك فى مصر والشام . وكأن الخلافة قد اضطلعت بالنسبة لهذه الدول ما اضطلعت به البابوية فى بعض عصورها بالنسبة لدول أوربية . وهذا قول صحيح ولكنه لا يغير من الأمر من شىء . فهذا الازدواج بين سلطة شرعية اسما وسلطة تنفيذية فعلا لا يدخلنا فى نطاق الدولة القومية ، ولا يخرجنا من نطاق الدولة الدينية ، ولا يمكن أن يتخذ نموذجا لدولة فى العصر الحاضر .

وخلاصة القول أن الدولة القديمة مركزية أو غير مركزية تختلف اختلافا جوهريا عن الدولةالحديثة منحيثمفهومها والسلطة فيها والصلة بينها وبين الشعب ومكانة الحاكم أو الحاكمين فى السلم الاجتماعى أو السياسى . وليس معنى هذا كله أن الدول القديمة لم تترك آثارا باقية فى المجتمع العربى الحديث ، ولا أن دراسة أوضاعها وتاريخها مما لا طائل وراءه . فان هذه الدول مهما يكن أمرها هى جزء من تاريخ الأمة ومن تراثها ، ويرجع اليها والى الأحداث التاريخية الأخرى هذا التقارب بين عقليات المواطنين العرب ونفسياتهم فى مختلف الأقطار العربية شرقا وغربا ولابد من أن يستفاد الى أقصى حد من دروس التاريخ القومى ومن التراث القومى ، ولابد من وجود من يستطيعون دراسة المجتمع العربى المعاصر ومعرفة ما فيه من قوة وضعف ، ولن تتحقق هذه الدراسة بأسلوب علمى صحيح الا اذا عرف فى دقة ووضوح آثار الأجيال السابقة ورواسب الماضى البعيد والقريب . وانما المراد من الوقوف عند أمر الخلاف بين الدولة القديمة والدولة الحديثة هو تصحيح الأوضاع وتوضيح الطريق وتبين مراتب الأمور من الأهمية وأولوياتها ، واستكشاف روح العصر الجديد

ليكون البناء على أساس سليم ولكيلا تتبدد الجهود سدى ، وتتجه اتجاها عكسيا لما ينبغي أن يكون .

وننتقل الى الموضــوع الثاني الخاص بالغزو الصهيوني لنرى موقف القومية العربية منه وموقع حرب أكتوبر من هذا الموقف .

طبيعة الغزو الصهيوني :

عرف الوطن العربي في العصور السابقة أنواعا من الغزو وصنوفا من العدوان ، ولكن هذا الغزو السابق يختلف في طبيعته وأهدافه عن الغزو الصهيوني في العصر الحاضر ، بما يجعل مقاومة هذا الأخير تختلف جذريا عن مقاومة ما قبله .

لقد شهدت المنطقة الغزو الصليبي في آخر القرن الحادي عشر الميلادي ، حيث تتابعت أفواج من المحاربين الأوربيين برا وبحرا الى منطقة فلسطين وغيرها من مناطق الشام تحت ستار الدين لاستنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين . وكان المحاربون من نبلاء وملوك ومن عوام ينتمون الى أوطان تركوا فيها شعوبهم وأهليهم ، وأقام هؤلاء الغزاة ممالك ودويلات عاشت بعضها أمدا غير قصير ولكن مشاعر الناس وتقديراتهم في الوطن العربي كانت تدرك أن هــذه الممالك والدويلات في طريقها الى زوال طال الأمد أو قصر ، لأن أصحاب هذه الممالك لم يدعوا أن الأرض أرضهم ولا أن الوطن الجديد الطارىء يغنيهم عن وطنهم الأصلي . فهم في نظر أنفســـهم غرباء في أرض لا ينتمون اليها . وهذه الصفة نفسها هي أيضا التي اتصف بها الاستعمار الأوربي لأقطار الوطن العربي منذ القرن الماضي . كانت الأرض العربية في نظر أوربا الناهضة اقتصاديا وعلميا حقلا يستغلون خيراته ويستفيدون من اليد العاملة فيه لأغراضهم المالية والتجارية ،وكانت سوقا لبضـــائعهم الجديدة التي نمت وتكدست بسبب الثورة الصنـــاعية واختراع الآلة . ومع ذلك فقد قاومت المنطقة هـــذين الغزوين مقاومة طويلة ، ودفعت في سبيل التحرر ثمنا باهظا من الارواح والأموال وشعرت أيضا بضرورة التعاون بين أكثر من قطر في دفع هذا العدوان . فتوحدت مصر والشام تحت ظل الدولة الأيوبية ثم في عهـــد المماليك حتى تم لها ازالة هذه الدول اللاتينية التي بقيت في الشام . وتعاونت أكثر الأقطار العربية وشاركت مشاركةايجابية فيالثورة الجزائرية . ولقد كانت الثورة الجزائرية أعنفالثوراتالعربية واقساها لأن المستعمرينالفرنسيين داخلهم بعض الوهم في أن تكون الجزائر فرنسية ، وفي أن تسلخ من أرض العروبة فتعتبر امتدادا لفرنسا .وهذا الوهم جعل الاحتلال الفرنسي للجزائر يختلف عن الاحتلال الفرنسي لأقطار أخرى هي المغرب وتونس وسورية ، فتحول في الجزائر الى ما يشبه غزو استيطان ، ووضعت مخططات لتحقيق هذا الغرض فكانت شراسة الحرب ، وكانت اســتجابة المواطنين العـــرب في أقطار أخرى . وعادت الجزائر الى عروبتها بعد جهود شاقة وتضحيات فادحة .

وهذا الوهم الذى ساور الفرنسيين بالنسبة للجزائر ، والذى احدث فى الوطن العربى نموا واضحا لفكرة القومية العربية ، هو الذى يساور اليهود الذين يدينون بالصهيونية بالنسبة لفلسطين ، وهو وهم أعمق جذورا وأبعد مدى وأبشع آثارا من الوهم الفرنسى ، فلابد ان يكون رد فعله فى الوطن العربى أيضا أعمق جذورا وأبعد مدى وأبشع آثارا من رد الفعل ازاء وهم الاستيطان الفرنسى فى الجزائر . ولابد أن تتجاوز فيه جهود الاقطار العربية حدود المشاركة والتعاون الجزئى الى مشاركة شاملة وتعاون كامل ، لأن الخطر هنا وفى ظروف العصر الحضر ومنجزاته يتجاوز حدود هذه القطعة من الارض العربية التى احتلها اسرائيل بعد حرب سنة ١٩٤٨ الى ما وراءها وحولها من أرض ولأن مخططات الصهيونية ابعد من أن ترضى بحدود ثابتة فى نطاق ضيق .

وفى الحق ان الحديث عن التوسع الصهيونى ، ومخططات الصهيونية لاقامة دولة من الفرات الى النيل ليس مسألة دعاية ولا هى مبالغة يراد بها اثارة هم العرب وحماستهم . وانما هى بناء على الوهم الصهيونى ضرورة ، ان لم تكن عقيدة عند أصحابها لا يملكون التنازل عنها لو شاءوا لأن التنازل عنها تبديد نهائى للحلم الطويل . وتقلص حتمى ينتهى بالقضية كلها على الصورة التى انتهت بها الدويلات اللاتينية والغزو الاستيطانى الفرنسى . والصهيونية تعلم ذلك الآن تماما .

ونحن نستطيع أن نجد شواهد على ذلك اذا التمسناها فى كثير من انتاج الصهيونية فى كل مجال ، فى السياسة والادب والفن والأغانى . ولكننا نستطيع أن نستغنى عن سياق الشواهد وحشد الأقوال والتصريحات او النظر الى الخرائط الصهيونية وما تحرص عليه من عدم تثبت حدود لدولتها بمجرد التأمل البسيط والنظر المنطقى السليم .

ان الوهم حين يطول زمنه يصبح بالنسبة لصاحبة حقيقة : ثم اذا شرع فى تنفيذ هذا الوهم وحقق نجاحا فى خطواته الأولى تأكدت لديه هذه الحقيقة تأكدا لا يستأصله الا عملية جراحية قاسية ، وحلم الصهيونية بالوطن القومى فى فلسطين حلم طويل غذته مشاعر عديدة وظروف نفسية واجتماعية شتى جعلت كثيرا من اليهود لا يستطيعون ان يعيشوا فى الأوطان التى استقروا فيها معيشة المواطنين العاديين الذين لهم وعليهم ما لمواطن وبلاد الدنيا وعليهم ، وادى ذلك الانحراف والشذوذ الاجتماعى الى اذكاء الوهم واطالة عمر الحلم . ثم لما شرعت الصهيونية فى تنفيذ مشروعها الوهمى وجدت قدرا لاشك فيه من النجاح ، لانها اقامت المشروع فى ارض يحتلها الاستعمار الاوربى ، ولا يملك اهلها تحت القهر الاستعمارى من أمرهم شيئا ، وكانوا لما هم فيه من تخلف مادى وتجزئة سياسية عاجزين عن ضرب هذا الوهم الصهيونى الضربة التى تفيقه ولو انهم استطاعوا ذلك لاستراحوا وأراحوا العالم . ولو أن القوى الاستعمارية المتحكمة فى المنطقة حكمت العقل او احتكمت الى الواقع التاريخى من اصالة العروبة فى المنطقة لتصرفت على غير الوجه الذى تصرفت عليه ، ولكن قادة الاستعمار الأوربى فى نشوة الانتصار ، كانوا أبعد الناس وقتذاك عن الاحتكام الى سنن الحياة ووقائع التاريخ المعاصر . ويكفى أن يرى

أحد قادة الاستعمار أن الاحتلال الانجليزى لبيت المقدس هو نهاية الحروب الصليبية .

فى هذه الظروف حققت الصهيونية نجاحها الاول ، وهو نجاح بالنسبة اليها والى وهمها واحلامها خطير الى أبعد حدود الخطر . لأنه أكد لديها أن وهمها هو الحقيقة التى لا شك فيها .

وتمضى الأحداث وتتعاقب السنوات وتظفر الأقطار العربية باستقلالها من مخالب الاستعمار قطرا بعد قطر ، ويظهر الوعى القومى الذى تحدثنا عنه فى أول الكلام شيئا فشيئا ، ويحاول الوطن العربى أن يعيد بناء مجتمعه على أسس علمية حديثة تتفق وروح العصر واصول الحضارة العالمية الجديدة ويسوء الصهيونية هذا الوعى الجديد وهذا التشييد الحضارى الحديث وترى فيه خطرا يهدد حلمها ووهمها القديم ، فتضطر الى مقابل ذلك بما من شأنه ان ينمى هذا الوهم ويثبت أركانه . واذا بها تبحث عن المهاجرين اليها من كل مكان ليزداد عــدد سكانها ، وتستحث على الهجرة اليها ، وتتشدد فى هذا السبيل الى حد ازعاج من لا يريدون الهجرة ، والتهديد لهم وهو موقف يبدو فى ظاهره عجيبا مناقضا للدعاوى الأولى للصهيونية التى زعمت انها تقيم هــذا الوطن المغتصب انقاذا للمضطهدين من اليهود فى العالم ، ولأنهم ظلموا الى حد لا يستطيعون فيــه العيش فى البلاد التى يعيشون فيها . فما بالها اليوم تزعج المطمئنين من اليهود وتضطرهم الى النزوح عن أوطانهم بالتهديد والاغراء ؟ ولماذا يسوءها أن يعتبر اليهــود أو بعضهم الأوطان الأوربية التى عاشـــوا فيها مئات السنين أوطانهم ؟ ليس ذلك الا لأن الوهم الصهيونى فى الوطن القومى المزعوم ينبغى لكى يعيش أمام الوعى العربى الجديد أن يكثر ما استطاع من تعداد السكان بحيث يبلغون أضعاف ماهم عليه الآن ، ولو حشد الناس بالاكراه وارغموا بالتهديد واستخدمت معهم كل اساليب الاغراء وكيف بناء على هذا تثبت لاسرائيل حدود تقتصر على رقعة ضيقة جدا اذا قيس ببعض أقطار الوطن العربى لا بالوطن العربى كله ، أن الوهم الصــــهيونى يستلزم حتما أن تتوسع الرقعة أو على الأقل أن يظل أمل التوسع قائما والا تعرض الوهم لخطر السقوط ، ومتى سقط الوهم سقط كل شىء ولابد للصهيونية ايضا ان ترتبط بدولة كبرى ارتباطا يجعلها جــزءا من تلك الدولة . ولابد أن تستخدم كل أساليب الضغط والاغراء وأن تسلك كل سبيل مهما يكن غير أخلاقى لتحقيق ذلك

لقد بنى المؤرخ الانجليزى توينبى فلسفته التاريخية فى قيام الحضارات وسقوطها على فكرة (التحدى) فذكر أن الحضارة تنشأ اذا واجه مجتمع بشرى ما يهدده ويتحداه ، اذ أن هــذا التحدى يحفز المجتمع على أن يستغل طاقاته الكامنة لمواجهة هذا التحدى والتغلب عليه ، واذا فعــل المجتمع ذلك مضى فى الشوط وامعن المضى فى الطريق حتى يبنى دعائم الحضارة وعلى هذا الضوء فسر قيام الحضارات فى وادى النيل وفى اليونان وغيرها من مواطن الحضارة خلال العصور المتعاقبة أما الشعب الذى لا يواجه بهذا التحدى فيظل فى حياته البدائية الأولى . واشترط المؤرخ

الانجليزى أن يكون التحدى الذى هو مصدر الحضارة فى حد وسط ، لا يزيد الى الدرجة التى تسحق المجتمع ولا يخف الى الدرجة التى لا يشعر المجتمع فيها بخطره وضرورة مقاومته .

ودور الصهيونية فى هذه المنطقة فى نظرنا صورة من صور هذا التحدى الذى تحدث عنه توينبى . والشرط الذى اشترطه فى درجة التحدى متحقق فى موقف القومية العربية من الصهيونية فلا الصهيونية بالأمر الهين الذى تغفل عنه القومية العربية وتترك أمره للفلسطينيين وحدهم ، لأن اطماعه وطبيعة تكوينه لا يمكن أن تتوقف عند حد ولا ينهض بمقاومته أهل المنطقة التى يحتلها ولا الصهيونية أيضا بالأمر الساحق الذى يعجز الأقطار العربية مجتمعة على تصفيته . أنه التحدى الذى يعجل بالقومية العربية الى السير فى الطريق الطبيعى المنطقى الذى تسير فيه منذ تحررت من الاستعمار الاوربى الى دولة الوحدة الكبرى .

وهنا يكون المعنى الواضح والمغزى الصريح لحرب اكتوبر ١٩٧٣ . فالمعركة الحربية شاهد على أن بناء المجتمع العربى الجديد على أسس الحضارة والعلم قد تحقق منه قدر كبير . فقدواجهت اسرائيل فى ساحة المعركة جيوشا حديثة تحمل أسلحة متطورة وتستخدمها استخداما سليما . وبناء الجيش الحديث لا يكون الا ثمرة لنشاط حضارى سابق ولجهود علمية متصلة ومجتمع يبنى نفسه بناء جديدا . والمشاركة العربية فى كل اقطار الوطن العربى تشهد بأن الوعى القومى يتغلغل يوما بعد يوم فى كل بقعة من بقاع الوطن الكبير . وسلاح البترول يكشف للعالم وللمواطن العربى أن أرضه تنطوى على ثروة كبرى ، لها خطرها فى موازين الحضارة ولها اثرها فى كل دول العالم ، بما يجعل هذا الوطن يزداد ثقة بقوى وطنه البشرية والمادية فضلا عن قيمته الحضارية .

اذا كان هذا هو التحدى الذى يواجه العرب منذ أكثر من ربع قرن ، وكانت هذه ظروف القومية العربية وموقف الصهيونية . فهل يكون دور القومية العربية فى هذه الحرب مفاجأة لأحد ؟ أنه الدور الطبيعى المتوقع وانه الدور الذى سيزداد اثرا وايجابية حتى يخلص الوطن العربى والعالم كله من هذا الحلم المزعج حلم الصهيونية البغيضة .

صنع قــرار ٦ اكتوبر

جميل مطر

يعتمد الحكم على جودة أو ضعف أى قرار ســياسى على مدى تحقيق القرار لهدفه الاســاسى كما يتوقف نجاحه أو فشله على انسجامه مع الظروف المحيطة بصانع القرار وعلى تطابق أو تجانس هذه الظروف مع رؤية صانع القرار لها .

لم يكن قرار ٦ اكتوبر وليد صدفة أو خيال ، وانما جاء نتيجة رؤية محددة لواقع موضوعى فرض نفسه . لم يكن صانع قرار ٦ اكتوبر يرغب أو يفــكر فى القاء اسرائيـــل فى البحر لأن الواقع الدولى المحيط بــه من كل جانب يؤكد استحالة تحقيق هــذا الهدف حتى لو اكتملت من عناصر القوة الذاتية والعربية ما يجعل الهدف ممكن التحقيق .

كما ان قرار ٦ اكتوبر لم يأت نتيجة افكار عشوائية أو ضغوط عصبية او نفسية بل جاء نتيجة درجة من المعرفة الواقعية بأن الوقت هو أفضل وقت ولأن اكثر أن لم يكن كل أبعــاد الواقع المحيط بصانع القرار تبدو مناسبة ، بل وملحة لتحقيق هــذا الهدف . وكما أن واقعية أى هــدف ترتبط بواقعية الرؤية للظروف التى تسمح بتحقيقه كذلك تحدد هدف قرار ٦ اكتوبر بحيث يناسب هــذه الظروف ، لا يعلو عليها فيلهو بــه فراغ اللاواقع . ولا يهبط دونها فيردمه الواقع .

من خــلال النظرة الادراكية للظروف المحيطة بصانع القــرار المصرى ومن خــلال تجاربه الشــخصية عبر الحروب العــربية الاسرائيلية وعبر السياسة المصرية وعبر احتكاكه بمختلف صور الازمة النفسية التى خلفتها حرب ١٩٦٧ ، وتحت الاصرار والتمسك بالهدف المصرى الاكيد المتعلق باستعادة الأرض العربية حدد صانع القرار المصرى هدف قرار الحرب بأنه ذلك الذى يحقق :

تحريك ازمة الشرق الاوسط نحو الحل العادل والدائم لصالح الدول العربية المتاخمة لاسرائيل ولصالح حقوق الشعب الفلسطينى .

وحين بدأ لصانع القرار أن الظروف الموضوعية اللازمة لتحقيق هدف قراره قد توافرت بالشكل الملائم ، بدأ فى الاعداد لخلق ظروف مناسبة تساعد على انجاحه .

والمعروف انه كثيرا ما تتخــذ قرارات سياسية تتفق وتتلاءم مع الظروف الموضوعية المثالية ولكن تفشـــل لأن الاعداد اللازم لم يكن كافيا أو لأن

التوقيت لم يكن موفقا أو لأن الشكل الذى يتخذه القرار لم يتناسب حجما أو جدية أو صدقا مع محتوى القرار أو هدفه . وأحيانـا يحقق القرار السياسى أهدافه الاستراتيجية ويفشل فى بعض أهـدافه التكتيكية وذلك يحدث حين يتجاوز التنفيذ هدف القرار أو يحدث تباطؤ فى الانتقال الى خطوات تالية . ولاشك أن قرار ٦ أكتوبر اذا قيس بحدود هـدفه يعتبر متناسقا مع كل متطلبات نجاحه .

الظروف الدولية :

فى نزاعات دولية معقدة ومزمنة كنزاع الشرق الأوسط وفى عالم يمر عبر تحولات جوهرية فى مضمار تفاعلاته الاســاسية وقواعد ســلوكه يصعب تصور ادارة النزاع فى غير تصور شمولى عن علاقات وتفـاعلات النزاع مع الظروف الدولية المحيطة به . ونزاع الشرق الأوسط بالرغم من أنه لم ينشأ أساسا نتيجة تفاعلات على قمة النظام الدولى الا أنه ارتبط بها نتيجة طبيعة نشأة وتطور الطرف الاسرائيلى فيه . فاسرائيل كجسم دخيل لم تستطع منفردة مواجهة عوامل الطرد من جانب الجسم العربى الذىيحاول لفظها خارجه ، وكان لابد من أن ترتبط عضويا بأجسام خارجية قوية تستمد منها القدرة على استمرار الحياة داخل هذا الجسم الى حين تتمكن منه وتنتشر بين أحشائه وتسيطر على أهم أعضائه وأطرافه .

ومن هنا بدأ ارتباط النزاع الاقليمى فى الشرق الأوسط بالنزاعات الدولية الاكبر كجزء مضـاف وليس أصيلا ومن ثم ظل — من ناحية — محاطا بقيود وحدود تمنع تشجيع تصعيده الى مستوى المواجهات الكبرى . ومن ناحية أخرى ظلت أطرافه المباشرة قادرة على أن تستخدم حيزها فى النزاع الدولى الاكبر لتزيد من امكانياتها وقدراتها على المواجهة المحلية المحدودة . الا أن هذه القاعدة انتهكت مرتين ، المرة الأولى فى ظل تحول دولى رئيسى من عالم استعمار تقليدى الى عالم تتأكد فيه ملامح ثنائية الاقطاب وحالة الحرب الباردة . حينذاك استخدمت بريطانيا وفرنسا النزاع فى الشرق الأوسط ذريعة أخيرة تحاول بواســطتها استعادة المكانة الاســتعمارية . والمرة الثانية حين أصبح النزاع فى الشرق الأوسط حتى وهو جزء مضاف عنصرا هاما من عناصر النزاع الدولى الاكبر خاصة بعدأن زالت —أو كادت تزول — أغلب العناصر الأصيلة للنزاع الدولى وذلك قبيل اتخاذ قرار ٦ أكتوبر .

هذا الوضع هو الظرف الدولى الذى تجسد أمام صانع القرار المصرى بعد مراحل متعددة حاول خلالها تقييم وتحديد موقع نزاع الشرق الأوسط من مواجهات أو تلاقيات الدولتين الأعظم . فى وقت من الأوقات كانت رغبة صانع القرار أن يكون حل نزاع الشرق الأوسط سابقا أو على الاقل موازيا لحل النزاع الفيتنامى . ولكن تعارضت هذه الرغبة مع الظروف الموضوعية التى كانت تفرض على الدولتين الأعظم ضرورة معالجة قضايا المواجهـة الأصلية بينهما قبل الاهتمام بالقضايا المضافة غير الأصلية أو غير الحادة . هنا اختلفت الرؤية الادراكية أى رؤية صانع القرار لما يحيط به من ظروف موضوعيـــة .

امام خلفية من تضاد هاتين النظرتين تظهر أهمية توقيت قرار الحرب ، فلم يعد خافيا بل وقد اعلن ذلك الرئيس السادات مرارا ، أن القرار كان متخذا فعلا . ولو نفذ فى ظل هذا التضاد لما أحرز النتائج التى احرزها حين نفذ فى اكتوبر . ذلك لان نزاع الشرق الأوسط لم يكن يحظى بأسبقية بين الاهتمامات الدوليـة ، بل وكذلك لان المجتمع الدولى لم يكن مستعدا لتشتيت عمله السياسى الموجه من أجل انشاء الوفاق على عمليات المساهمة فى نزاعات قد تدعم تسويتها الوفاق بعد انشائه ، ولكنها لا تنشئه .

وفى ظل تقارب النظرتين الادراكية والموضوعية حول موقع نزاع الشرق الأوسط من اهتمامات المجتمع الدولى أمكن بدء تحديد موعد تنفيذ القرار . فنزاعات فيتنام وكوريا والمانيا وبرلين كنزاعات أصيلة فى النزاع الدولى الأكبر بدأت تسوى وتزول بتسويتها أو باقتراب تسويتها المقومات الأساسية لنظام الحرب الباردة ويقف الوفاق على قدمين يكادان يثبتان بالممارسة والمعاملة المباشرة . وقبل أن تلتقى الصورة الموضوعية مع الرؤية الذاتية التى تميل الى وضع نزاع الشرق الأوسط فى الصدارة ، عادت الولايات المتحدة تحاول الالقاء بثقلها السياسى على مشكلة علاقات الاطلسى ، وهى المشكلة التى تفجرت تحت وقع واستمرار تقدم خطوات الوفاق على القمة . وكان التصور الامريكى المتفائل يأمل فى أن يصبح عام ١٩٧٣ عام اوربا وهو الامل المستند الى أن مشكلة الشرق الأوسط ستظل راكدة . والركود لم يحل أزمة دولية — أو على الاقل هذا ما تؤمن به الدبلوماسية الامريكية الجديدة — يقابل هذا الركود وضع خطير بالنسبة لعلاقات أمريكا بدول غرب أوربا تتسبب فيه عوامل متعددة منها — كما ذكرنا — تسرب عنصر الشك فى العلاقة الاطلسية نتيجة لغموض مباحثات الوفاق . ولكن اهم من ذلك هو الشعور الأوربى بأن اختلالا ما أصاب توازن العلاقات الدولية . فما يحدث وفاقا وتعايشا على القمة لم يعد يتناسب مع اسس وقواعد السلوك التى حكمت حلف الاطلسى . كذلك لم يعد يتناسب مع هذه الأسس والقواعد الوضع الاقتصادى الامريكى فى الداخل وفى العالم . ثم ان ما يبدو للعالم وقتا بدأ لأوربا الغربية بالذات تنازلات أمريكية على حساب امن دول غرب أوربا .

فضلا عن ذلك فقد تغيرت أو ظهرت معالم كثيرة على صعيد السياسة العالمية تجعل منطلقات اساسية فى فهم التطورات الدولية منطلقات بالية . فصراع القوة الدولية على أساس الردع العسكرى أو النفوذ السياسى التوسعى أو المحاولات الذهبية الصرفة لم يعد كافيا لتفسير ومواجهة كثير من المشكلات الدولية الراهنة أو مؤشرات مشكلات دولية ناشئة . اذ لم يعد بالامكان أن تسوى مشكلة النقص فى مادة خام أو رؤوس الاموال وغيرها باستخدام نظرية صراع القوى الدولية بأسسها التقليدية . هذا النوع من المشكلات فى ظل عالم شديد الاتصال وقليل الاستقطاب السياسى تجرى مواجهتها على أساس نظريات الأمن المنفرد والمصالح الفردية وليست الكلية او التحالفية وعلى اساس من ابسط النظريات الاقتصادية فى العرض والطلب والتجارة الدولية .

بذلك لم يعد خافيا أن عام ١٩٧٣ لن يكون عام أوربا فى السياسة الامريكية فما تفجر من مشكلات على الصعيد الثنائى أو الجماعى وماحدث من انشقاق داخلى بين دول أروبا ذاتها أوحى بأن المشكلة الأوربية اعقد من أن تستطيع أن تحرز ايجابيات على الموقف الامريكى الكلى أو الداخلى. ذلك فى وقت اشتدت حاجة صانع القرار الامريكى الى ايجابيات خارجية يسد بها ثغرات عميقة تزداد اتساعا فى نظامه السياسى الداخلى . بل وفى وقت لم يكن لدى الامريكيين الا العمل الخارجى رصيدا يضمن تدعيم الادارة الأمريكية القائمة .

فى ظل هذه الظروف كان من الممكن أن تلجأ الادارة الامريكية الى تحريك الجمود فى الشرق الأوسط ، حقا ان التحريك فى حد ذاته هدف مصرى ولكن الدرس الذى وعته جيدا القيادة السياسية المصرية عن تجربة ١٩٦٧ يقضى بأن من يبدأ القتال فى الشرق الأوسط يحرز نقطة هامة وأساسية من نقاط فوزه النهائى . ولم يشك صانع القرار المصرى فى أن التحريك اذا تم بارادة خارجية منفردة فهو انما يحدث من اجل الوصول الى نتيجة فى صالح اسرائيل .

ومع استمرار ابتعاد شبح التوتر الدولى ، بدأ شعور ومزاج سلام وتفاؤل يسود مختلف دول العالم . وفى ظل هذا المزاج تبدو مشكلات التوتر الاقليمية أو المحلية فى صورة أكبر وأشد خطورة بينما كانت تبدو بالمقارنة بغيرها من الازمات الدولية الحادة فى ظل الحرب الباردة مشكلات أقل أهمية . لذلك وحين أصبحت مشكلة الشرق الأوسط هى الوحيدة التى تهدد مزاج السلام العالمى بدت فى صورة مروعة خاصة وانها لم تعد مشكلة تناطح بأسلحة بل مشكلة تهدد بتفجير مشكلات دولية جديدة لم يعهدها العالم من قبل كمشكلة البترول والنقد السائل والعمل الفدائى الدولى .

حينذاك لم تخف كثير من الدول وخاصة الأوروبية أملها بل ومحاولاتها تحريك الموقف فى الشرق الأوسط . وأمام العناد الاسرائيلى المستمر لم تجد هذه الدول بديلا عن الاعتراف لمصر وغيرها من الدول العربية بأن التحريك لن يأتى الا بعمل عسكرى عربى يفرض تحريك الأزمة وينقل بقية المسئولية عن كاهل أطرافها المباشرة الى المجتمع الدولى .

عند هذا الأمل وهذه المحاولات تلاقت مرارا الرؤيتان الادراكيةوالموضوعية لصانع القرار المصرى فتدعم الاقتناع لديه بأن تسوية نزاع الشرق الأوسط لن تتحقق الا بتحريك أرضية النزاع ذاتها عسكريا . وتأكدت الرؤية بأن الشكوى للعالم من موقع التجمد تزيد من تجميد النزاع . وتبين أن المبادأة العسكرية لن تقابل بادانة واستنكار من مجتمع دولى يفضل التفجير الفورى على انتظاره أو انتظار ما يحمله الجمود من أخطار اقتصادية ونقدية متعددة . واتضح أن الجمود لا يثقل على النفس المصرية فحسب وانما بدأ يثقل على مجتمع دولى بأسره وخاصة على العلاقات السوفيتية المرنة التى عانت من استمرار الجمود وكادت أكثر من مرة تتحطم على صخور التردد واسبقية الاهتمامات والمزايدات الدولية والداخلية والاضطرابات

النفسية لدى عناصر كثيرة فى مصر وغيرها من الدول . فى هذه النقط بالذات كثيرا ما تغلبت الرؤية الذاتية على الرؤية الموضوعيـــة ولم تتفق الرؤيتان الا حين واجه كل طرف بواقعية ظروف ومنطق الطرف الآخر .فالحرب المناسبة فى الوقت المناسب وامام رفض العدو لجميع فرص السلام حرب مشروعة بل وقد تكون ضرورية . الحرب المناسبة هى الحرب التى تشن لتحقيق هدف يعترف المجتمع الدولى ولو ضمنيا بأنه هدف ضرورى والتى تجرى على أرضية محدودة ولا تجر الى رحاها سوى الاطراف المباشرة . والوقت المناسب هو ذلك الوقت الذى عنده لا يتسبب نشوب حرب فى الشرق الاوسط فى تشتيت جهد الدول الصديقة بحيث تضيع عليها فرص ثمينة فى مساومات دولية تتعلق بالمسارات الاساسية للسلام العالمى والمصالح الكبرى . لقد كان الوصول الى هذا الفهم المتبادل ضمنيا بمثابة القاعدة الخرسانية التى شيد عليها صرح التعاون العربى ـــ السوفيتى خلال اهم ايام القتال .

الظروف العربيـــة :

لم يكن اثر حرب ١٩٦٧ سيئا على مصر وحدها وانما امتد يغطى ويحدث فعله الضار فى كل شبر من الأرض العربية . ولم يكن حكام اسرائيل غافلين عن تأثيرات هذا الفعل الضار بل عملوا على أن يستشرى وينفذ عميقا الى النفس العربية بهدف تحطيمها ثم تذويبها فى محلول من الخوف والبأس والضياع . وكان أمل هؤلاء الحكام انه اذا تم ذلك فالسلام واللاسلام سيان ، اذ ينعدم الخطر من أمة ضائعة وحين يصبح الامر المصطنع امرا واقعا تسقط الثمرة ناضجة فى حجر اسرائيل .

وبين اليأس المفرط الذى أراده الاسرائيليون والامل المفرط الذى تتمثل فى الاعمال الانتحارية التى قامت بها بعض المنظمات الفدائية ـــ وكلاهما فى نهاية الأمر تعبير عن يأس بشـــكلين مختلفين ـــ بينهما تراوح العمل والتخطيط وتعددت الاقتراحات والضغوط على صانع القرار المصرى . ولاشك ان الاعلان والتصريح بأن الحرب هى الوسيلة الوحيدة لاسترداد الارض لم يكن موضع رضـــاء الكثير من الحكومات العـــربية لا عن انكار لحق مصر وسوريا أو عن تشكيك فى جدية القائمين على أمورهما ولـــكن خشية عليهما وعلى هذه الحكومات من كارثة أخرى كتلك التى وقعت عام ١٩٦٧ .

الاختلاف الاساسى بين رؤية هذه الحكومات ورؤية حكومتى مصر وسوريا مبعثـــه اختلاف المســـافة والموقع من حرب ١٩٦٧ . فلا يعـــلم اى من المسئولين العرب عن ظروف الحرب على الجبهتين اكثر مما يعلم المسئولون المصريون والسوريون . حقا ان العرب كلهم وقعوا تحت وطأة الحملة الاسرائيلية والعالمية التى صورت حرب ١٩٦٧ بالشكل الذى يوحى بأن الكارثة ستتكرر فى كل مرة تتواجه فيها الجيوش العربية والاسرائيلية . ولكن بقى فى النفس المصرية والنفس السورية نوع من اليقـــين يؤكد أن كارثة ١٩٦٧ وقعت لأسباب محددة ووقتيـــة وأنه بتفادى هـــذه الأسباب يمكن احراز نجاح يمسح عار هذه الكارثة .

هـذا النوع من اليقين كان اضعف من أن يجاهر بالحجة النظـرية فى مواجهة سيادة الاقتناع بأن ما حدث عام ١٩٦٧ هو التجسيد الواقعى لميزان القوى فى الشرق الأوسط . ومن هنا تكاثرت النظريات والمساعى العربية السـاعية لحل غير عسكرى أو لتأجيل الحل العسكرى الى أن تصبح الأمة العربية قادرة حضـاريا وتكنولوجيا على مواجهة العملاق الاسرائيلى . ومن الآراء التى طرحت على مصر وسوريا أن يكتفى العرب بالتلويح بالاسلحة الاقتصادية وفى مقدمتها البترول أملا فى أن تحاول الولايات المتحدة الضـغط على اسرائيل لتنسـحب من كل أو أجزاء من الاراضى العربية . وتطرف الرأى فذهب الى حد الانتقال من مرحلة التلويح الى الاجراء والتنفيذ الفعلى للتهديد باستخدام البترول . ولم يصل هذا الرأى الى التطرف الا بعد أن جرب هذا الرأى بالاتصال السياسى مع الأمريكيين ملوحا بما قد يغريهم ــ ولم يغرهم ــ كالاشارة الى خطر التوسع السوفيتى فى ظل استمرار حالة الجمود فى الشرق الاوسط ، أو الى صعوبة استقرار أوضاع نظم صديقة للولايات المتحدة فى ظل استمرار التأييد الأمريكى لاسرائيل والاصرار على استمرار حالة اللاحرب واللاسلم .

وطالبت أطراف عربية أخرى بأن تقوم دول المواجهــة بتصعيد الموقف العسكرى دون التقيد بظروف دولية أو باعتبارات زمنية أو استراتيجية . وكان الاخذ بهذا المنطق يتطلب سلسلة من الأعمال العشوائية لا يربط بينها سوى هدف واحد هو القتال من أجل القتال فقط ، وهدف كهذا كان يتطلب بالضرورة توافر مناخ وهمى يفترض وجود ترسانة سلاح عربية بلا حدود وتجمع دولى غير موجود .

من بين هذه الرؤى المختلفــة لواقع النزاع العــربى الاسرائيلى على الارض وبحساب الامكانيات العربية برزت رؤية محددة تنبع من واقع معاناة داخلية نتيجة استمرار حالة اللا حرب واللا سلم وهى معاناة يقاسى منها بالدرجة الأولى أطراف المواجهة المسلحة مع اسرائيل والضحايا المباشرة لحرب ١٩٦٧ . ومع ذلك فلم تحرم أى حكومة عربية من حقها فى أن تحاول برؤيتها الخاصة تحريك الموقف لصالح تسوية عربية مقابل أن يكون لمصر وسوريا تأييدها الشامل اذا لجأتا الى الحل العسكرى نتيجة استمرار الجمود وفشل مساعى الدول العربية الأخرى .

لذلك يمكن القول أن الدول العربية ــ كل برؤيتها وتصورها للحل ــ اشتركت فى تهيئة مناخ اعداد القرار المصرى ببدء الحرب . وحين اتخـذ القرار كان مفهوما لدى جميع الأطراف العربية أنه لا يأتى بديلا لتصوراتهم وانما مكملا لها . فالوسائل الاقتصادية تستطيع أن تستمر وتصبح أكثر تصديقا بنفاذ القرار ، بل وقد تصبح أكثر نفعا لكل دولة على حدة الى جانب نفعها للتصور المصرى السورى فى الحل . والوسائل السياسية لن تتوقف بالعمل العسكرى بل سيكون هذا العمل تأكيدا لضرورة تكثيف هذه الوسائل من أجل تسوية لصالح العرب من منطلق توتر وحركة وليس من منطلق هدوء وجمود .

وكان المتصور فى القاهرة ودمشق ان المجهود العربى على اختلاف رؤاه لامكانيته وللظروف الدولية ولطبيعة الحرب لن يحدث اثره العالمى الا حين يتحرك النزاع بتحــرك القوات المصرية والسورية . فالمحاولات العربية السابقة لنشوب القتال كانت قد بدأت بالفعل كل حسب رؤية صاحبها ، وكل بانجاز غير محسوس . وكان فى ذهن القيادتين المصرية والسورية أن جهداً من هذه الجهود لن يتوقف بنشوب القتال بل سيتكثف ، وحينئذ سيثمر لا لسبب سوى لأن القتال الفعلى منح هذه الجهود تصديقا كان ينقصها وجراءة حد منها التردد وفائدة لم تكن فى الحسبان .

لقد ظلت — لوقت طويل — نظرة العرب الى امكانياتهم وواقعهم نظرة وهمية . تصوروا أن ما يتخيلونه واقعا يســتطيع أن يحل محل الارادة السياسية . تصوروا مثلا أن توافر قدرة أو امكانية معينة كاف لأن يشكل بمفرده عاملا ضاغطا على المسرح الدولى تماما كما تصوروا أن الكم العربى وحده يعتبر قوة رادعة أمام الكيف الاسرائيلى على الأجل المتوسط أو الطويل.

لقد أثبتت حرب اكتوبر والنظرة الموضوعية الى الظروف الدولية التى أحاطت بنزاع الشرق الأوسط بطلان بل وخطورة سيطرة هذا النوع من التفكير . ولعل اهم ايجابيات هذه الحرب ان العرب أصبحوا يؤمنون بأن امكانيات متوافرة بــلا ارادة سياسية قوية هى فى التحليل النهــائى ارقام جامدة لا تحرك أوضاعا . ويؤمنون أيضا بأن الارادة السياسية العــربية لا تتشكل من مجموع ارادات فرعية بلا تاريخ أو سوابق فى العمل السياسى الدولى ، وانما تنطلق أساسا هذه الارادة من حيث بؤرة النشاط التقليدى والتاريخى فى النظام الدولى العربى أى من حيث مصر أولا .

الحرب الرابعة
والوفاق بين الدولتين الاعظم

خيرى عزيز

وربما كانت الحرب الرابعة بين العرب والاسرائيليين فى الشرق الأوسط قد أسهمت ، ولا تزال تسهم — أكثر من أى حدث دولى آخر — فى ايضاح الحدود التى يقف عندها ما **يسمى « بالوفاق »** الدولى بين الشرق والغرب عامة ، وبين الولايات المتحدة الامريكية ، والاتحاد السوفيتى خاصة .

هذه النقطة سوف نتعرض لها بعد قليل ، لأننا نتحفظ — بداءة — على استخدام تعبير **« الوفاق** Detente » لوصف الحالة الراهنة للعلاقات الدولية المذكورة ، التى لا تعدو كونها ، **تخفيفا ملموسا ولم يسبق له مثيل لحدة التوتر الدولى** ، على أنه اذا كنا نعتقد أيضا أن عددا من الصحف العربية قد أخطأ بترجمة الكلمة التى غالبا ما استخدمت فى اللغات الأوربية لوصف تلك الحالة الراهنة وهى كلمة Detente « بالوفاق » ، فى حين أن ترجمتها العربية السليمة هى **تخفيف حدة التوتر الدولى** ، واذا كانت كلمة **« الوفاق** Detente » هذه ، لم ترد فى أى وثيقة من الوثائق التى عقدت بين الدول الغربية والشرقية ، أو بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أو بين الولايات المتحدة والصين الشعبية ، وهى الوثائق التى اعتبرت بمثابة الاساس للسياسة التى اصطلح على تسميتها بسياسة « الوفاق الدولى » ، كذلك فعلى الرغم مما توحى به كلمة « وفاق » من تقديرات خاطئة لمعنى التطورات الأخيرة فى العلاقات الدولية ، تركز على جوانب اللقاء والتقارب فيها أكثر مما تشير الى جوانب الخلاف والتعارض ، على الرغم من كل ذلك فانه لا مناص فى نهاية الامر من استخدام كلمة « الوفاق » من قبيل الاقرار بخطأ شائع ، علما بأن الكلمة التى استخدمتها دول المعسكر الاشتراكى ، ووثائق حركات التحرر والسلام ، وبلدان عدم الانحياز نفسها ، لوصف الحالة الدولية المذكورة هى « التعايش السلمى » .

« وفاق » لا ينفى الصراع والتناقض :

ولقد ادرك لينين منذ ما يزيد على نصف قرن ، حقيقة ذلك المحتوى حين أوضح لكوادر تنظيم موسكو (عام ١٩٢٠) فى معرض حديثه عن ضرورة عرض انجازات التجربة الاشتراكية **ان ذلك أيضا نوع من الحرب انه صراع بين منهجين ، بين نظامين سياسيين واقتصاديين ، الشيوعى والراسمالى ، سنبرهن فيه على اننا الاقوى »** .

ولكن ما شاهدناه فى بلادنا بهذا الصدد ، وخاصة فى الفترة الاخيرة ، فهى المحاولات المتكررة الدائبه للترويج لتلك الفكرة الغريبة عن انتهاء الصراع بين الشيوعية والراسمالية ، واختفاء خط التقسيم العقائدى الذى يقسم العالم الى قسمين ، وكأنى بالصراعات الكامنه التى تتنازع العالم المعاصر وتتجسد ماديا فى صورة ترسانات الاسلحة الرهيبة ، والتكتلات العسكرية الجباره ، التى تقف متأهبة على جانبى خط التقسيم العقائدى ، يمكن أن تزول بجره قلم كاتب أو آخر .

والواقع أن الصراع ضارى بين النظامين العالميين فى حقيقة وجوهر الأمر ، وبرغم تخفيف التوتر الذى يبدو على سطح الحياة الدولية ، لدرجة أن ضراوته تشمل ايضا تلك المحاولات التى يقوم بها عدد من الزعماء الوطنيين ، لاقامة انظمة « وسيطة » تخلص السوق المحلى من براثن السيطرة الاستعمارية ، وتحاول فى نفس الوقت تفادى الطريق الشيوعى ، وهى الدول التى لا يقبل بها النظام الرأسمالى الاستعمارى العالمى ، ويحاول دائما ضربها وتصفيتها ، امتلاكا لرصيد اقتصادى وسياسى واستراتيجى أكبر ، يضمه الى ترسانته العامة فى خضم الصراع العالمى الذى يخوضه ضد الحركة الاشتراكية العالمية ، وحركة التحرر الوطنى .

الموقف من التحرر الوطنى مصدر للخصومة والتناقض :

على أنه اذا كانت العلاقات الامريكية ــ السوفيتية هى التى تهمنا هنا فى الشرق الأوسط أكثر من اى علاقات استراتيجية أخرى لصلتها المباشرة بصراعنا الراهن لذا فمن المهم أن نضع التطورات الملموسة فى خط سير تلك العلاقات ، فى حجمها الطبيعى السليم ، لنتلافى اى رؤية غير متوازنة للتطورات الدولة ، يكن أن تؤثر على حجم وطبيعة موقفنا النضالى فى الصراع ، واصرار وصلابه شعوبنا تجاهه ، ونقول بهذا الصدد : ان العلاقات الامريكية السوفيتية ، وان كانت تمر بالفعل عبر مرحلة **افضل** ، الا أن الهدف الواضح ، والوجهه الاكيده لهذا التحسن فى مسارها ، انما هو ــ فى الاساس ــ **تجنب الصراع ، وتلافى المواجهة بين القوتين ، واضافة ضوابط جديدة تساعد على اشاعه مناخ انسب لاقرار السلام** ، بعد ان ازدحمت الساحة الدولية بكثير من المشاكل المتفاقمة المثيرة للتوتر الدولى . تلك هى الحدود الحقيقية للتقدم الذى احرز فعلا فى العلاقات الامريكية السوفيتية ، والذى لا ينبغى بحال أن يذهب به بعض الذين يريدون بصفة خاصة ، التشكيك فى حقيقة مواقف الاتحاد السوفيتى من حركة التحرر الوطنى ، الى حد التفسيرات القائمة على استشعار مؤامرة دولية خفية ، والاعتقاد بامكانية مشاركة الاتحاد السوفيتى فى اية سياسات دولية ترسم سرا ، فى الكواليس والدهاليز المظلمة ، بعيدا عن النور ، ومن وراء ظهر الشعوب وحركات التحرر .

على أنه اذا كنا نرفض تلك النظرة لحقيقة مواقف الاتحاد السوفيتى ، فاننا لنذهب أكثر من ذلك أيضا لنقول ، على عكس تلك المزاعم التى تردد عن وجود تواطؤ أمريكى ــ سوفيتى على حساب البلاد النامية وحركة التحرر

الوطنى عامة ، أنه فى حين خففت حدة المشاكل المتفجرة فى العلاقات الثنائية بين الدولتين الأعظم اللتين لا توجد بينهما اية مشاكل مباشرة تتعلق بالسيادة القومية ، أو الحدود ، أو وحدة الأراضى ، نقول أنه فى الوقت الذى خففت أو تلاشت فيه تقريبا حدة هذه المشاكل الثنائية بينهما ، **فأن المصدر المتفجر الساخن للتناقض والخصومة بينهما ، فى الأوضاع الدولية الراهنة ، قد أصبح هو موقف كلا منهما حيال حركة التحرر الوطنى** . لقد غدا الموقف من حركة التحرر الوطنى هو المصدر الراهن للتوتر والتفجر فى العلاقات الأمريكية السوفيتية لا المصدر الرئيسى للاتفاق والتواطؤ فى مجال هـــذه العلاقات ذلك أن هناك **بعدان** فى الحقيقة للصراع بين القوتين الأعظم فى عالم اليوم ، **الأول بعد مباشر ، يعملان على التحكم فى مضاعفاته** ، واخضاعه لضوابط يجرى التعامل من خلالها عبر الاتصال المباشر فى حالات المواجهة ، وعندما تكون الأخطار المهولة محدقة بالعالم . وقد أمكن تحقيق تقدم ملموس بشأنه خلال زيارة **نيكسون** لموسكو فى مايو ١٩٧٢ ، وزيـــارة **بريجنيف** لواشنطن فى يونيو ١٩٧٣ . **والثانى بعد غير مباشر ، يتفجر فعلا بالصراع الساخن** ، لتحرك طرف آخر فيه ، هو قوى التحرر الوطنى ، وهو مالا يمكن لمؤتمرات القوى الأعظم ، أن تحول دون تفجر صراعاته بأى حال من الأحوال ما دام هناك استعمار واحتلال ، وشعوب مستعمرة مقهورة وأراضى وطنية محتلة .

وليس ثمة شك أن من المفارقات السياسية الملفتة للنظر فى الواقع الراهن للسياسة الدولية ، ومن خلال تتبع التفسيرات التى قدمت فى هذه المنطقة أو تلك ، للتطورات الايجابية الأخيرة فى السياسة الدولية ، وخاصة فى العلاقات بين القوتين الأعظم ، **ان منطقة الشرق الأوسط بالذات ، وكذلك العربية على نحو أخص ، كانت هى أكثر المناطق التى حفلت بالشك والتوجس والريبة من حدوث تقارب بين الدولتين الأعظم على حسابها ، فى الوقت الذى أثبتت فيه التطورات الواقعية الملموسة ، ان هذه المنطقة ، وبؤرتها العربية ــ الاسرائيلية بالذات خلقت أخطر المشاكل الدولية المحتدمة ، التى افترقت وتجابهت عندها بالذات مواقف الدولتين الأعظم** ، وكما لم تتجابه وتفترق من قبل،منذ أزمة الصواريخ الكوبية ومحاولات الولايات المتحدة غزو كوبا .

انتقال بؤرة « الخلاف » الدولى لا « الوفاق » :

الى الشرق الأوسط :

لقد كان أكثر الأمور منطقية أن يجرى الحديث عن الشرق الأوسط ، ومن داخلة بالذات ، انطلاقا من المعطيات الواقعية للحقائق السياسية فى هذه المنطقة من العالم ، أن يجرى الحديث عنه لا كمنطقة يخشى على مصيرها من « مخاطر » الوفاق الدولى ، وانما كأكثر المناطق تركيزا بعوامل الخلاف والتفجر الدولى ، والمنطقة التى يخشى على مصيـــر ســـلام العالم ، من مخاطر الصراع الكامن فيها بين العرب واسرائيل بصفة خاصة فذلك هو

على الاقل ما تقود اليه ، لا الاستنتاجات الذاتية أو المنطلقة من فكر مسبق تجاه احدى الدولتين الاعظم فى العالم وانما ما يقود اليـه **التتبع الواقعى لعملية الانتقال الجغرافى والقـارى لمراكز التوتر والتفجر الـدولى فى ربع القرن الاخير .**

لقد ظلت أوربا لفترة طويلة بعد الحرب العالمية الثانية ، بل والى أمد قريب ، هى المركز الاساسى للتوتر والتفجر الدولى ، بسبب المشكلة الالمانية عامة ، ومشكلة برلين بصفة خاصـة . الا أن ازدياد القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية للاتحاد السوفيتى وللمعسكر الاشتراكى فى اوربا ، وزيادة قوة ومنعة جمهورية المانيا الديموقراطية ، وتدعم وتوطد وجودها كحقيقة عسكرية وسياسية واقتصادية ، لا يمكن انكارها أو اقتلاعها من وسط أوربا ، كل ذلك فرض معطيات قوة جديدة فى القارة الأوربية ، وادى الى تغير ميزان القوى فى هذه القارة ، واضطر الساسة الواقعيون فى المانيا الغربية وعلى رأسهم المستشار **فيلى برانت** ، الى اتباع « **سياسة الانفتاح على الشرق** » التى عقدت المانيا الغربية بموجبها معاهدات عدم اعتداء مع **الاتحاد السوفيتى وبولندا وتشيكوسلوفاكيا** ، تخلت فيها بون عن مطالبها الاقليمية التى لم تكن عن المطالبة بها ، واقرت فيها بالحدود الأوربية الحالية (وعلى رأسـها حدود الأودرنيس) كما عقـدت اتفاقية اخرى كذلك بين سلطات برلين الغربية ، **وجمهورية المانيا الديموقراطية ، واتفاقية رباعية** بشأن برلين ، وبدأ بحث الخفض المتبادل والمتوازن للقوات فى أوربا واخذت الأمور تسير على نحو مخالف تماما لطريق **الالحاق** الذى كانت تتمسك به وتصر عليه **بون** منـذ الحرب العالمية الثانية وتحطم مبـدأ « **هالشتالين** » **واعترفت** كثير من الدول بجمهورية المانيـا الديمقراطية ، واصـبح دخول الدولتين الالمانيتين الى الامم المتحدة ، وشيك الوقوع ، وتوفرت شروط موضوعية كثيرة لتحقيق السلام فى أوربا ، ولعقد مؤتمر الأمن الأوربى وبذلك حلت أو سارت فى طريق الحل ، **اعقد مشكلة خلفتها الحرب العالمية الثانية .**

ومع مطلع الستينات ، انتقلت نقطة الصـدام والتفجر الرئيسية الى **أمريكا اللاتينية** بعد اندلاع الثورة الكوبية التى شكلت بحق « حريقا ثوريا » فى فناء البيت الأبيض الامريكى نفسه ، مما زاد من حدة التناقضات بين النظامين العالميين وهدد باشعال حرب عالمية بالفعل عن طريق **محاولة الولايات المتحدة الامريكية غزو كوبا** ، للقضاء على النظام الشيوعى فيها ، فيما يعرف بأزمة الصواريخ الكوبية ، ولكن هـذه الأزمة انتهت بسحب الصواريخ السوفيتية من كوبا لقاء تعهد الولايات المتحدة بعدم غزوها وأمكن للاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى المحافظة على بقاء بل وتدعم النظام

الشيوعي في كوبا ، واضطرت الولايات المتحدة الى الرضوخ لحقيقة وجود هذا النظام على بعد ٩٠ ميلا من الاراضي الامريكية نفسها .

وعبر نهاية الستينات ، ومطلع السبعينات انتقل المركز الاساسي للتوتر الدولي الى **القارة الاسيوية** والى جنوبها الشرقي بالتحديد ، حيث اشتعلت الحرب الضارية في **الهند الصينية** لما يقرب من عشر سنوات ، الا أن هذه المشكلة الدموية الخطيرة انتهت بتوقيع اتفاقية باريس للسلام،التي اضطرت الولايات المتحدة فيها الى الموافقة على سحب جيوشها من الهند الصينية بعد تمكن الثورة الشيوعية من تحرير ⅘ أراضي فيتنام الجنوبية والمحافظة على هذه المناطق المحررة . وفي مطلع السبعينات تجدد التوتر على نحو خطر في شبه **القارة الهندية** ، واتخذ شكل حرب واسعة عنيفة بين الهند وباكستان بسبب مشكلة البنغال في باكستان الشرقية وحق تقرير المصير لشعب البنغال . الا أن الجيش الهندي والقوات الوطنية لشعب البنغال استطاعا بمساعدة عسكرية قوية وتأييد سياسي حازم من الاتحاد السوفيتي ، حسم هذه المشكلة ، بتحرير البنغال الشرقية ، واقامة دولة **بنجلاديش** في باكستان الشرقية وتم بعد انتهاء الحرب عقد **اتفاقية سلام بين الهند وباكستان** كذلك فقد خفت حدة التوتر في القارة الاسيوية بصفة عامة بعد اضطرار الولايات المتحدة الى العدول عن سياسة « **حصار الصين الشعبية وعزلها واحتوائها** » . هذه السياسة التي ثبت فشلها منذ ١٩٤٩ امام مركز الصين الدولي وزيادة قوتها ومنعتها وتحولها الى دولة نووية . وقد بدأت الولايات المتحدة ، بزيارة الرئيس نيكسون لبكين ، سياسة **التعايش السلمي مع الصين الشعبية ، التي تعتبر من المعالم الرئيسية لتخفيف التوتر في القارة الاسيوية** ، والتي اعقبها تخفيف حدة التوتر بين كوريا الشمالية والجنوبية ، واتجاه اليابان لاقامة علاقات مع الصين الشعبية ، ولعقد معاهدة صلح مع الاتحاد السوفيتي لانهاء كافة الاوضاع المترتبة على الحرب العالمية الثانية .

وهكذا نجد أن بؤرة التوتر الدولي انتقلت من أوربا الى أمريكا اللاتينية الى آسيا لتصل اخيرا الى الشرق الاوسط ، بحيث يمكن القول بأن مناخ « الوفاق الدولي » الذي يشار اليه كثيرا في الآونه الاخيرة ، يسود اكثر مناطق العالم ، ما عدا الشرق الاوسط بالذات .

مخاطر الشرق الاوسط نجمت عن « خلاف » :
الدولتين الاعظم لا عن « وفاقهما »

والحقيقة البينه التي لا تحتاج الى جهد كبير لادراكها هي أن المخاطر الشديدة التي شكلها تفجر الموقف في الشرق الاوسط في الحرب الرابعة بين

العرب واسرائيل ، وحتى تلك التى كان ينطوى عليها هذا الموقف قبل تفجر هذه الحرب ، ان **هذه المخاطر على امن وسلام العالم ، قد نجمت بالذات عن حالة « خلاف » و « صراع » بين الدولتين الاعظم ، كظهيرين مساندين لحركة الصراع الحاد بين الدول العربية واسرائيل فى هذه المنطقة من العالم.**

على ان تقرير تلك الحقيقة لا ينبع قط من تقديرات ذاتية مسبقة ، بقدر ما ينبع من استقراء تطور الوقائع بالنسبة لحقيقة مواقف الاتحاد السوفيتى من الدول العربية المجابهة لاسرائيل عسكريا وسياسيا واقتصاديا منذ يونيو ١٩٦٧ وحتى قبل ذلك التاريخ . فلا تحتاج الى مزيد ايضاح ، جهود الاتحاد السوفيتى لاعادة بناء الجيوش العربية بعد يونيو ١٩٦٧ ، وتزويدها بالاسلحة الحديثة والخبرة العسكرية المتقدمة ، ومساندة وتأييد الاتحاد السوفيتى للقضية العادلة للشعوب العربيـة ، ولدول المواجهة العربية اقتصـاديا وسياسيا ودبلوماسيا . حيث وقف الاتحاد السوفيتى على الدوام مؤيدا للحقوق العربيـة فى كل محفل دولى ومجال ويؤكد ذلك **سجل التصويت السوفيتى فى الامم المتحدة** سواء فى الجمعية العامة ، او فى مجلس الامن وسواء قبل او بعد « **اجتماع موسكو** » بين نيكسون وبريجينيف فى مايو ١٩٧٢ (وهو من العلامات البارزة على طريق الانفراج الدولى) او قبـل أو بعد **اجتماع واشنطون** فى يونيو ١٩٧٣ بين بريجنيف ونيكسون .

« نزاع » الدولتين الاعظم يبلغ افاق المواجهة المسلحة :

بيد ان اعظم الدلائل فى الحقيقة على الحدود التى يقف عندها « الوفاق » الدولى فعلا وعلى مدى عمق « الخلاف والتناقض » بين الدولتين الأعظم وخاصة عندما يكون الامر متعلقا بمصـير وتقدم حركة التحرر الوطنى والنضال ضـد الاستعمار هو موقف الاتحاد السوفيتى **اثناء حرب اكتوبر الماضى** . وليس خافيا على أحد ان الاتحاد السوفيتى قام منذ اللحظـات الاولى لبدء القتال بمد جسر جوى ليل نهار لامداد دول المواجهة العربية بالسلاح والعتاد الحديث والمتطور وظهر جليا للعالم اجمع من سير المعارك نفسها ومن تقارير وتحليلات الخبراء العسكريين فى العالم الى جانب بسالة المقاتل العربى وبطولته التى كانت العامل الحاسم فى النتائج الايجابية التى تحققت فى ميادين القتال ظهر جليا أن الاسلحة التى زودت بها الجيوش العربية اسلحة حديثة وفعالة متطورة وفتاكة وبخاصة الاسلحة الصاروخية المضادة للطائرات والمضادة للدبابات لدرجة ان الخبراء العسكريين الامريكيين أنفسهم وخبراء حلف الاطلنطى والمحللين العسكريين عامة اشاروا الى ان الاستخدام الفعال من جانب المصريين للاسلحة الصاروخية غير كثيرا من معطيات القتال التقليدية الشـائعة منـذ الحرب العالمية الثانية وخاصة

استخدامهم الفعال للسلاح الصاروخى المضاد للطائرات الذى برز فيه « **صاروخ سام ٦** » بصفة خاصة فى شل فعالية الطيران الاسرائيلى وانهاء تفوقه ، واستخدامهم الفعال للسلاح الصاروخى المضاد للدبابات الذى برز فيه « **صاروخ ساجر** » بصفة خاصة فى مواجهة الطوابير الاسرائيلية المدرعة وتدمير معظم وحداتها حيث لفت نظر المعلقين العسكريين فى العالم كثافة التسلح الصاروخى المضاد للدبابات بين المشاة المصريين . واشير الى ان **واحد من كل ثلاثة** من جنود المشـــاة المصريين كان يحمل سلاحا صاروخيا مضـــادا للدبابات الامر الذى حقق ربما لأول مـــرة فى التاريخ العسكرى الحديث ، **أول مجابهة ناجحة فى ذلك القتال غير المتكافىء بين المشاة والمدرعات** ، وقد طالب الخبراء العسكريون الغربيون عامة وخبراء حلف الاطلنطى خاصة نتيجة لذلك بتعديل استراتيجيات الحلف ، على ضوء التطورات الجديدة التى كشفت عنها حرب اكتوبر فى الشرق الأوسط . كما أوقفت الهند انتاج انواع معينة من الدبابات حتى تتم لها دراسة النتائج الجديدة لحرب أكتوبر .

ولم يقف تأييد الاتحاد السوفيتى وبلدان المعسكر الاشتراكى عند حد امداد الجيوش العربية المتواصل بالسلاح والعتاد فحسب اذ طالب المارشال **اندرية جريتشكو** وزير الدفاع الســـوفيتى بمجرد بـــدء القتال فى الشرق الاوسط ، القوات المسلحة لبـــلدان حلف وارســو ، بأن تكون على اهبة الاستعداد تماما لمواجهة أى طارىء يمكن أن يترتب على المغامرة الاستعمارية العدوانية الجديدة على الشعوب العربية فى الشرق الاوسط . والقى الاتحاد السوفيتى وكل دول المعسكر الاشتراكى مسئولية تفجر الموقف فى الشرق الاوسط على التوسعيين الاسرائيليين الذين يصرون على استمرار احتلال الاراضى العربية بالقوة.كذلك انتقل **اليكسى كوسيجين** رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى بنفسه الى القاهرة ، التى ظل فيها عدة ايام يتدراس الموقف مع الرئيس **السادات** لتنسيق الجهود المشتركة بين البلدين لمواجهة العدوان على كافة المستويات ولايجاد حل عادل للنزاع واتخذ الاتحاد السوفيتى موقف التأييد والانحياز التام للجانب العربى حتى اصدر مجلس الأمن قراره بوقف اطلاق النار فى الشرق الاوسط فى ٢٢ اكتوبر الماضى .

وعندما تبين ان العدو الاسرائيلى يماطل فى وقف اطلاق النار ، ابتغاء الاستيلاء على مساحات جديدة ، وأملا منه فى وضع القوات المسلحة فى وضع دقيق صعب ، اتخذ الاتحاد السوفيتى موقفا شديد الحزم ، وأعلن — من الناحية العملية ودون أن يسفر صراحة بذلك — عزمه على التدخل بالقوة فى الشرق الاوسط لوقف المعتدين الاسرائيليين بعد أن تجاوزوا الحد فى عدوانهم على الشعوب العربية ، ونفاذهم الى الضفه الغربية لقناة الســـويس ، اذ قرر الرفيق « بريجنيف » — اســـتجابه لطلب الرئيس

السادات بارسال ممثلين سوفيت وأمريكيين للاشراف على وقف اطلاق النار — قرر بحزم باسم الاتحاد السوفيتي من جانب واحد فقط ولقطع الطريق على التلكؤ والرفض الامريكي المتعمد، ارسال «ممثلين» له الى الشرق الاوسط، لفرض قرار وقف اطلاق النار الذى اتخذه مجلس الامن . وقام الاتحاد السوفيتي بالفعل، بارسال هؤلاء « الممثلين »، واشارت الصحف العالمية فى تلك الفترة كذلك الى استعداد ٧ فرق سوفيتية محموله جوا للتدخل فى الشرق الاوسط الى جانب القوات المصرية المسلحة ولمواجهة التجاهل الاسرائيلى لقرار مجلس الامن . كما أشارت مجلة « تايم » الامريكية حينذاك الى مذكره « سرية » بعث بها بريجينيف الى نيكسون فى الأسبوع الاخير من أكتوبر الماضى، وقالت المجلة أن بريجنيف هدد فيها « بتدمير » اسرائيل اذا لم يوقف الاسرائيليون انتهاكهم لوقف اطلاق النار، وهى الرسالة التى وصفها نيكسون فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى تلك الفترة بأنها « تركت القليل جدا للخيال بالنسبة لما يقصده بريجينيف » . فضلا عن ذلك أعلن الرفيق بريجينيف أمام مؤتمر السلام العالمى فى موسكو فى ٢٦ أكتوبر الماضى **ان الاتحاد السوفيتى « يفكر فى الوقت نفسه فى اتخاذ الاجراءات الاخرى التى قد يتطلبها الموقف »** .

وترجع خطوره ما اعلنه الرفيق بريجينيف الى انه كان يعنى قبولا فعليا من جانب الاتحاد السوفيتى بالتحدى الخطر على سلام العالم المتمثل فى مواجهه الولايات المتحدة، عسكريا اذا استدعى الامر فى الشرق الاوسط، لوقف التجاوز الاسرائيلى البالغ، عند حده ولضرب مثل هذا النوع من القرصنة الدولية، بالقوة المسلحة، بعد أن عجزت معها كل المقررات، والقوانين، والقرارات التى تستند الى الشرعية الدولية . وتتبين حقيقة الموقف السوفيتى الحازم، وخطورة وجسارة ما أعلنه بريجينيف، اذا ادركنا ان الرئيس « **نيكسون** »، كان قد هدد قبل ذلك فى ١٥ أكتوبر الماضى، وقبل أن يعلن بريجينيف، اعتزام الاتحاد السوفيتى التدخل، كان قد هدد بالتدخل فى الشرق الأوسط — الى جانب اسرائيل طبعا حين وصف الموقف الامريكى بقوله : **« اذا كان لى أن أصف سياستنا . فاننى اقول انها مثل السياسة التى اتبعناها عام ١٩٥٨، عندما تعلق الامر بلبنان والسياسة التى اتبعناها عام ١٩٧٠ عندما تعلق الأمر بالأردن »** .

وكما هو معروف فقد ردت الولايات المتحدة على الموقف السوفيتى الذى اعلنه بريجينيف باعلان حالة التأهب بين قواتها العسكرية داخل وخارج الولايات المتحدة، وبلغت المجابهة بين الدولتين الأعظم، حدود وآفاق الصدام المسلح . وهكذا وضع جوهر « الوفاق » بين الدولتين الأعظم تحت المجهر العملى وتبينت تماما الحدود التى يقف عندها الاتحاد السوفيتى فى سعيه من أجل سلام العالم وفق مبدأ التعايش السلمى، وتبينت تماما

ايضـــا لكل ذى عينين ، حقيقة مواقف الاتحاد السوفيتى تجـاه الولايات المتحدة او اى دولة امبريالية أخرى غيرها ، عندما يكون الأمر متعلقا بمصير حركات التحرر الوطنى ، والدول المناضـــلة ضد الامبريالية . وذلك أن الصراع فى الشرق الاوســط بين اراده التحرير العربيـــة وبين العدوان الاسرائيلى ، لم يؤد فحسب الى خلاف أو نزاع ، أو تدهور لسياسة الوفاق بين الدولتين الأعظم ، وانما أوشك أن يؤدى بالفعل الى مواجهه عسكرية ، وحرب كبرى ، وربما عالميه ، بين الاتحــاد السوفيتى والولايات المتحدة وحلفائها . وليس ثمة شك أن تلك الدرجة الخطرة من المواجهة التى قبل بها الاتحاد السوفيتى ، كانت من العوامل الحاسمه لوقف الانتهاك الاسرائيلى لوقف اطلاق النار ، ولردع المعتدين مؤقتا .

وهكذا نجد بوضوح أن الاتحاد السوفيتى اقدم فى حرب اكتوبرسنة١٩٧٣ فى الشرق الاوسط على خطوة لم يقدم على مثيل لها ، منذ دخول قوات حلف وارسو الى تشيكوسلوفاكيا فى ١٩٦٨ ، وذلك بقبوله مخاطرة ارسال قواته المسلحة الى الشرق الاوسط للوقوف مع الشعوب العربية فى مواجهة العدو الاسرائيلى ، **وهو الموقف الذى لم يتخذ الاتحاد السوفيتى مثيلا له فى مواجهة احرج لحظات الحرب الفيتنامية** ، عندما قام الأمريكيون بتلغيم موانى فيتنام الشمالية ، وفرض الحصـــار البحرى على جمهورية فيتنام الديمقراطية ، والتصاعد بقصف هذه الجمهورية الشيوعية ، الى حدود وحشية جنونية .

« تواطؤ » تكذبه حقائق التاريخ :

ان القائلين بتواطؤ الاتحاد السوفيتى مع الولايات المتحدة على حساب حركة التحرر العربية ، فى مرحلة « الوفاق » السوفيتى الامريكى ، انمـــا ينســـون أو يتناسون أن للاتحاد الســـوفيتى مصالح ينبغى تحقيقهـــا ، ويحرص على نجاحها فى الشرق الاوسط ، وانه لو تواطأ مع احد عـــلى حساب هذه المصالح ، فانه فى الحقيقة يتواطأ ضد نفسه ، وضد مصالحه الاستراتيجية اولا واخيرا ، وهذه المصالح مشروعة تماما وعادلة وتتفق مع منطق التطور التاريخى ، وتتمثل بصفة جوهرية فى مساعدة شـــعوب الأمة العربية فى نضالها ضد الامبريالية ، مساعدتها على ضرب الاستعمار فى هذه المنطقة من العالم ، وتصفيته بكل اشكاله القديمـــة والحديثـــة ، السياسية والاقتصادية والعسكرية . فالامر الذى لا شك فيه ان تصفية النفوذ الامبريالى وبخاصة الامريكى من الشرق الاوسط ، الذى تحصـــل منه الاحتكارات الامريكية على مليارات الدولارات كل عـــام من الارباح البترولية ، سوف يكون ضربة كبرى لاستعمار الولايات المتحدة الاقتصادى الجديد ، كما سيكون كذلك ضربة لنفوذها السياسى والاســـتراتيجى ، والمعنوى ، بحرمها من مصدر اساسى من مصادر استغلالها فى البـــلاد النامية ، بحيث يؤثر فى مدى طال أم قصر ، على قوتها ونفوذها وهيبتهـــا العامة ، كقائدة للامبريالية العالمية ، فاذا نجح الاتحاد السوفيتى فىمساعدة الشعوب العربية على تحقيق اهدافها التحريرية الذاتية العادلة فانه يكون قد نجح فى الوقت نفسه ، فى تحقيق اهدافه هو بالذات ، يكون قد نجـــح فى اضعاف أشد واخطر خصومه بأسا ، ذلك الخصم المدجج بالســـلاح النووى والتقليدى ، والذى يقف على راس الامبريالية الدوليـــة ، اما اذا

حاول الاتحاد السوفيتي ان يخذل الشعوب العربية في كفاحها باي حال من الاحوال فلن يخذل في هذه الحالة ، سوى نفسه أولا وقبل كل شيء.

ومن هنا نؤكد ان الاتحاد السوفيتي لا يمكن أن يتوطأ مع أحد ضد مصالحه في الشرق الاوسط لانه من الناحية الاستراتيجية ، ولقرب هذه المنطقة جغرافيا واستراتيجيا من حدوده واراضيه ، يريد أن يحول ، بأي شكل من الاشكال ، دون وقوعها مرة أخرى ، في براثن السيطرة الاستعمارية ، التي سوف تحولها الى نقاط وثوب عدوانية موجهة ضد أمنه وسلامته ، والى مساحة استراتيجية شاسعة لتطويق اراضيه من الجنوب . ولذا فأن تلك الكلمات التي أوردها « ليونيد بريجنيف » سكرتير عام الحزب الشيوعي السوفيتي في خطابه امام مؤتمر السلام العالمي بموسكو في عز احتدام حرب اكتوبر الماضي تكتسب مغزاها الكامل من هذه الناحية « أن منطقة الشرق الاوسط تقع قرب حدود الاتحاد السوفيتي ، وبناء على ذلك ، فان الاتحاد السوفيتي يهمه أن يستقر في المنطقة سلام عادل دائم ... ولهذا السبب فلقد أصر الاتحاد السوفيتي وسيستمر على اصراره على ضرورة اعادة الاراضي العربية الى أصحابها الشرعيين ، وأن الاسرائيليين قد يدفعون ثمنا غاليا عن جراء السياسة المغامرة التي تتبعها حكومتهم » . وفضلا عن ذلك فان الاتحاد السوفيتي يريد ، لقرب هذه المنطقة جغرافيا واستراتيجيا من حدوده واراضيه ، يريد ايضا تحويلهاالى منطقة صداقة وود للاتحاد السوفيتي ، يمكن أن تكون احتياطيا استراتيجيا له في حالة تشوب صراع عالمي واسع النطاق . وهذه السياسة التي تقوم **على انشاء أحزمة صداقة محيطة بالاتحاد السوفيتي** سواء في شبه القارة الهندية أو في الشرق الاوسط العربي ، أو في غيرها من مناطق العالم ، هي أحد ردود الدولة الاشتراكية السوفيتية ، على السياسة الامبريالية البالية القائمة على احاطة الاتحاد السوفيتي بسلسلة من القواعد والاحلاف العسكرية العدوانية ، وهو رد يتفق مع شرعية وانسانية الاهداف التي تسعى الدولة الاشتراكية لتحقيقها .

ومن ثم ، فأن ما نريد أن نؤكده هنا هو أن دعم ومساندة النضال ضد الامبريالية على الدوام سياسة واستراتيجية خارجية ثابتة ، للاتحاد السوفيتي ، تنبع من المصالح المتأصلة الراسخة للدولة السوفيتية فيالنضال ضد الامبريالية والقضاء عليها باعتبارها الخصم الرئيسي للحركة الشيوعية ولحركة التحرر الوطني المتحالفة معها .

جوهر « الوفاق » سياسة انفتاح امريكي على الشرق

على انه اذا كنا قد اشرنا من قبل الى أن سياسة « الوفاق » بين الدولتين الاعظم لا يمكن ان تكون سياسة « تواطؤ » سوفيتية مع الولايات المتحدة ، فانها لا يمكن أن تكون ، وليست على الاطلاق أيضا ، سياسة « ضعف » و « تراجع » سوفيتي ، تتضمن نتائج سلبية على مواقفالاتحاد السوفيتي حيال حركة التحرر الوطني ، ذلك أن الاتحاد السوفيتي ، لم يتراجع قط ، باتجاهه الى تخفيف التوتر الدولي ، عن المبادىء السلمية

العامة الثابتة التى حكمت دوما سياسة الخارجية ، وانما سياسة « الوفاق » فى حقيقتها ، فهى سياسة « اضطرار » و « اذعان » و « تراجع » أمريكى أمام حقائق القوة الجديدة النووية ، والعسكرية ، التقليدية ، والسياسية، والاقتصادية ، التى وصل اليها المعسكر الشيوعى خاصة اذا علمنا أنه بين كل ٤ أفراد فى عالم اليوم ، هناك فرد صينى يعيش فى ظل دولة شيوعية نووية واحدة ، وعما قريب سيصبح بين كل ثلاث أفراد فى العالم ، فرد صينى يعيش فى ظل هذه الدولة الشيوعية النووية الواحدة ، وهذا ليس الا مظهر واحد من مظاهر قوة دولة شيوعية نووية واحدة وليس مظهر لقوة المعسكر بأكمله ، من هنا نقول ان الولايات المتحدة هى التى « غيرت » سياستها ، باتجاهها نحو « الوفاق » هى التى أجرت تغييرا على مستوى الخطوط العامة لسياستها الخارجية تجاه الدول الشيوعية عامة والاتحاد السوفيتى والصين الشعبية بصفة خاصة ، يوازى ، ويماثل ذلك التغيير المحسوس الآخر الذى اجراه المستشار الألمانى الغربى « فيلى برانت » فى سياسة ألمانيا الغربية ، وحولها من طريق « مبدأها هالشتين » المحفوف بالمخاطر ، الى طريق « الانفتاح على الشرق » بما يتضمنه من مزايا وفوائد. ومن هنا يمكن القول أيضا ، أن سياسة « الوفاق » التى تتبعها واشنطون ليست الا « طبعة أمريكية » أبعد مدى ، وأكثر أهمية ودلالة من سياسة « الانفتاح على الشرق » التى بادر بها فيلى برانت فى ألمانيا الغربية ، وبمعنى آخر ، فان سياسة « الوفاق » التى تتبعها واشنطون هى فى جوهرها وحقيقتها سياسة « انفتاح أمريكى على الشرق » سياسة «انفتاح على الشرق » أمريكية هذه المرة ، مصدرها واشنطون لا بون ، ويقوم فيها الحزب الجمهورى الامريكى بزعامة الرئيس « ريتشارد نيكسون » — مع الفارق طبعا — بنفس الدور الذى يقوم به الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى الغربى بزعامة المستشار « فيلى برانت » .

« الوفاق » ليس « تراجعا » سوفيتيا
وانما » ادراك « و « تراجع أمريكى »

على أن تلك التقييمات العامة التى ذكرناها بهذا الصدد ، لا تعدو كونها نتائج نهائية ، واستنتاجات مستخلصة مركزة ، فهل تؤيدها وقائع تطورات السياسة الامريكية فعلا ، هل اجرت الولايات المتحدة الامريكية تغييرات وتحولات ملموسة فى السياسة الخارجية التى اتبعتها تقليديا بحيث يمكن الاقرار والتأكيد بصحة النتائج المقدمة سلفا ؟ يتطلب ذلك فى الحقيقة استعراضا سريعا عاجلا للوقائع الاساسية لتطورات السياسة الخارجية الامريكية فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية وحتى الآن .

لقد اتخذت الولايات المتحدة الامريكية فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية ، موقفا عدائيا صريحا ضد سياسة التعايش السلمى بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة ، ودافعت صراحة عن مبدأ « الاحتواء الواقعى » و « هزيمة الشيوعية » من « مراكز القوة » باعتبار ذلك البرنامج الرسمى لسياستها الخارجية ، واخذت القوى الامبريالية وعلى رأسها

الامبريالية الامريكية ، وبمجرد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها ، في الاعداد لحرب جديدة ضد الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية . ودعا « تشرشل » صراحة في خطاب شهير عام ١٩٤٦ الى فرض ستار حديدي حول الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية ، واقامة تكتلات عسكرية تشترك فيها بلاد آسيا وأفريقيا وامريكا اللاتينية واوروبا ، لتنفيذ هذا المخطط . وكانت نقطة البدء الامريكية في تنفيذ هذه السياسة هي اعلان « مبدأ ترومان » الذي اجاز لامريكا التدخل في شئون تركيا واليونان بدعوى حمايتها من التهديد السوفيتي ، ثم اعلان « مشروع مارشال » لدعم دول غرب أوربا الراسمالية واستخدامها كجزء من المخطط الامريكي ضد البلدان الاشتراكية ، واعقب ذلك اعلان انشاء حلف الاطلنطي (١٩٤٩) ثم حلف جنوب شرقي آسيا ، وحلف بغداد في الشرق الاوسط ، وغيرها من الاحلاف التي استهدفت ضرب حركات التحرر الوطني ، واخضاع بلدان افريقيا وآسيا واقيمت القواعد الموجهة أساسا لحصار الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي ، في تركيا واليونان ، ودول شمال افريقيا ، وعراق نوري السعيد ، وايران ، وباكستان ، ودول الهند الصينية ، واليابان ، والفلبين ... الخ فضلا عن القواعد والقوات الامريكية في الدول الاوربية، وتحولت الحرب الباردة الى استراتيجية متكاملة ضد المعسكر الاشتراكي، الامر الذي اضطرت معه البلدان الاشتراكية الى اقامة حلف وارسو عام ١٩٥٤ .

ولقد اثبت الواقع التاريخي البالغ الدلالة ، فشل هذا المخطط الامبريالي الشامل في تحقيق أهدافه ، فشله في تصفية النظم الاشتراكية او حتى اي نظام اشتراكي واحد ، وفشله في واد حركة التحرير الوطني ، وعلى العكس فلقد اقيمت نظم اشتراكية جديدة على حساب المستعمرات الامبريالية السابقة ، اذ حرر ثوار فيتنام معظم أراضي فيتنام الجنوبية وتدعم استقلال عدد من الدول الوطنية الفتية ، واقيمت دولة اشتراكية جديدة — كوبا — على بعد عشرات الأميال من الساحل الامريكي ، وثبتت مرة أخرى صحة نظرية « الدومينو » التي تتقلص الاراضي بموجبها ، باضطراد ، من تحت اقدام النظام الراسمالي العالمي ، لحساب تقدم وانتصار النظام الاشتراكي العالمي .

وتبين للولايات المتحدة الامريكية بمضي الوقت أن الاعتماد على تحقيق انتصار عسكري على اسرة الدول الاشتراكية لم يعد أساسا يمكن أن تبنى عليه سياستها ، وأن حربا نووية ستكون في الواقع انتحارا لامريكا . كذلك فقد اوضح مجرى تطور الحرب في فيتنام ، ان الولايات المتحدة لا يمكنها في الظروف القائمة ان تأمل في تحقيق النجاح ، حتى في الحروب «المحدودة» أو « المحلية » التي ارتكزت عليها الاستراتيجية السياسية والعسكرية الامريكية منذ نهاية الخمسينات . ومن الناحية الواقعية ، استدعى تطور الاحداث في نهاية الستينات وبداية السبعينات ، التخلي عن عدد من أسس السياسة الخارجية الامريكية التي وضعت في سنوات الحرب الباردة ، والتي لم تعد تتناسب ، من عدة أوجه ، مع تحديات المشاكل الواقعية التي تواجه الولايات المتحدة في الوضع الدولي الراهن ، والتي كان من

بينهـا الاعتمـاد على قوة السـلاح كأداة رئيسية للسياسة الخارجيـة في مواجهة المعسكر الشيوعي ، نظرا لفشل الولايات المتحدة في الاحتفاظ باحتكارها للقوة النووية ، حيث ظهرت القوة النووية الموازنة لها في الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية الامر الذي أدى الى تحدد ملامح وضع جديد ، لم تعد ترتبط فيه زيادة بناء القوة العسـكرية بالضرورة ، بزيادة القـوة السياسية ، بحيث اصبحت ترجمة القوة العسكرية الى نفوذ سياسي أمرا يزداد صعوبة في عالم اليوم حسبما يرى هنري كيسنجر احد مهندسي السياسة الامريكية الحالية .

« ضغوط اقتصادية » « تدفع أمريكا الى الوفاق »

والى جانب هذه العوامل العسكرية التي ساهمت في خلق الوضع الدولي الجديد ، وميزان القوى الجديد الذي تطلب بالضرورة تغييرا ملموسا في السياسة الخارجية الامريكية ، نجد كذلك أن العوامل الاقتصادية لعبت دورا أساسيا هاما في دفع الولايات المتحدة الى تغيير سياستها تجاه الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية والمعسكر الاشتراكي عامة ، واقدامها على اتباع سياسة الانفتاح والتعايش السلمي .

اذ بدأت البرجوازية الأمريكية الحاكمة تقتنع من واقع النتـائج المريرة المخيبة للامل التي أسفر عنها تطبيق السياسة الخارجية الامريكيـة ، أن تبديد جزء كبير من الموارد القومية على سباق التسـلح ، والمغـامرات العسكرية انما يؤدي الى اضعاف مواقع الولايات المتحدة في صراعها ضـد البلدان الراسمالية الاخرى ، ويقودها الى اضطرابات ماليـة ونقـدية ، ويضعف أسس تأثيرها الاقتصادي والسياسي في العالم ، وقد اعترف بهذه الحقيقة بلباقة « لاندبرج » الرئيس السابق « لبنك أمريكا » ، عندما لخص نصيحته لكل المعتدين في العالم بقوله : « اذا أردتم أن تحققوا أرباحا ، واذا أردتم أن يكون العالم لكم ، لا تبددوا طاقاتكم في مؤسسات عسكرية لاجدوى منها — اتبعوا مثال اليابان والمانيا ما بعـد الحـرب ، ولتكن عـدوانيتكم اقتصـادية » .

كذلك فمن العوامل الهامة وراء ذلك التغيير أيضا ، ضغط الرأي العام الامريكي نفسه فقد تساءل ملايين الامريكيين عن جدوى استمرار بلادهم في انفاق موارد ضخمة على سباق التسلح أكثر من ١٠٠٠ مليار دولار منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وانفاقها ايضا على مغامرات السياسة الخارجية بدلا من استخدامها لحل المشـاكل الداخلية الاقتصادية الملحـة كالتضخم والبطالة ، وعجز ميزان المدفوعات ، والمركز الضعيف للدولار ، والمصاعب في الاسواق العالمية ، والفقر في المجال الاجتماعي ، والزنوج الذين يتعرضون لاضطهاد وحشي ، وأزمة المدن الكبرى ، وارتفاع معدل الجرائم ، و« التدهور الخلقي » ، في الوقت الذي أعلن فيه الجنرال ل. جافين المتخصـص البارز في الشئون العسكرية ، والشخصية الأمريكية العامة ، أن نتيجة النزاعات المقبلة ستحسم في مجال الاقتصاد ، وظروف الحياة الداخلية للشعب ، وفي مجال التطور العلمي والتكنولوجي . وأعرب عن تشككه في الحكمة في انفاق

...,۳۰ مليون دولار فى العام على العمليات العسكرية فى فيتنام بشكل يسبب اضرارا بليغة بالاقتصاد الامريكى ، وبالوضع الداخلى عموما . الى آخر ذلك من اراء لاقت صدى متزايدا فى الدوائر الامريكية الحاكمة ،وتحولت الى عامل هام فى الوضع السياسى ، خاصة بعد أن دفعت حرب فيتنام الطويلة والدامية بالمشاكل المتفاقمة على سطح المجتمع الامريكى ، وزادت من حدة الصراع الداخلى بدرجة جعلت اقساما واسعة متباينة من الراى العام ، وكثير من ممثلى الطبقة الحاكمة يدركون ، بل ويعلنون أنه لابد من التغيير .

وعلى نحو اجمالى ، اخذت كل هذه العوامل السياسية والاقتصادية تظهر بوضوح خلال انتخابات الرئاسة الامريكية عام ١٩٦٨ . ولذا وعد نيكسون الشعب الامريكى خلال هذه الحملة الانتخابية ، لا بانهاء سريع للحرب الفيتنامية فحسب ، وانما تعهد باعادة النظر فى خط السياسة الخارجية الامريكية ، واكد نيكسون ان اعادة النظر هذه ستنطلق فى اتجاه الحد من « تورط » الولايات المتحدة والتزاماتها الخارجية و« الانتقال من عصر المواجهة الى عصر المفاوضات » مع الاعداء ، وخاصة الاتحاد السوفيتى .

وهكذا تبدت حقيقة سياسة « الوفاق » كتغير ، وانعطاف محسوس فى السياسة الخارجية الامريكية تجاه المعسكر الشيوعى عامة ، والاتحاد السوفيتى والصين الشعبية خاصة ، انتقلت فيه الولايات المتحدة من سياسة مراكز القوى ، الى الموافقة على سياسة التعايش السلمى ، ومن السياسة الخارجية الرسمية القائمة على حصار الشيوعية وعزلها والقضاء عليها ، الى سياسة ضمنية فى هذا الصدد ، ومن سياسة ايقاع اكبر الاضرار بالاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية الاخرى ، باعتبارها هدف حاسم للسياسة الخارجية الامريكية ، الى سياسة تعاون مع الاتحاد السوفيتى فى مختلف المجالات ، ومحاولة التوصل الى حل المشاكل الدولية المعقدة عن طريق التفاهم مع الاتحاد السوفيتى بدلا من استخدام القوة ، على أن ذلك لا يعنى بالطبع أن الاحتكارات الامريكية قد راجعت موقفها من الافكار الاشتراكية والشيوعية ، لان شيئا من هذا القبيل لم يحدث ولكن حقائق الحياة الصلدة علمت الطبقة الحاكمة فى الولايات المتحدة انها بالاستناد فى كل سياستها على محور معاداة الشيوعية ، لم تتمكن البورجوازية الامريكية من أن تحمى نفسها من الاخطار ، فى الوقت الذى أضرت فيه بمصالحها الطبقية الى حد بعيد .

« التعايش » استجابة لسياسة السلام السوفيتية :

أما فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى ، فان « التعايش السلمى » وهو المصطلح الذى ابتدعه لينين لوصف الحالة التى يعرفها الغرب الآن « بالوفاق الدولى »، ليس ولم يكن فى أى يوم فى نظر السوفيت انتكاسا أو تراجعا ، على سياستهم السابقة ، بل هو تتويج لجهود لم يتوانوا عن بذلها لبلوغ هذا الهدف منذ أيام لينين. واذا كانت «المتغيرات الدولية» التى تجسدت فى لقاءات القمة الامريكية — السوفيتية ، والاتفاقات التى اسفرت عنها فى المجالات المختلفة تعتبر نتيجة ايجابية للتطلع والجهد المشترك من جانب الدولتين الاعظم وسعيا نحو السلام،

الا انها في الحقيقة وحسبما تبين انتصار لسياسة انتهجها احدهما ودعا اليها منذ البداية ، وانتكاسة لسياسة سابقة انتهجها الطرف الآخر ، وجرب وسائل عديدة لفرضها ، ولو حتى بالقوة دون جدوى ، ذلك أن موقف الاتحاد السوفيتي من مسألة العلاقات السوفيتية الامريكية والعلاقات مع كل البلدان الراسمالية قد حددته دائما اعتبارات مبدئية ارتكزت على الدوام ، على تنفيذ المبدأ اللينيني للتعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة ، وتطوير الصلات ذات الفائدة المتبادلة مع البلدان المستعدة لذلك والتعاون في تدعيم السلام لتوفير أكبر استقرار ممكن للعلاقات بين الدول . وقد ارتبط هذا الموقف بأسس الدولة السوفيتية ، وبالاسس التي وضعها لينين منذ ١٩١٧ لسياستها الخارجية القائمة على التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة . ففي ١٧ مارس ١٩٢١ كتب لينين الى رجل الاعمال الامريكي فاندرليس الذي أبدى في ذلك الوقت اهتماما ببترول شرق سيبيريا يقول : « انك تعرف مدى الاهمية التي نعلقها على علاقاتنا التجارية والاقتصادية مع امريكا في المستقبل » ولكن الصفقة لم توقع في ذلك الوقت لان « هاجز » وزير الخارجية الامريكي ، وضع شرطا مسبقا لهذا التعاون وهو : اعادة النظام البرجوازي الى روسيا . وبالطبع لم يحدث هذا ونجد في نهاية الامر أن النمو الهائل للقدرات الاقتصادية والدفاعية لاول دولة اشتراكية قد غير توازن القوى ، وأجبر الغرب والولايات المتحدة كما اشرنا على الاعتراف بحقوق الاتحاد السوفيتي في مجال العلاقات الدوليةوالسعي الى التفاهم معه كحقيقة سياسية كبرى راسخة تؤثر تأثيرا كبيرا في مجريات الأمور العالمية .

وسوف نقدم هنا نموذجا واحدا على طابع الجهود ، والسعي السوفيتي الواضح الى التعايش السلمي في الفترة السابقة على ما يسمى « بالوفاق » الدولي كي نؤكد بالوقائع التاريخية أن هذا المسعى كان خطا ثابتا في السياسة الخارجية السوفيتية . ويتمثل هذا النموذج في الموقف السوفيتي من قضية واحدة هي قضية الامن الاوربي ، فنجد بهذا الصدد أن الفترة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الثانية ، وبدء المشاورات التمهيدية لمؤتمر الامن والتعاون الاوربي في هلنسكي في نوفمبر ١٩٧٢ حفلت بالمقترحات التي قدمها الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الاوربية من اجل كفالة الامن الاوربي ، واقامة نظام للامن الجماعي في أوربا . ففي فبراير ١٩٥٤ قدمت الحكومة السوفيتية في اجتماع الذي عقده وزراء خارجية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا في برلين اقتراحا بعقد « معاهدة اوربية شاملة للامن الجماعي في أوربا » ، ورفضت الدول الغربية الثلاث هذا الاقتراح . وفي نوفمبر ١٩٥٤ اقترح الاتحاد السوفيتي عقد مؤتمر تشترك فيه كل دول اوروبا لمناقشة اقامة نظام للامن الجماعي في أوربا ، ورفضت دول حلف الاطلنطي الاشتراك في هذا المؤتمر . وفي نوفمبر ١٩٥٥ اقترحت الحكومة السوفيتية عقد ميثاق عدم اعتداء بين دول حلفي وارسو والاطلنطي كخطوة تمهيدية ، نحو عقد معاهدة اوربية شاملة تكفل الامن الجماعي في القارة ، ورفضت دول حلف الاطلنطي هذا الاقتراح . وفي يوليو ١٩٦٦ اقترحت اللجنة الاستشارية لدول حلف وارسو عقد مؤتمر للامن والتعاون الاوربي على اساس الاعتراف بالحدود التي تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية في أوربا بما في ذلك خط حدود

الاودر ــ نيس . وفى اكتوبر ١٩٦٩ قدمت دول حلف وارسو جدول اعمــال مقترح لمؤتمر الامن الاوربى ، ثم عادت فى يونيو ١٩٧٠ فقدمت مقترحاتعملية اقترحت فيها أن تكون الدول التى تشترك فى المؤتمر هى كل دول أوربا ، بما فيها الدولتين الالمانيتين ومعهما الولايات المتحدة وكندا . وفى يناير ١٩٧٢ اصدرت اللجنة الاستشارية لدول حلف وارسو بيانا عن (الســلام والامن والتعاون فى أوربا) . حددت فيه المبادىء الاساسية للامن الاوربى علىاساس احترام الحدود القائمة ، ونبذ استخدام القوة ، والتعايش السلمى ، وتنمية العلاقات ذات المنفعة المتبادلة والعمل على حل مشكلة نزع السلاح ، ومساندة الامم المتحدة . وهذا كله جانب من مبادرات الاتحاد الســـوفيتى والــدول الاشتراكية فى قضية واحدة هى قضية الامن الاوربى ، وهى تشهد جميعا أن السلام والامن الأوربى والتعايش السلمى كان مطلبا ثابتا ملحا فى السياسة الخارجية لهذه الدول ، وان هذا المطلب ظل يقابل بالاعتراض والتجاهل من الولايات المتحدة ودول حلف الاطلنطى ، التى كانت تصف الدعوة لعقد مؤتمر الامن الاوربى بأنه حلم لا طائل وراءه وظلت تضع فى سبيله شتى العراقيل ، الى أن بدأت فى أواخر العام الماضى وتحت تأثير كافة العوامل السياســية والاقتصادية والعسكرية التى اشرنا اليها سالفا ، المشـــاورات التمهيــدية لعقد المؤتمر بعد بدء سلسلة من التطورات الهامة فى العلاقات الدولية التى اشرنا اليها ايضا .

وقد تجسدت التطورات الايجابية الاخيرة فى مجال تخفيف حدةالتوترالدولى، والانفتاح الاوربى والامريكى على الشرق ، تجسيدا مركزا فى لقاء القمـــة الامريكى ــ السوفيتى (١٩٧٢) . ولقاء القمة السوفيتى ــ والامريكى فى (١٩٧٣) حيث جاء فى وثيقة المبادىء الاساسية للعلاقات المتبادلة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة . تعبيرا عن التحولات الملموسة التى تمت فى العلاقات بين البلدين ، انه « لا بديل فى العصر النووى لاقامة العلاقاتالمتبادلة بين البلدين على اساس التعايش السلمى ، فالاختلافات بين الاتحادالسوفيتى والولايات المتحدة فى مجال الايديولوجية والنظام الاجتماعى ، لا تشكل عقبة فى طريقتطور العلاقاتالطبيعية بينهما على اساسمبادىء السيادةوالمساواة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية والمنفعة المتبادلة » وبذلك اعترفتالولايات المتحدة أن التعايش السلمى ، هو الاساس الوحيد الواقعى للمحافظة عــلى العلاقات بين البلدين فى ظروف عالم اليوم .

وبعد ، فما يمكن أن نقوله بايجاز هنا بعد تحليل العوامل الموضوعية الجوهرية الكامنة وراء سياسة « الوفاق الدولى » فهو ان مناخ هذا الوفاق لا يحول ولم يحل بين اى شعب من الشـــعوب ، وبين مواصـــلة نضاله التحريرى ، فهو لم يحل مثلا بين شعب فيتنام الجنوبية ، وبين أن يشن فى عز زيارة نيكسون لموسكو ١٩٧٢ ، هجوما استراتيجيا تحريريا شاملا ، ادى الى تحرير مقاطعة كوان ترى واضاف الى رصيد انتصاراته المتواصلة، انتصارا جديدا مشهودا ، ولم يحل قبل ذلك بين شعب البنغال (٧٥ مليون نسمة) وبين انتزاع حق تقرير مصيره بالقوة المسلحة ، بمساعدة الجهد الرئيسى الحاسم الذى قام به الجيش الهندى الصديق بموازرة ومساندة بالسلاح ، من جانب الاتحاد السوفيتى . وتمكن الجيش الهندى وثوار البنغال

من تحرير أراضي البنغال ، وتحقيق نصر شـــامل كاسح للشعب البنغالي باقامة دولة بنجلاديش ، كذلك لم يحل الوفاق قط دون بدء الهجوم المصرى ـ السورى التحريرى فى ٦ اكتوبر الذى تمكنت فيه القوات المسلحة المصرية ولأول مرة فى تاريخ المجابهات العربية ـ الاسرائيلية من ١٩٤٨ ، منزحزحة الجيش الاسرائيلى عن خط استراتيجى كامل واجباره على التقهقر شرقى قناة السويس . لذا نقول فى النهاية أن مناخ الوفاق بين الدولتين الأعظم ، وان كان يحمل دون شك نتائج ايجابية لشعبى البلدين ولسلام العالم ، فانه لا يحول قط ، ولا يضعف بحال ، من نضال الشعوب التحريرى ، لأن نجاح هذا النضال وانتصاره ، يتوقف أولا وقبل كل شىء ، على القدرة الذاتية لحركات التحرر الوطنى ، ومقدرة قياداتها السياسية والعسكرية على حشد وتعبئة شعوبها وجيوشها ، بأفضل الطرق وأكثرها كفاءة وفعالية لتحقيق النصر . وانزال الهزيمة بقوى التوسع والعدوان .

الصهيونية والوعي الزائف

دكتور عبد الوهاب المسيري

مقدمـــــة :

ثمة مسافة ما تفصل بين فكر الانسان وواقعه ، هي مسافة تفترض كل المدارس الفلسفية وجودها بغض النظر عن موقع هذه المدارس الطبقي أو الزمني أو المكاني ، فالفلسفات المثالية تفترض أن المســافة بين فـكر الانسان وواقعه واسعة للغاية ، وأن الواقع أن هو الا انعكاس شاحب وهزيل للاصل الفكري (أو المثل الاعلى) . وعلى العكس من هذا تفترض الفلسفات المادية الميكانيكية أن المســافة التي تفصل الفكر عن الواقع قصيرة للغاية ، وأن الفكر أن هو الا انعكاس مباشر للواقع . وترى الفلسفة المادية الجدلية هي الاخرى أن هناك مسافة بين الفكر والواقع ولكنها ترى أيضا انه على الفكر أن يحاول تخطى هذه المسافة ليصل الى الواقع وأن على الواقع بدوره أن يرقى الى مستوى الفكر (النابع من الواقع) ، أي أن الفكر ينبع من الواقع ويعود اليه ، وأن الواقع ينتج الفكر ويتأثر به . ويمكننى القــول أن ما يميز الوجود التاريخي الانســانى (عن الوجود الطبيعي) هو وجود هذه المسافة بين فكر الانسان وواقعه ، وأى دراسة للواقع التاريخي المركب لابد وأن تركز على « قياس » هذه المسافة (ان أردنا استخدام اصطلاحا علميا) كي تحدد نوعهــا ومصادرها وسماتهــا ونتائجها . ووجود هذه المسافة هو في نهاية الامر مصدر التنوع الانسانى ، فلأن الفكر ليس انعكاسا ميكانيكيا للواقع ، فان كل مفكر يعكس الواقع بطريقة تختلف عن سواه من المفكرين ، وللسبب ذاته نجد أن كل حضارة تستجيب لنفس النظام الاقتصادى بطريقة تختلف عن استجابة الحضارات الاخرى له . فالمسافة بين الفكر والواقع هي مصدر تركيب وجودنا التاريخي وهي ضمان فرديتنا وتنوعنا وانسانيتنا . (كل هذا يقف في مجابهة بســاطة الطبيعة التي لا يختلف ظاهرها عن باطنها - وليس فيها سوى دورات متكررة رتيبة لا تختلف باختلاف الزمان) .

ونحن في حديثنا عن الايديولوجية نفترض وجود هذه المسافة بين الفكر والواقع ، فنحن يمكننــا أن نعرف الايديولوجية (أى ايديولوجية) انها التعبير الفكري والنفسى والحضارى عن واقع اقتصادى / اجتماعى معين بكل مكوناته من أدوات انتاج وعلاقات انتاج . وفي المصطلح الماركسى يشار للأيديولوجية بأنها البناء الفوقي ويشار للواقع الاقتصادى / الاجتماعى الذى انتجها بأنه البنــاء التحتى ، وهى تسميات تفترض انفصالا ما بين الواحد والآخر . ولهذا السبب نحن ندرس علاقات الانتاج الراسمالية ثم ندرس الفكر الراسمالى والأدب الراسمالى ، ولا يمكن لأى دارس أن

ان يفترض وجود تطابق كامل بينها والا اكتفينا بدراسة الارقام والاحصائيات ، ولكننا لا نفعل لعلمنا اننا لو فعلنا هذا لما وفينا اللحظة التاريخية حقها .

ولكننا رغم افتراض الانفصال نرى انه ثمة علاقة ما وان البناء التحتى (أو المضمون ؟) هو الذى يحدد صورة البناء الفوقى (أو الشكل ؟) . فالبناء الفوقى رغم تماسكه وانتظامه وتناسقه يأخذ صورته وتتحدد حركته عن طريق حركة وتناقضات البناء التحتى ، حتى اننا يمكننا أن ننظر الى البناءين التحتى والفوقى (للنظام الراسمالى مثلا) على انهما بناء واحد يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الراسمالية » لان البناء التحتى لا وجود له دون البناء الفوقى ، كما ان البناء الفوقى لا وجود له دون البناء التحتى .

ولذلك يجب ان نضع فى الاعتبار أن عملية الفصل بين شقى أى بناء وتأكيد المسافة بينهما هى فى نهاية الامر محاولة من جانبنا لتجميد الواقع الحى للحظات حتى يتسنى لعقولنا الانسانية ادراكه ، أما اذا نظرنا للواقع فى حركته فلن نرى ســـوى أبنية اقتصـــادية حضارية ، فوقيه تحتية ، متماسكة متكاملة . وبالطبع ستتفاوت درجات التماسك بين الأجزاء العليا من البناء الفوقى (قصص الاطفال — قصائد الحب — طريقة الأكل والطهو) والأجزاء الدنيا من البناء التحتى (الأجور — نوعية الآلات المستخدمة) ولكنها فى نهاية الامر تكون كلا حيا متماسكة .

ولتوضيح بعض الافكار السابقة سناخذ عنصرا من البناء الفوقى للنظام الراسمالى لنبين علاقته بالبناء التحتى ، وليكن هذا العنصر هو « اسطورة النجم السينمائى اللامع » الشائعة فى الحضارات الراسمالية (والنجم السينمائى هو الترجمة العينية لفكرة البطولة فى عصر البورجوازية وهو المعادل الراسمالى الموضـــوعى للفارس النبيل فى العصـــور الوســـطى الاقطاعية) . النجم السينمائى فرد بالدرجة الاولى لا علاقة له بالآخرين ، وهو يتحلى بالجمال والاناقة والثراء (وهى كلها قيم غير اخلاقية لا علاقة لها بالعدالة أو الضمير أو الحق) ، كما أنه لا يمكن أن يصعد الا على جثث الآخرين ، فالوسط الفنى لا يتحمل اكثر من عدد محدد من النجوم ، وعلى البـــاقين ان يلعبوا دور الكومبارس أو حتى دور المتفـــرج القانع الخانع . واعتقد أن العلاقة بين **صورة** النجم السينمائى **وصورة الراسمالى** ليست صعبة الادراك . ويمكن القول بأن كلتا الصـــورتين ينتميان الى البناء الفوقى ، فالانتاج الراسمالى مثل اى انتاج انسانى عملية جماعية يساهم فيها الكومبارس البروليتارى أكثر من مساهمة النجم الراسمالى اللامع ، ولكن هذه هى بالضبط وظيفة الايديولوجية فى المجتمع الراسمالى — أن تعمى الناس عن حقيقة العلاقات الاقتصـــادية القائمة وان تعقلن لهم نمط الانتاج الراسمالى وطريقة توزيع الثروات فتضفى عليها الشرعية أمام الراسمالى والبروليتارى على السواء ولكن على الرغم من الجانب التمويهى للصور الايديولوجية نجد ان صورة النجم الراسمالى اللامع تصف جانبا هاما من الواقع الراسمالى بميكانزمات السوق والاعلان والتوزيع ومخاطر الاستثمار وقوانين العرض والطلب التى يتطلب استغلالها مهارات فردية فائقة ومضاربات أكروباتية وتضحيات لا أخلاقية بالآخرين . هذا

الوضع يظل قائما الى أن تظهر قوى وعوامل جديدة فى البناء التحتى تنتج صورا وقيما فوقية تتحدى البنيان القديم بشطريه الفوقى والتحتى .

الوعى الزائف الصهيونى : وصف بنيته وأسباب ظهوره :

ولكن اذا كان الفكر ليس انعكاسا للواقع فكل فكر انسانى اذن « فكر مزيف » وهذا صحيح من الناحية النظرية المنطقية المجردة ، وان كانت الممارسة تحسم هذا التناقض .. فالفكر من خلال الممارسة يمكن أن يصل الى الواقع ويتفاعل معه ، وبهذا يصبح فكرا حقيقيا ويصبح وعى صاحبه وعيا حقيقيا بواقع حقيقى . ولكن هناك فكر ينغلق على نفسه كالدائرة ولا يتفاعل مع ما هو خارج عنه ، وهذا هو ما يمكن تسميته « بالوعى الزائف».واهم خصائص الوعى الزائف أنه يفرغ التاريخ من جدله ويحوله الى أسطورة والى تفاصيل محايدة متناثرة ثم أخيرا يحول الانسان ذاته الى صورة ميتة أو مثال أعلى جامد لا علاقة له بحياة البشر بكل ما فيها من حزن وفرح وانتصار وانكسار . ويمكننا اذا أن نلخص الوعى الزائف بأنه رؤية زائفة للتاريخ وللنفس البشرية ينتج عنها رؤية للواقع السياسى والانسانى ــ رؤية تنكر امكانيات هذا الواقع الحقيقية وتستبدلها بأفكار ورؤى من صنع الفكر المجرد .

والوعى الزائف يصل الى هذه الرؤى والافكار اما بأن يفترض وجود متغيرات غير موجودة (تطلع الشعب اليهودى الازلى للعودة الى أرض الميعاد) أو انكار وجود متغيرات موجودة بالفعل (الشعب الفسطينى فوق أرض الميعاد) أو اضفاء صفة المحورية على متغيرات هامشية (حادثة ماسادا ــ هجرة بضعة آلاف يهود لأرض الميعاد على أنها تعبير « حقيقى » عن مسار التاريخ اليهودى فى الوقت الذى هاجر فيه الملايين الى الولايات المتحدة الامريكية !) . والوعى الزائف يقوم بالتلاعب بالواقع لأنه قادر على أن ينظر الى الواقع اما بتلسكوب المطلق (حق اليهود فى أرض الميعاد ــ روح التاريخ اليهودى) أو بالنظر للواقع بميكرسكوب الامبريقية (الشعب الفلسطينى لا ينتمى الى كيان تاريخى عربى وانما هم مجموعة أفراد أن قضينا عليهم أو رشوناهم انتهينا من المشكلة العربية الفلسطينية برمتها والى الأبد) .

وفى اعتقادى أن الصهيونية بكل شعاراتها وتصوراتها عما يسمى بالتاريخ اليهودى (أو تواريخ الاقليات اليهودية فى العالم كما أفضل أن أسميه) أو عما يسمى بالشعب اليهودى (أو الاقليات اليهودية المختلفة فى العالم) هى شعارات وتصورات زائفة تقف ضد سار التاريخ وضد حركة يهود شرق أوروبا ذاتهم . وقد حاولت أن أبين فى دراسة أخرى الأسباب التى أدت الى ظهور الصهيونية وقد يكون من المفيد أن أوجز أطروحتى بشكل سريع مع بعض الاضافات الجديدة . والحديث عن ظهور الصهيونية هو فى الوقت ذاته حديث عن ظهور الوعى الزائف بين بعض فئات الاقليات اليهودية فى شرق أوروبا ، وأعتقد أنه من الممكن القول أن اليهود فى شرق أوروبا كانوا مرشحين الى حد كبير للوقوع ضحية الوعى

الصـــهيونى الزائف بسـبب أوضـــاعهم الحضارية والثقافية والاقتصادية بالدرجة الأولى ، وبسبب عناصر خاصة بالدين اليهودى بالدرجة الثانية . فحتى عهد قريب كان يسـود بين اليهود تصور دينى مفاده أنهم ينتمون الى بنيان حضارى دينى واحد وأن التلمود هو وطنهم الحقيقى . ولكننا نعـــلم من تجربتنا الحية أن الوطن لا يمكن أن يكون كتابا وأن واقع اليهود فى العـــالم لم يكن يتسم بالوحدة قط ، فيهودية القرائـــين تختلف عن يهودية الحاخاميين ، ووضع يهود اليمن فى القرن العشرين يختلف عن وضع يهود الاندلس فى القرن الثالث عشر وكلاهما يختلف عن يهود أمريكا أو يهود الحبشة ، أى أننا فى التاريخ المتعين نجد أن الوجود اليهودى يأخذ دائما شكل بنية فرعية تحقق نوعا من الاستقلال عن البناء الحضارى السائد وان كانت فى نهاية الأمر تستمد منه أصول الحياة وقانون حركتها وقيمهـــا الاخلاقية . فاستقلال يهود اليمن عن الحضـارة اليمنية العربية الاسلامية يشبه الى حد ما استقلال يهود فرنسا عن الحضـارة الفرنسية الكاثوليكية ، ولكن رغم هذا يظل هناك مسافة زمنية ومكانية شاسـعة بين يهود اليمن ويهود فرنسا . واستقلال يهود العالم عن البنيـــان الحضارى السائد لا يختلف من قريب أو بعيد عن استقلال أى أقلية عن الاغلبية السـائدة فى المجتمع ، ولكن اليهود عبر تاريخهم كانوا يرون أن هناك وحدة عنصرية بين الاقليات اليهودية فى العالم (وهذا يرجع الى أنهم رأوا الوحدة الدينية العاطفية على أنها وحدة عنصرية لأن الدين اليهودى ذاته يخلط بين الدين والجنس) ولكن هذا القدر من الوعى الزائف كان بسيطا للغاية بحيث انه لم يصمد أمام الواقع فى أى حالة . ولهذا نجد أن موسى بن ميمون المفكر العربى اليهودى يهاجر من الاندلس الى القاهرة ولا يكلف خاطره ان يذهب الى القدس .

ولكن هذا التيار قدر له أن يمتلك أســـباب الحياة وأن يضرب جذورا راسخة فى شرق أوروبا فى القرن التاســـع عشر نظرا لظروف سياسية واقتصادية وحضارية شكلت تربة صالحة لازدهار الوعى الزائف ، هذه التربة يمكن أن نطلق عليها الوجود اليهودى فى الجتو . فالجتو كان بناء اقتصاديا يأخذ شكل الدائرة المغلقة على نفسها (من الناحية الوجدانية ان لم يكن من الناحية الفعلية أيضا) ، ففى الجتو كان اليهودى يتعامل مع أشـــياء يظن أنهـــا يهودية خالصـــة ، وهناك كان يمارس الطقوس اليهودية بكل حرفيتها ثم يمتنع عن العمل يوم السبت حتى يعمل بعودة الماشيح المنتظر ليقوده الى أرض الميعاد — والانتظار الدائم هو خير الوسائل النفسية لالغـــاء جدل الواقع فى انتظار الفـــردوس . وحينما كان يحاول اليهودى أن يدرس شيئا فانه كان يذهب الى البيت هامدراش المدرســـة الملحقة بالمعبـــد اليهودى) أو يذهب الى اليشيف (الاكاديميـــة الدينية اليهودية) حيث كان لا يدرس الا التوراة والتلمود ولا يقترب البتة من تاريخ الأغيار ، فقد كان كل ما يعنيه هو تاريخ اليهود كمـــا جاء فى كتب اليهود المقدسة . هذه التربة الوجدانية التى يتداخل فيها الزمنى بالمقدس باعتبار أن التاريخ الفعلى هو ما يأتى ذكره فى الكتاب المقـــدس هى التى تشكل أساس الرؤية الصـــهيونية الاحادية وهى التى مهدت لظهور « الدائرة اليهودية السحرية » التى لا يمكن الفكاك منها كما قال أحد المفكرين اليهود .

وقد لخص دافيد فرايدلندر المقدرات الفكرية لطالب اليشــيف فى القرن التاسع عشر على النحو التالى : كان فى امكان هذا الطالب أن يفتى عما اذا كان من الواجب رجم ام حرق ابنة الحاخام الزانية ، ولكنه فى الوقت ذاته كان لا يعلم شيئا عن تاريخ البلد الذى يعيش فيه . وحينما كان يتعلم يهودى الجتو لغة جديدة فانه كان يتعلم اللشون هاكدوش : اللسان المقدس او اللغة العبرية ، لأن مجــرد النظر الى ابجدية الجوييم كان يعد كفرا ما بعــده كفر يستحق اليهودى عليه حرق عينيه ، وكان مجــرد التفكير فى دراسة علوم الدنيا مثل الهندسة هو جهد لا طائل من ورائه وكفر تعاقب عليه الشريعة بل ان الحديث اليومى بين اليهود لم يكن يتم بلغة البلاد وانما بلغة خاصة تسمى اليديش (خليط من الالمانية والسلافية والعبرية تكتب بحروف عبرية) أى ان العزلة كانت شبة تامة ، بل ان الطريقة التى كان اليهودى يحلق بها لحيته وسوالفه وطريقة اغتساله وانواع الطعام التى يتناولها كانت كلها مختلفة عمــا يتناوله بنو وطنـــه من غير اليهود . ومن الناحية الاقتصـــادية كان الجتو يقف على الهامش ، فهو كان مركز الربا وبعض انواع التجارة البدائية والحرف الخفيفة مثل الخياطة والحلاقة . وقد مر عصر النهضة ثم عصر الاصلاح الدينى بل وعصر الاستنارة واليهود لا يزالوا داخل الجتو يقيمون شــعائر السبت ويتحدثون عن الاختيـــار والعودة . وفجأة بدأت الراسماليات المحلية تنمو وبدأت فى توحيد السوق القومية فسقطت حوائط الجتو فى وقت لم يكن فيه اليهود معدين للانعتاق . وقد قامت محاولات جادة بين اليهود نحو الانفتاح ونحو التخلص من الدائرة الجتوية ، ولكنها كلها محاولات لم يقدر لها التوفيق (وان لم يقض عليها كلية حتى الآن ، فلا تـــزال هناك حركات عقلية بين اليهود تكافح ضـــد الصهيونية وتحاول منع اليهود من السقوط فى الدائرة المغلقة) .

وقد كان من الممكن أن تولـــد الصهيونية فى الجتو ثم يكتسحها مسار التاريخ مثلما اكتسح مئات الافرازات الاخرى من قبل ، ولكن ظهور الامبريالية العالمية فى أوروبا الغربية هو الذى منح الصهيونية بعض الحياة ، وهو ايضا الذى جعل منها بناء ايديولوجيا شاذا فريدا ، فلندرس هذا الجانب من الصهيونية لأنه وثيق الصلة بالوعى الصيهونى الزائف وباستمراره ، وهو فى نهاية الامر عقب أخيل بالنسبة لها .

بعض سمات الايديولوجية الصهيونية :

المقدمة النظرية التاريخية الســـابقة هى تمهيد لازم لتحديد السمات الخاصة بالايديولوجية الصهيونية التى تختلف كيفيا عن أى بناء ايديولوجى معروف . ويتلخص وصفى للصهيونية بانها **بناء فوقى متسق هندسيا مع نفسه يســـتند الى ثلاثة ابنية تحتية** . أما البنـــاء الفوقى فهو مايعرف « بالفكر الصهيونى » بكل اتجاهاته ومدارسه ونزعاته من صهيونية روحية الى اخرى دينية الى ثالثة اشتراكية الى رابعة فاشية وهكذا . ويمكننا اختزال كل هذه التنوعات السطحية لنصل الى الجوهر البنيوى المستتر ونصف البناء الفوقى بأنه بانثى النزعة (نســـبة الى البانثيزم أو وحدة الوجود) أى وحدة الله (اليهودى) بالشعب (اليهودى) بأرض الميعاد

(اليهودية) . ومما هو جـدير بالذكر **أن هـذا البناء الفوقى قد استقى مصطلحاته وبعض أساطيره، بل وفكرة وحدة الوجود ذاتها من التراث اليهودى الدينى والشعبى حتى يخلع على نفسه صفة الأزلية والأبدية وحتى يخفى أبعاده التاريخية الحقيقية** (ولعل هـذه هى **أولى** سمات البنـاء الفوقى الصهيونى) .

وكمـا أشرنا من قبل يتسم البناء الفوقى الايديولوجى عادة بالاتسـاق والتكامل لانه فى نهاية الامر رؤية متكاملة للواقع وبرنامج للعمل ، وكلما ابتعد البناء الفوقى عن البناء التحتى (أى كلمـا ازدادت المسافة بينهما) كلما ازداد البناء الفوقى اتساقا وتناسقا وازداد انعزالا عن الواقع الى أن يصبح مثالية فاشية ، بينما كلما ازداد اقترابا من البناء التحتى وارتبط به (أى كلما قلت المسافة بينها) كلما قل تناسقه الهندسى ، ولكنه مع ذلك يصبح أكثر صلاحية للتعامل مع الواقع . والبناء الفوقى الصهيونى منفصل الى حد كبير عن الواقع ، وهذا راجع الى عـدم اتزان البنـاء الفوقى ، فكل ايديولوجية تقدم **وصفا** حقيقيا أو زائفا للواقع ، كما تتقدم **بحل** أو أكثر للمشـكلة ، فاذا ما نظرنا الى الصـهيونية وجدنا أن القسم **الوصفى** فى بنائها الفوقى متضخم للغاية أما القسم الخاص بالحلول المطروحة فهو فى حالة ضمور هائل بل واختفاء كامل أحيانا . ومصدر الخلاف بين المذاهب الصهيونية المختلفة يعود الى الجزء الوصفى وحده ولا علاقة له بالجزء الخاص بالحلول ، فسبب مشكلة اليهود من وجهـة نظر « الصهيونية الدينية » هو ابتعادهم عن روح الدين اليهودى (السبب دينى) ، أما من وجهة نظر « الصهيونية الروحية » فسبب أزمة اليهود هو أزمة اليهودية ذاتها وعدم وجود مركز روحى ثقافى حى تبعث فيـه اليهودية وقيمها من جديد (السبب روحى ثقافى) ، أما من وجهة نظر « الصهيونية السياسية » (أو العلمانية أو الليبرالية) فسبب الأزمة هو حركة الاستنارة وفشل بعض اليهود فى الاندماج فى مجتمعاتهم وظهور معـاداة السامية (السبب سياسى علمانى محض) ، أما « الاشتراكيون » فيقومون بتحليل وضع اليهود فى أوروبا مسـتندين الى المنهـج الاشتراكى أو حتى المـاركسى ، ومصدر الأزمة حسب هذه الرواية هو وجود اليهود خارج عملية الانتاج أو عند نهايتها كتجار وحرفيين وليس كعمال وفلاحين مما يثير حفيظة جميع قطاعات المجتمع عليهم ومما يسم وجودهم بالهامشية .

هذا هو القسم الوصفى بكل تنوعاته ، ولكن حينما نصل الى القسم الخاص بالحلول نجد أن الجميع يتفقون على أن الحل الوحيد هو الهجرة الى « الأرض » واقامة الدولة اليهودية (الدينية أو الروحية أو العلمانية أو الاشتراكية) دون أن يبحثوا فى المشاكل المترتبة على تنفيذ هذا المخطط ودون أن يدرسوا هذه « الأرض » فى وجودها التاريخى المتعين ، أى أن « الأرض » بالنسبة للجميع فكرة أزلية مجردة وفى الوقت نفسه « شيئا » غير تاريخى مجرد .

وبهـذا يمكننا القول أن البنـاء الفوقى الصـهيونى أو الايـديولوجية الصهيونية تتسم بأنها تولى القسم الوصفى جل اهتمامها مهملة الجزء

الخاص بالحلول ، مما نجم عنه أن الصهاينة انفصموا تماما عن الواقع الوحيد الذي يتعاملون معه وهم بعـد في مرحلة التنظيـر (وهو الواقع الوحيد باعتبار أن الواقع اليهودي في أوروبا انما كان مادة **للوصف** وليس تربة **للحل**) **، أن تضخم الجانب الوصفي على حسـاب الجانب الخاص بالحلول المطروحة** (وهذه هي السمة **الثانية** للبناء الفوقي الصهيوني) هو الذي جعل من الصهيونية ، رغم تفوقها العسكري حتى عهد قريب ، غير مهيئة للتعامل مع الواقع العربي ، وجعل هـذا الواقع قادرا على مفاجئتنا لأنها اسقطته تماما من الحسبان الا كشيء يخضع أو أرض تفتح وليس كواقع حي أو كيان فعال (وكيف يمكن للصهيونية أن تفعل غير هذا ؟ أن اعترافها بوجود انساني غير يهودي على أرض الميعاد هو تدمير لكل البناء الفوقي الاسطوري) .

•

بعـد أن بينـا بعض السمات الخاصـة بالبناء الفوقي الصـهيوني او بالايديولوجية الصهيونية يمكننا الآن أن ننصرف لدراسة الابنية الثلاثة التحتية :

وأولى هـذه الابنية هو الجتو اليهودي في روسيا وشرق أوروبا الذي تعرض للتصدع والانهيار بظهور حركة الاستنارة والانعتـاق ثم الاندماج (بل والانصهار) في القرن التاسـع عشر . والجتو ـ كما بينا ـ بناء اقتصـادي / حضاري كان يتسم بالهامشية لانشـغال الجماهير اليهودية بالتجارة والربا وانغماسها في تصورات أسطورية عن تاريخها وانغلاقها على نفسها . وقد أفرز هـذا الجتو الفكر الصهيوني بكل تصوراته عن الماشيح (المسيح اليهودي المخلص) والعودة وتفوق اليهود وتدنيهم في الوقت ذاته . وهذا البناء التحتي هو الذي حدد كل عناصر الفكر الصهيوني وشكله الاساسي . والصورة المثلى التي رسمها الصهاينة لمـا ينبغي أن يكون عليه « اليهودي الحقيقي » هي صورة « الحاخام المحارب » .

ثانيا : لم تكن الحركة الصهيونية بقادرة وحدها على أن تحول الرؤية الصهيونية الى حقيقة الا بمساعدة الامبريالية العالمية ويهود الدياسبورا (المنفى) في البلاد الغربية الذين كانوا يخشون الهجرة القادمة من شرق أوروبا المتخلفة . هذان العنصران يكونان البناء التحتي الثاني للصهيونية ، وهو بناء تحتي له ديناميكية مستقلة عن الفكر الصهيوني ولكنه مع هذا يتبنى هذا الفكر ويحتضنه بل أن الامبرياليـة الغربيـة ، على الرغـم من علاقتها الميكانيكية التاكتيكية بالصـهيونية ، كانت هي العنصر الحاسم والفعال في تحويل الصهيونية من حلم فاشي الى حقيقة فاشـية ، ومكن الدولة الصهيونية من أن تزرع زرعا في الأرض الفلسطينية ، ويمكننا القول انه اذا كان الجتو قد حـدد شكل الفكر الصـهيوني ، فالامبريالية تحدد اتجاهه العام وحركته . وبدخول هذا العنصر التحتي الثاني نجد أن الصورة المثلى تتعدل بحيث يصبح « الحاخام المحارب » هو أيضا « النصير الازلي للقيم الديمقراطية الغربية » والمدافع عن يهود الدياسبورا والضامن لأمنهم الذي يستحق التمويل من الجانبين لهذا السبب .

ثالثا : حينما زرع المستوطنون اليهود فى فلسطين بدأوا يكونون واقعـــا اقتصاديا جديدا له ديناميكية مستقلة عن الجتو (وعقليته) وعن الامبريالية العالمية وعن يهود الدياسبورا . فالبناء الاقتصادى الاسرائيلى قبل وبعد اعلان الدولة منفصل عن الجتو من جهة وعن الامبريالية العالمية ويهود الدياسبورا من جهة أخرى ــ رغم تأثره بالأول نفسيا ورغم استفادته من الثانى ماليا وعسكريا . وقد يكون هذا العنصر من البناء التحتى مستوعبا ايديولوجيا تماما فى البناء الفوقى الا أنه من الناحية الفعلية منفصل الى حد كبير عن البناء الفوقى . وهذا البناء التحتى الثالث يفرض بعدا ثالثا على الصورة المثلى لليهـــودى فنجـــد أن « الحاخام المحارب » حامى حمى الحضــــارة والاستثمارات الغربية هو أيضـــا « الانسان الذى حقق مستوى معيشيا لا يضاهى » .

هذه هى الأبنيـــة التحتية الثلاثـــة التى يســـتند اليها البناء الفوقى الصهيونى ، ولكنه لابد من الاشـــارة لبعض النتائج التى نجمت عن هذا الوضع البنيوى الشاذ :

١ ــ مما يزيد من حدة المشاكل التى تواجه دارسى الصهيونية أن احدى الابنية الثلاثة (أعنى الجتو) قد اختفى من الوجود وانعدم تأثيره كعنصر تحتى مؤثر ، ولكن مع ذلك نجد أن العقلية التى أفرزها متمثلة فى القيادة الاسرائيلية العسكرية لا تزال من أهم العناصر تأثيرا على المستوى الفوقى . أى أن الصهيونية تتسم بانفصال شبه تام بين البناء الفوقى والابنية التحتية الباقية ، فلا الامبريالية العالمية ولا الوضع الاقتصادى الاسرائيلى مسؤولان عن افراز الشكل الجتوى للفكر الصهيونى ، وهو الشكل الذى لا يزال يفرض نفسه على الجميع . والشكل (الذى هو أكثر العناصر ثباتا فى أى بناء) يزداد تكلسا وصلابة اذا ما انفصل عن الواقع . ولذا نجد أن البناء الفوقى الصهيونى يكاد يقترب فى صلابته وفعاليته من الابنية التحتية . ومما يدعم من هذا الوضع أن المهيمنين على الحكم فى اسرائيل ، سدنة هذه العقلية الجتوية والمدافعين عن هذا البناء الفوقى ، هم الذين يقومون بجمع الضرائب من يهـــود الدياسبورا وتوزيعها بمعرفتهم على اليهود فى اسرائيل ، كما أن المعونات الامبريالية من أسلحة وأموال تنصب فى أيديهم مما يجعلهم فى مركز قوة .

٢ ــ نظرا لتعدد الابنية التحتية ونظرا لانفصال البناء الفوقى عنها جميعها (ونظرا لعدم اتزانه الذى أشرنا اليه آنفا) نجد أنه يتمتع باتساق هندسى مع نفســه (لتمركزه حول نفســه) حتى أنه يمكن تسميته بأنه شكل محض (لا محتوى له) مستعد دائما أن يكتسب محتوى ما على شرط أن يضمن لنفســـه الاستمرار ــ فهو ديمقراطى مع الديمقراطين ، عنصرى من العنصرين ، اشتراكى ثورى مع الاشتراكيين .

٣ ــ بسبب هذا الشذوذ البنيوى نجد أن التناقضات الخارجية تفوق فى الأهمية التناقضات الداخلية التى تتفاعل داخل البناء الصهيونى ، بل أن التناقضات الداخلية لا يمكنها أن تنفجر الا بتحريك التناقضات الخارجية .

بعض التساؤلات :

الصهيونية اذن بناء فوقى اســتقى مصطلحاته ومفاهيمه من التراث اليهودى وتعامل من خلالها مع الواقع التاريخى ، وهذا البناء ــ الذى أفرزه الجتو لأسباب بيناها بايجاز ــ قد وصــل الى درجة قصوى من التكلس والانفصال عن الواقع بسبب شذوذ الصهيونية البنيوى ، وهى أخيرا ايديولوجية ليس لها ديناميكية خاصة مستقلة ، وانما هى ايديولوجية تابعة للامبريالية العالمية (وليهود الدياسبورا) مما يزيدها انفصالا عن الواقع الذى تتعامل معه ومما يزيد من دورانها حول نفسها . لكل ما تقدم يمكنـــنا القول أن الصـــهيونية حالة كلاسيكية من حالات الوعى الزائف لابتعادها الكامل عن اى واقع تاريخى سواء فى تنظيرها أم فى ممارستها .

ولكن السؤال يطرح نفسه على الفور كيف تتأتى لهذا الوعى الزائف ان يفرض نفسه على الواقع العربى ، هــذا سؤال تطول الاجابة عليه ولكن يمكننا أن نثير بعض التحفظات المبدئية :

أولا : يجب أن ننبه الى أن الدولة اليهودية التى أقيمت تختلف اختلافا بينا عن دولة الحلم الصهيونى بمعنى أن النتيجة الفعلية مختلفة الى حــد كبير عن النبوءة الزائفة (وهذه هى احدى وسائل التمييز بين الوعى الزائف والوعى الحقيقى) ، فالوعى الحقيقى يستند الى حقائق ويطرح تنبؤات تثبت الممارسة صدقها أما الوعى الزائف فيســتند الى أحلام وتهيؤات ويطرح تنبؤات تثبت الممارسة كذبها) فدولة اسرائيل لا تزال دولة أقليـــة ويهود الدياسبورا هم الأغلبية الساحقة ، كما أنها الدولة الوحيدة ء العالم التى تثار فيها مشكلة « من هو اليهودى » ؟ وهى الدولة الوحيدة أيضا التى توجد فيها انقسامات بين اليهود ، كما أنها لم تحقق الأمن ولا الطمأنينة لا ليهود اسرائيل ولا ليهود الدياسبورا ، كما أنها لا تزال دولة جتوية هامشية تعيش فى منطقة تلفظها تعتمد على اعانات يهود الدياسبورا والامبريالية العالمية . ويمكننا أن نستمر فى حشد التفاصيل ولكن ما سبق يكفى لايضاح ما نقصد اليه ــ أن نجاحا ما قد تم ولكنه نجاح فى التفاصـــيل والجزئيات وليس فى الكل .

ثانيا : يجب أن نميز بين جدل الصهيونية وجدل الامبريالية العالمية فهــذا التمييز سيســاعدنا على فهم الكثير من الحقائق عن « انجازات » الصهيونية والوعى الزائف . فمن الثابت تاريخيا أن تاريخ الحركة الصهيونية هو تاريخ فشل ذريع حتى أوائل القرن الحالى حين تحركت الامبريالية العالمـــية تحت ضغط الثورة العربية فى اتجاه الصهيونية ومنحت الصهاينة وعد بلفـــور . وحينما تحرك العرب مرة أخرى فى الثلاثينيات والأربعينيات تحركت الامبريالية وحاولت بشكل متخاذل ايقاف الهجرة اليهودية . ويمكننا أن نقول أن القانون الذى يحكم ديناميكية الضـغط الامبريالى فى المنطقة هم العرب وليس اسرائيل، فاذا ضغط العرب ضغطا جزئيا متخاذلا على الامبريالية تحركت الامبرياليـــة لصالح اسرائيل التى تقدم نفسها على انها الدولة العميلة القادرة على حسم كل التناقضات لصالح الامبريالية (وهى بالفعل قـــادرة على ذلك اذا كانت التناقضات فرعية ضعيفة) . اما اذا تحرك العرب حركة كلية قوية فـــان

الامبريالية ستتحرك حركة مضادة لاسرائيل (وهذه هي احدى دروس ٦ أكتوبر التي نرجو ان يوفق العرب في اثباتها) .

وتاريخ الهجرة الصهيونية هو ايضا تاريخ فشل مضحك . فعدد المستوطنين اليهود في فلسطين حتى عام ١٩٣٣ كان يبلغ ١٧٤ الف وحسب أي ١٦٪ من عدد السكان . فاذا استثنينا من هذا العدد ٣٠ الف يهودي كانوا موجودين قبل بداية الهجرات الصهيونية عام ١٨٨٢ اكتشفنا ان الحركة الصهيونية نجحت في تهجير حوالي ١٣٠ الف يهودي في ٥٠ عام أي حوالي ثلاثة آلاف يهودي فقط لا غير كل عام ، في وقت كان يبلغ فيه يهود العالم حوالي ١٦ مليون . هذا وقد هاجر في الفترة نفسها حوالي خمسة مليون يهودي الى الولايات المتحدة هجرة لم يقم أحد بتنظيمها ايديولوجيا او اداريا ولم يرتفع عدد المستوطنين اليهود في فلسطين الى ٦٠٠ الف عام ١٩٤٨ الا بسبب هتلر ، أي أن الزعيم النازي الالماني انجز في خمسة عشر عاما اضعاف اضعاف ما انجزته الحركة الصهيونية طيلة تاريخها المجيد . وحتى بعد الاسهامات الهتلرية يظل يهود اسرائيل هم الاقلية القصوى . ويقول أعلان بيرة شيفر في تليفزيون الولايات المتحدة أن يهود نيويورك يبلغ عددهم ضعف يهود اسرائيل وان معظمهم يشرب بيرة شيفر والعهده على الراوي الاستهلاكي !

ثالثا : يجب الا نتصور بأية حال أن قصور العرب وضعفهم هو قوة اسرائيل الذاتية ، فالغزوة الصهيونية كانت مفاجأة للجميع . فالصهاينة هم افراز مجتمع صناعي ، جاءوا مسلحين بقيم اخلاقية صناعية وادوات فتك متقدمة فغزوا مجتمعا زراعيا لا يزال يعيش داخل اطار القيم الزراعية التقليدية في تمسكها بمفاهيم الخير والشر والثواب والعقاب ويستخدم اسلحة الجيش العثماني . فنجاح الصهاينة يعود الى عدم استواء التقدم التاريخي والى قصور العرب ، وهو عدم استواء وقصور بدأ العرب سواء في فلسطين أم خارجها في التنبه اليه (وهذه هي احدى دروس ٦ أكتوبر الجانبية) .

ملاحظات اخيرة وتنبؤات

لكن اذا كان الاسرائيليين واقعين تحت وطأة الوعي الزائف الصهيوني منفصلين عن الواقع ويتحركون داخل اطار السيناريو الصهيوني الذي كان يدعي انه يتحرك بخطى حثيثة نحو السلام ، فكيف يمكن ان نتوقع منهم الاستجابة لما حدث في ٦ أكتوبر . فالوعي الزائف قادر على استيعاب الضربات لانه غير قادر على تفهم الواقع كحقيقة قائمة وكامكانية كامنة وكمجموعة من التناقضات المترابطة المتفاعلة مع بعضها البعض ، وانما ينظر له على انه جزيئات متناثرة منفصلة لا علاقة للواحدة بالأخرى .

وهذا التصور يشجع على العنف لانه يزين للمرء الرغبة في حسم الموقف عن طريق استيعاب أو تصفية الجزئية المسببة للصداع . وتاريخ الصهاينة والاسرائيليين هو تجسيد لهذا الجانب من الوعي الزائف ، فهم دائما ينظرون للارض الفلسطينية على انها شيء منفصل عن وعي الشعب الفلسطيني ، الذي حولوه بدوره الى مجموعة من الافراد منفصلين بعضهم عن البعض

وليس كيانا انسانيا حضاريا متكاملا ، وهم « مجموعة من الافراد » لا علاقة لهم بما يسمى بالشعوب العربية ، وهذه الشعوب اصبحت شيئا متخلفا منفصلا عن مسار التاريخ ولذلك فهى مكتوب عليها التخلف الازلى . وفى هذا الاطار الذى جزأ الواقع وبعثره وعزل المتغيرات الواحدة عن الاخرى سلب الاسرائيليون الارض الفلسطينية وطردت الجزئية الفلسطينية المسببة للصداع ، ولكن هذه الجزئية ليست شيئا منعزلا ولذلك صمد الفلسطينيون وحاربوا ومن بعدهم ومن خلفهم الشعوب العربية ، ولكن حركة الواقع العربي زادت الاسرائيليين شراسة وانتقلت الدائرية من مرحلة السكون الى مرحلة الحركة الشرسة ، ولكنها مع هذا حركة دائرية ، واذا ما نظرنا الى استجابة النازى للضغوط الخارجية نجد مصداق ما نقول (والمقارنة بين سلوك اسرائيل والمانيا النازية مقارنة مفيدة للغاية لان كليهما بنيان شاذ فريد وافراز للوعى الزائف) . كانت الهزائم تلحق بالنازيين من كل جانب وبدأت نسبة الهرب من الجيش ترتفع ، بل وبدأ بعض الجنرالات النازيين يثيرون الشكوك بخصوص السياسة الهتلرية التوسعية ، ولكن الدائرة النازية المتحركة المنتشرة استمرت فى حركتها وانتشارها بغض النظر عن الثمن (ومعركة الأردين مثل ما نقول) . وهذا أمر طبيعى للغاية فالوعى الزائف وعى فقد ذاته وعقله تسيطر عليه الكم (ضم مزيدا من الارض — احراز انتصارات لا هدف لها — التقدم من خلال اى ثغرة) فكيف يتأتى لهذا الوعى أن يتوقف وهو قادر على الانتشار وحسب « وان لم ينتشر يمت » (كما قال ماركس عن الراسمالى) . كل هذا حقيقة ولا شك وكما قلت من قبل ان فهم سلوك النازى سيساعدنا على استخلاص القوانين التى تحكم الوعى الزائف وبالتالى تؤدى الى فهم اعمق لاسرائيل . ولكن القوانين فى الظواهر التاريخية لابد وان ترقى الى مستوى العام والمجرد وان تهبط فى الوقت ذاته الى الخاص والمحلى ، ولذا فرغم ايماننا أن القوانين التى تحكم دينامية النازية هى نفسها القوانين التى تحكم دينامية اسرائيل الا انه يجب ان نشير الى بعض نقط الخلاف الاساسية التالية :

(أ) رغم أن النازية هى ضرب من ضروب الوعى الزائف الا انها لم تصل فى أسطوريتها الدرجة التى وصلت اليها الصهيونية ، فلم يكن هناك حديث « عن شعب بلا أرض ولا عن أرض بلا شعب » بل كان الحديث عن ضم كل الاراضى التى يقطنها الالمان بالفعل فتحقيق شعار « وحدة الشعب الالمانى » أقل أسطورية من شعار « وحدة الشعب اليهودى » لأن الشعب الالمانى مقولة تاريخية وليس مقولة نظرية مثل الشعب اليهودى . ولعل بعد المسافة بين الشعار الصهيونى والواقع العربى هو الذى يفسر لم يلفظ الواقع الصهاينة بكل هذه الحده مما يضطرهم دائما الى اللجوء لقوة خارجية مثل الامبريالية العالمية أو يهود الدياسبورا . وهذه الحركة نحو الخارج هو ما يسبب استمرار الشذوذ البنيوى الذى اشرنا آنفا ، وهو شذوذ تنفرد به الصهيونية دون النازية ويضعفها من الداخل ويجعل الواقع يقتحمها من آونة لاخرى .

(ب) تأخذ الصهيونية والنازية شكل دائرة اما فى حالة سكون تام (النظام الايديولوجى) أو فى حالة حركة (النظام السياسى والعسكرى) . وقد نجحت النازية فى تحقيق الدائرية المطلقة بأن قضت على اليهود والغجر وكل الاقليات

غير الآرية ، كما أنها من الناحية الثقافية بعثت الفلكور الالماني والتراث الالماني واحاطت المواطن الالماني من كل جانب بذاته الالمانية،على العكس من هذا نجد أن البناء الصهيوني في اسرائيل لم يحقق الدائرية من الناحية النفسية أو الحضارية . فكل شيء في فلسطين هو تأكيد بأن الصهاينة رغم كل احلامهم الفاشية لم يصلوا الى دائرية النازية ، فآثار فلسطين ومنازلها بصمات العرب، والاقلية العربية التي تتزايد هي الاخرى تذكرة للصهاينة بأن الدائرة ليست عضوية ولا نقية .وحينما ينظر الصهاينة الى أنفسهم يجدون أن أكثر من نصف سكان اسرائيل من اليهود من أصل عربي أي أن جرثومة الجدل التاريخي موجودة في روحهم ذاتها ، ولنضف الى هذا كله الوجود العربي التاريخي الهائل المحيط باسرائيل . من هذا كله يمكننا أن نستخلص هذا الفارق المبدئي بين البنائين النازي والصهيوني ، فالبناء النازي حقق الاستقلال الاقتصادي والحضاري والنفسي شبه الكامل ولذلك وصل الى الدائرية شبه الكاملة، أما البناء الصهيوني فهو في حالة اعتماد دائم ومذل على الامبريالية وعلى الدياسبورا من الناحية الاقتصادية ، كما أنه حضاريا ونفسيا لم يحقق النقاء المطلوب ، بل عليه أن يتعامل مع واقع غير يهودي .

(جـ) كانت الايديولوجية النازية ايديولوجية تفوق وحسب ، مبنية على احساس عميق بعظمة وانتصار الانسان الآري ، أما الايديولوجية الصهيونية الجتوية فهي مبنية على الخوف وعلى التلويح دائما بالابادة المرتقبة وعلى التأكيد بان اليهود هم الضحايا الطبيعيين للعنف الغربي والعربي . أن النازية لم يكن عندها عقدة خوف ولا عقدة أمن ، وهذا اختلاف كيفي عن الصهاينة.

يتلخص الاختلاف في أن دائرية النازية كانت كاملة عدوانية أما دائرية الصهيونية فهي ناقصة مترددة ، وفي هذا الاطار الوجداني التاريخي المتعين حدث العبور في ذلك اليوم المجيد في السادس من اكتوبر ١٩٧٣ ، وبناء عليه يمكننا أن نتصور مدى عمق أثره على البناء الصهيوني الصلب الهش. وعلى الرغم من كل التشدد والتعنت اللفظي الذي انتاب الاسرائيليين توجد عدة مؤشرات امبريقية يمكن أن نضعها في اطارها النفسي التاريخي ونستخلص منها الصورة الواقعية ، فالمواطن الاسرائيلي في اليوم الثاني من الحرب قرأ عن حركة التغيير بين الجنرالات ، وفي اليوم الثالث قرأ عن معونة أمريكا التي وصلت الى ٢٦٠٠ مليون دولار ، ثم سمع بعد هذا هرطقة بنحاس سابير ضد الرمز البشري المتجسد لتفوق اسرائيل العسكري اعني موشى ديان ، بل ان هذا الوزير المغمور تجرأ وطالب باستقالة ديان . وقد نجحت الوزارة الاسرائيلية في تقديم واجهة نظيفة نسبيا ، ولكن شعبية شارون التي تزايدت وتلقيبه « بملك اسرائيل الجديد » تشير الى اهتزاز الدائرة القديمة وبداية البحث عن دائرة جديدة . ورغم أن الصحافة الاسرائيلية تمجد المواطن الاسرائيلي تفوقه وتفوق جيشه الا أنه ولا شك قرأ الكثير عن لجنة التحقيق لبحث وتقصي أسباب عدم اكتمال الاستعداد العسكري عند نشوب الحرب ، والانسان عادة لا يشكل لجان تحقيق بعد النصر . وتزداد الدائرة انفراجا رغم أنها حينما توزع وزارة التعليم الاسرائيلية نشرات وكتبا لتعويد الاطفال على « دولة اسرائيل أصغر » . ولابد وأن المواطن الاسرائيلي كان يقرأ عن الدول الافريقية التي قطعت علاقاتها باسرائيل أثناء الحرب الواحدة تلو الأخرى ، ولابد وأنه عرف أن اليابان بل ودول أوروبا تطالب

بتحقيق العـدالة وارجاع الحقوق لأصحابها ، هو الذى كان دائمـا على يقين من العدل والحق فى جانبه . ويزداد تصاعد الجدل فيفاجأ بالعرب فى الأراضى المحتلة هؤلاء الذين قد ظن انه قد قضى عليهم يفاجأ بهم يقاطعونه بل ويعتدون على الحاكم العسكرى فى نابلس ، وتتصاعد العمليات الفدائية لتثبت لكل من هو داخل الدائرة ان الدائرة انما هى اكذوبة واضحوكة ووعى زائف. بل أن هناك اصواتا فى الصحافة الاسرائيلية تردد نفس الشىء (كما جاء فى مقال الاستاذ حاتم صادق فى **الاهرام** فى ٢٧ نوفمبر)فها آرتس تقرر أنه بعد الانتهاء من التحقيقات البرلمانية المختلفة وبعد أن يدان من يستحق الادانة يجب التذكر « بأن الشعب كله قد اخطأ » بمعنى أن الشعب كله ضـحية أوهامه عن نفسـه ، ويؤكد امنون روبنشتاين نفس الشىء حينمـا يذكر الاسرائيليين بان توهم لها حدود « وان التصورات القديمة عن عدم وجـود الآخرين هى تصورات لا اساس لها من الصحة » . ويلخص شبتاى طيفت احدى قوانين الواقع التاريخى للشعب الاسرائيلى حين يقول :

« كلما قويت ضربات جيشنا ، كلما قوى انشداد العرب الاصرار عـلى تنمية قوتهم ومنازلتهم لنا » أى ان الواقع ليس جزئيات ميتة متناثرة ، كما يظن الوعى الزائف الصهيونى ، وانما هو كل تاريخى حى .

ولكن أهم من هذا كله لابد وأن هذا المواطن الاسرائيلى قد قرأ برنامج حزب المابام لحل المشكلة الفلسطينية بافساح المجال أمام اقامة دولتين مستقلتين، وهو البرنامج الذى يعارض انشاء مستعمرات دائمـة فى الاراضى العـربية المحتلة بعد ١٩٦٧ بخلاف تلك التى تخدم اهداف الامن . وقد يقال ان هـذا هو برنامج المابام منذ قيام الدولة يتحرك تدريجيا نحو اليمين مع حركة الحياة السياسية فى اسرائيل ، ولكن الرد على هذا أن مثل هذا البرنامج يكتسب ابعادا جديدة ورنة صدق فى عام الانتخابات وبعد ٦ أكتوبر ،بمعنى أن السياق الذى يطرح فيه هذا البرنامج سياق جديد مختلف عما سبق مما يكسبه شيئا من الجدية والجدة .

كل هذه الحقائق ولا شك قد تركت اثرها على الاسرائيليين ولكنهم مع هذا يقبعون داخل دائرة الوعى الزائف يهزهم الواقع برقة فى شكل طائرة اسرائيلية يخطفها الفلسطينيون أو يهزمهم بعنف فى شكل سقوط حائط منيع ظنوه اساسا منيعا لأمنهم . ولكن اهتزازهم بـرقة أو بعنف لا يخرجهم من دائرة الوعى الزائف الامر الذى يضاعف من مسئوليتنا ، فمن الواضح أن اسرائيل هى «كالشىء» قادرة على الانتفاخ والانكماش والاهتزاز ولكنها غير قادرة على حل المشكلة العربية الاسرائيلية . فتاريخها الحافل بالانتصارات العسكرية هو ايضا تاريخ فشل فى تحقيق الاستقرار فى المنطقة . وهذا أمر طبيعـى لان اسرائيل هى عضو دخيل وجزء غريب على الكل العربى ، والجزء لا يمكنه أن يحدد قانون الكل . لهذا فنحن وجدنا القادرون على تقديم الحلول ، مما يدعونا الى التفكير فى توظيف انتصار ٦ اكتوبر بطريقة ذكية وخلاقة من اجل تحقيق السلام فى المنطقة ومن اجل حسم النزاع فى صالح العرب بل وفى صالح الاسرائيليين أنفسهم من وجهة نظر انسانية والا تحول الانتصار الى مجرد انتشار على الطريقة الاسرائيلية ، وتحول الحدث التاريخى الرائع الى مجرد واقعة محايدة تستغله اسرائيل لصالحها . واعتقد أنه يمكن توظيف انتصار ٦ أكتوبر فى صالح السلام الحقيقى على النحو التالى : —

(أ) يجب أن يكون هدفنا هو تعميق التناقض بين اسرائيل والامبريالية حتى يتأكد الاسرائيليون من زيف انتصاراتهم التاريخية التى تمت بمعاضدة الحكومات الغربية.ويمكن انجاز هذا بأن تنشط البنيان العربى بكل تناقضاته فى مقابل البنيان الصهيونى ، وبهذا تصبح التناقضات داخل البنيان العربى ميزة وليس عيبا ، نقطة تفوق وليس نقطة قصور .

(ب) يجب أن يواكب هذا الضغط العربى اعداد للقوة العسكرية العربية حتى يعلم الاسرائيليون أن ٦ أكتوبر هو القاعدة وليس الاستثناء (كما تحاول القيادة الصهيونية ايهامهم) . واذا ترسخ هذا اليقين فى نفوس الاسرائيليين قد يصبح من الممكن أن ينضجوا انسانيا وتاريخيا ويتعلموا أن واقعهم الوحيد هو الواقع الفلسطينى العربى .

(جـ) يجب أن يصاحب كل هذا طرح تصورات ذكية لحسم الصراع من جذوره آخذين فى الاعتبار كل متغيرات هذا الصراع (والا سقطنا انفسنا فى هوة الوعى الزائف) وأحدى هذه المتغيرات الجديدة هو الوجود الانسانى الاسرائيلى فى فلسطين المحتلة . هذا الوجود محاصر داخل البناء الصهيونى الشاذ ، وهو بناء آخذ فى التآكل مما يجعله يحاول بشراسة السيطرة على الجماهير الاسرائيلية ، والصهيونية — شأنها شأن أى ايديولوجية — تربط مستقبل العالم بمستقبلها ، فهى قد ادخلت فى روع الاسرائيليين أن امنهم لن يتحقق الا داخل الدولة اليهودية ، أى أن فكرة الأمن طرحت بشكل يربط أمن الدولة الصهيونية بأمن الانسان الاسرائيلى وبالعكس . وقد سقطت الجماهير الاسرائيلية بسهولة فى قبضة الصهاينة لاسباب عدة لعل من أهمها عدم وجود برنامج عربى يطرح قضية أمن الاسرائيليين كتجمع بشرى منفصلا عن أمن الدولة (وفى هذا سقوط غير واع من جانبنا فى هوة البانثيزم الصهيونية التى تربط بين الشعب والله والارض والدولة) . وقد اثبتنا للاسرائيليين فى ٦ أكتوبر أن الصهيونية غير قادرة على تحقيق السلام ولا الامن له ، ولكن هذه مقولة سلبية يجب أن يتبعها تأكيد حربى بأن العرب وحدهم هم القادرون على ذلك بشكل ايجابى ، والا تحول وعى الاسرائيليين بالفشل الصهيونى فى تحقيق الامن الى مزيد من الشراسة والعنف والاحتضان لشعارات صهيونية مثل « لا خيار » « ولا مناص من الحرب » . لذلك اقترح طرح شعار جديد يؤيد الاعتراف بالاسرائيليين كوجود انسانى دون الاعتراف باسرائيل ككيان لا تاريخى عنصرى يستبعد الفلسطينيين وينكر وجودهم . وهذا الطرح الجديد لا يختلف كثيرا عن شعار فتح الخاص بالدولة العلمانية فى فلسطين وان كان يتميز عليه فى رأيى انه أكثر تعينا وتحددا وشجاعة . بهذا نكون قد عرضنا حلا جذريا جدليا للمشكلة يستوعب افرازات الوعى الصهيونى الزائف ولا ينكرها (المجتمع الاستيطانى الاسرائيلى فى فلسطين) ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يستسلم لهذه الافرازات على انها أشياء مسلم بها وحقائق نهائية بل يحيط بها ويستوعبها ثم يتخطاها الى رؤية تاريخية رحبة فيها تكامل ووعى حقيقى بمسار التاريخ فى المنطقة وهو أساسا تاريخ العرب ..

حرب أكتوبر
وديناميات الصراع السياسى فى اسرائيل

دكتور على الدين هلال

من المسلم به فى العلوم الاجتماعية ان الصراع هو احد حقائق المجتمع المعاصر ، تختلف أشكاله وتتعدد من حيث طبيعته ومداه وحدته ومدى استمراريته . ويأخذ احيانا شكل العنف فى صورته الاجتماعية والسياسية ، ولكن جوهره هو الصدام بين قوتين او ارادتين — او اكثر — حول المصالح والقيم والأهداف والمعايير ، ويتفق اغلب الباحثون ان المدخلات المتصارعة فى التطور الاجتماعى لعبت دورا اساسيا كمصدر للحركة الاجتماعية والتغير فى المجتمع ومن هنا اهمية دراسة ظاهرة الصراع فى المجتمع ودراسة التطور الاجتماعى والسياسى من منهج ينظر للمجتمع كحقيقة حركية متطورة ويضع مفهوم الصراع — بأشكاله المتعددة — كأحد مقوماته الاساسية(١) .

والحياة السياسية فى المجتمع الاسرائيلى ليست استثناء من هذه القاعدة لكن الصراع يأخذ فيها خصوصية لابد من اخذها فى الاعتبار عند دراسة اثار حرب أكتوبر على ديناميات الصراع السياسى وهى ما نسميه **بالجمع بين التعددية والوحدة** فى عملية الصراع الاجتماعى والسياسى على المستويين والفكرى المؤسسى ، فالنظره السطحية للمجتمع الاسرائيلى تعطى الانطباع بأنه مجتمع تعددى يتنازعه العديد من التيارات الفكرية والاحزاب والتنظيمات السياسية وجماعات المصالح داخليا وخارجيا ، لكن نظره أكثر تعمقا تكشف عن الوحدة الاصيلة التى تستتر خلف هذا التعدد الشكلى فعلى المستوى الفكرى مثلا نجد أنه رغم تعدد — بل وتناقض — الروافد الايديولوجية للفكر الصهيونى (الدين اليهودى ، والنظريات القومية ، الفكر الرأسمالى البورجوازى ، الفكر العنصرى ، بعض افكار الاشتراكية الخيالية (٢) . الا أن كل هذه الروافد استخدمت لاثبات حقيقة محورية واحدة وهى « حق الشعب اليهودى فى العودة الى ارض الميعاد » وعلى

---

(١) فى مفهوم الصراع بصفة عامة انظر :

L. Coser, **The Function of Social Conflict** (New York, 1956) ; R. Dahrendrof, **Conflict in Industrial Society** (Stanford, 1956);

فى علم السياسة انظر :

P. Conn, **conflict and Decision — making** (New York, 1971), pp. 1 - 7;
R. Dahl, **Modern Political Analysis** (New Jersey, 1963), pp. 14 - 34 and H. Eckstein, ed., **Internal war** (New York, 1964).

(٢) د. سعد الدين ابراهيم : **فى سوسيولوجية الصراع العربى الاسرائيلى** (بيروت ، ١٩٧٣) ، ص ٦٨ — ٧٣ .

المستوى المؤسسي السياسي نجد العديد من الاحزاب المتصارعة فيما بينها، المتشابهة حول البرامج والأهداف ، ولكن الصراع بينها له حدود لايتجاوزها ولا يخرج عنها وهو الاطار الصهيوني . التعدد اذن لا يحمل معه في الحقيقة تعددا للمذاهب السياسية والاجتماعية بمعنى الرؤية الشاملة للحياة والكون بل تتم الخلافات في اطار الفكرة الصهيونية الاساسية .

بعبارة اخرى يمكن أن نصف ما يحـدث في اسرائيل بعملية « **تجميد الصراع السياسي والاجتماعي** » أو فرض حالة ثبـات وتوازن سـياسي واجتماعي مصطنع على واقع اجتماعي واقتصادي متغير ، أو أن الصراعات التي يسمح لها النظام السياسي بالتعبير عن ذاتهـا لا تعكس التحولات الكيفية في بنية المجتمع وتكوينه الاقتصادي والاجتماعي والاثني . من هنا لاحظ الباحثون التناقض الذي يشهده المجتمع الاسرائيلي عبر الخمسـة والعشرين سـنة الماضية بين تغير اقتصـادي واجتماعي سريع ومركز انعكس على الايدولوجية السائدة والقيم الاجتماعية المتواضع عليها(٣) ، واستقرار سياسي وحكومي واسـتمرار قيادي ففي ربع قرن لم تشهد اسرائيل سوى أربع رؤساء وزاره (دافيد بن جوريون ، موشي شاريت ، ليفي أشكول ، جولدا مائير) وخمس وزراء دفاع (دافيـد بن جوريون ، موشي شاريت ، بنحاس لافون ، ليفي أشـكول ، موشي ديان) وثلاث وزراء خارجية (موشي شاريت ، جولدا مائير ، أبا ايبان) كما لوحظ ثبات السلوك السـياسي للناخبين من حيث طريقة تصـويتهم في الانتخابات العامة(٤) .

النتيجة التي نخلص اليها من هـذه المقدمة السريعة هي وجود نخبه حاكمة قوية تسيطر على صناعة القرار السياسي وتؤثر على مساره الأمر الذي يخلق وحده تستتر خلف التعدد الشكلي والتنظيمي الذي يبدو لأول وهله . ما هو اذن اثار حرب أكتوبر على هذا الوضع وكيف نفسر الصراعات السياسية التي انفجرت على سطح المجتمع والتي تمثلت في تبادل الاتهامات بين قادة الجيش ورجال السياسـة ؟ نركز في هذه الدراسة على الصراعات التي حدثت بين صفوف النخبة الحاكمة في **الفترة التي تلت وقف اطلاق النار مباشرة** : (أكتوبر — نوفمبر ١٩٧٣) ويمكن تصنيف هذه الصراعات من حيث مصدرها الى نوعين أساسيين :

---

(٣) انظر في هذا التطور :

S.N. Eisenstadt, **Israeli Society** (New York, 1967) ; J. Matras, **Social change in Israeli Society** (**Chicago**), 1965.

من ناحية تغير الايديولوجية والقيم انظـر :

L. Seligmon **leadership in a New Nation** (New York, 1964) ; A. Arian, **Ideoosqical change in Israel** (Cleaveland, 1968).

باللغة العربية أنظر عرضا ملخصا لهـذا التطور في مقال السيد يسين بالاهـرام ٢٤ نوفمبر ١٩٧٢ .

(٤) Arian, op. cit., p. 23; Matras, op. cit., p. 86 and A. Arian, **How Israelis Vote** The Jerusalem Post Magazine, August 31, 1973.

اولا : قضايا مصدرها المعارضة :

وتتحدد هذه القضايا فيما يلى :

١ — قضايا متعلقة بنتائج حرب أكتوبر مثل قضية تبادل اسرى الحربه والمطالبة بالاسراع فى عملية التبادل ، وحاولت احزاب المعارضة الاستفادة سياسيا من هذه النقطة عن طريق المطالبة بالتبادل الفورى للاسرى وبالفعل اجتمعت لجنة العلاقات الخارجية والأمن بالكنيست لبحث الموضوع(٥) ، كما رفضت المعارضة موقف الحكومة بخصوص وقف اطلاق النار واعلنت جبهة ليكود أن وقف اطلاق النار يعرض أمن اسرائيل للخطر وسيؤدى الى مزيد من الحرب وبالفعل صوت أعضاء الجبهة ضد مشروع القرار فى الكنيست على أساس انه لا يكفل اطلاق سراح الاسرى ولا يكفل انهاء الحصار البحرى على مضيق باب المندب .

٢ — المطالبة باستقالة الحكومة وتكوين حكومة ائتلاف أوتكتل وطنى،فطالبت جريدة يديعوت أحرونوت الحكومة بذلك لتقوية مركزها فى أية مباحثات قادمة(٦) ، وطالبت ليكود الحكومة بالاستقالة نتيجة عدم كفاءتها فى ادارة المعركة واتهمتها بالانصياع للولايات المتحدة ، ووقع ١٢٠ محاميا مذكرة تطالب باقامة حكومة تكتل وطنى جاء فيها أن مثل هذه الخطوة ضرورية للاجراءات الحاسمة والمصيرية التى يحتمل اتخاذها فى المستقبل القريب(٧) ، كما دعا الحزب القومى الدينى الى ذلك . وعبر أورى افنيرى عن ضرورة تشكيل حكومة جديدة لثلاثة أسباب : عدم الثقة فى قدرة القيادة الاسرائيلية الحالية على استغلال الفرصة المتاحة الهامة لتحقيق السلام مع العرب ، وعدم تمثيل الحكومة لاتجاهات الرأى العام الحالية ، وضرورة التحرر من الضغوط النفسية والسياسية لأخطار الأمس وتهيئة الظروف لمناقشة المشاكل الجديدة(٨) .

٣ — المطالبة بتأجيل الانتخابات مثلما دعت الى ذلك حركة الفهود السوداء — لمدة سته شهور — حتى يمكن للجنود الذين ما زالوا على جبهة القتال التعبير عن آرائهم وكذا شلومو لورانس النائب عن حزب أجودات اسرائيل — لمدة عام — لتأثيرها على أعمال الأمن والمباحثات مع العرب(٩) .

ثانيا : قضايا مصدرها المعارضة والائتلاف الحاكم :

وهى مجموعة القضايا التى تتعلق بتحديد المسئولية فيما حدث آخذا فى الاعتبار الثمن المرتفع الذى دفعته اسرائيل فى الحرب من الناحية البشرية

---

(٥) اذاعة اسرائيل ٢ نوفمبر ١٩٧٣ .
(٦) رويتر ٢٩ أكتوبر ١٩٧٣ .
(٧) اذاعة اسرائيل ٤ نوفمبر ١٩٧٣ .
(٨) انظر مقال أورى أفنيرى بعنوان رأس جديد فى هاعولام هزيه بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٩٧٣ .
(٩) اذاعة اسرائيل ٥ نوفمبر ١٩٧٣ .

والعسكرية والاقتصادية فعبرت ليكود عن موقفها فى بيان لها يوم ٢٤ أكتوبر بأن الحكومة الاسرائيلية « قد فشلت فشلا ذريعا فى اتخاذ اجراءات للردع فى فترة الأعياد المقدسة وذلك قبل الهجوم العربى وذلك على الرغم من أنه قد توفر لديها معلومات موثوق بها عن حشود لقوات العدو فى الشمال والجنوب »(١٠) ، وفى داخل الائتلاف الحاكم طالب يعقوب شابيرو وزير العدل فى اجتماع للمجموعة البرلمانية باستقالة ديان متهما اياه بالاهمال الجسيم خلال الأيام الأولى من الحرب الامر الذى جعل الهجوم المصرى والسورى مفاجأة كاملة لاسرائيل كما اتهمه أيضـــا بالتقصير فى اتخـــاذ الاجراءات اللازمة لمواجهة أول موجات الهجوم الامر الذى تسبب فى الحاق خســـائر بشرية جسيمة باسرائيل(١١) ، يرتبط بذلك ما ذكره أبا أيبان من أن « ديان يتحمل مسئولية فشل اسرائيل فى سيناء واننا كنا نعيش فى وهم الدولة القوية منذ عام ١٩٦٧ »(١٢) .

ثم اتخذ الصراع شكلا جديدا بانتقاله الى العسكريين ومحاولة كل منهم تفسير ما حدث من وجهة نظره فالجنرال اريبه شارون انتقد رؤسائه لأنهم أضاعوا الفرصة فى تحقيق النصر لكثرة ترددهم(١٣) ، والجنرال حاييم بارليف تحدث عن عدم استعداد التشكيلات الدفاعية واتهم شارون بالتحيز فى آرائه، والجنرال اسحق رابين طالب بالتحقيق لمعرفة لماذا فوجئت اسرائيل بالمعركة وتبلور هذا الاتجاه فى المطالبة بلجنة تقصى حقائق فطالبت ليكود بتشكيل لجنة علنية لبحث ما وصفه الجنرال العازر وأيزمان بأنه تحذير متأخر جدا للهجوم المصرى (١٤) ، كما دعا شامويل تامير — من المركز الحر — الى تكوين لجنة تحقيق رسمية لبحث كل المسائل المتعلقة بالحرب (١٥) .

ما هى اذن دلالات هذا الصراع ومغزاه ؟

يمكن فى هذا المجال التمييز بين ثلاث مستويات من التفسير :

---

(١٠) الاهرام ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣ .

(١١) الاهرام ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ . نفس الطلب تقدم به ما يسمى بالمجموعة الايدولوجية فى داخل حزب العمل وهى تضم عددا من كبار الضباط السابقين و. أ. ف ٢٧ نوفمبر ١٩٧٣.

وكان الاستاذ / أحمد بهاء الدين قد فسر هجوم شابيرو بأنه يعكس صراع القوى داخل حزب العمل وان الارجح هو أن شابيرو مدفوع الى اتخاذ هـــذا الموقف من قوى أكبر فى الحزب يتزعمها سابير وزملائه — الاهرام ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ . ومن الجدير بالذكر أن شابيرو اعترض أيضا على احتفاظ حاييم بارليف بمنصبه الوزارى أثناء استدعائه للجيش على أساس أن ذلك يتناقض مع اللوائح الحكومية وقد رفضت مائير هذ الموقف وانتهى الامر باستقالة شابيرو فى ٣٠ أكتوبر .

تردد فى هذا المجال أن ديان قدم بالفعـــل استقالته لجولدا مائير ولكنها رفضتها مؤكدة استمرار ثقتها به وعقدت المجموعة البرلمانية للمعراخ والمكتب السياسى لحـزب العمـل اجتماعا مشتركا أعرب فيه بالاجماع عن تأييدهما الكامل للديان عقب اتهامات شابيرو له كما أصدر المكتب السياسى بيانا منح فيه ثقته الكملة برئيسة الوزراء ووزير الدفاع وقالت مائير أن مسئولية الحكومة مسئولية جماعية « واننى لا أسمح بأية ذريعة لكى يتنصل منهـا أى وزير أو يحاول أن يجعل أحد زملائه كبش فداء » اذا عة اسرائيل ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

(١٢) الاهرام ١٢ نوفمبر ١٩٧٣ .

(١٣) انظر ترجمة لحديث شارون لمراسل النيويورك تايمز فى الاهرام ١٠ نوفمبر ١٩٧٣ .

(١٤) ى. ب ٤ نوفمبر ١٩٧٣ .

(١٥) اذاعة اسرائيل ١٧ نوفمبر ١٩٧٣ .

أولا :

احد جوانب هذا الصراع بالتاكيد ذا طابع مهنى فنى بمعنى البحث عن مصدر « سوء الاداء » فى النظام الاسرائيلى ولماذا لم تؤد بعض المؤسسات كالمخابرات العسكرية او جهاز التعبئة دورها بالشكل الذى كان يتوقع منها وبالسرعة المفروضة ، الأمر الذى يترتب عليه تحـديد « من المسئول » اذا كانت هناك ثمه مسئولية محدده أو تحسين بعض الأوضاع التنظيمية أو الادارية بقصد تحسين كفاءة المؤسسات كما حدث فعلا ، بعض المجالات حتى أثناء القتال عندما استدعى بعض الجنرالات الذين كانوا قد خرجوا من الخدمة ، وبعد وقف اطلاق النار حدث عدد من التعديلات من ذلك تقسيم هيئة الأركان العامة بالجيش الى فرعين فرع الأركان العامة ويختص بمهام العمليات والتنظيم والتدريب ويرأسه رحبعام زئيفى ، وفرع التخطيط ويختص بمهام نظام قوات الجيش وتطوير وسائل القتال ويرأسه افراهام تامير ، ويقوم اسرائيل تال مســاعد رئيس الأركان بالتنسيق بين فرعى الأركان العامة (١٦) ، ومن ذلك ايضا اقصاء الجنرال شموئيل جونين من منصبه كقائد للجبهة الجنوبية وتوليه منصبا اقل اهمية وهو قائد منطقة شرم الشيخ الأمر الذى فسر على أنه عقاب له (١٧) ، وتعين البروفيسور يوفال نحمان — عقيـد احتياط — مستشارا خاصا لرئيس المخابرات العسكرية ، وتعيين اهارون أمنون مسئولا عن الاعلام فى الجيش الاسرائيلى بحيث تكون ادارة الاعلام التى يرأسها المتحدث بأسم الجيش الاسرائيلى تابعة له (١٨) ، وتبلور هذا الاتجاه فى قرار الحكومة بتشكيل لجنة تحقيق قضائية — ايد تشكيلها كل وزراء الائتلاف ماعدا وزير واحد وأمتناع وزير الشئون الدينية عن التصويت — وتشـمل مها م اللجنة ثلاث مجالات : المخابرات وتقاريرها قبل اندلاع الحرب وكيفية فهمها من جانب السلطات المدنية والعسكرية ، وحالة الاعداد العامة للحرب فيما يتعلق بالقوات الاسرائيلية بالنسبة لفروعها المختلفة ، واستدعاء وتوزيع — الاحتياطى على مسرح العمليات (١٩) .

ثانيـا :

جانب ثان لهـذا الصراع يـرتبط بالانتخابات العـامة التى تمت فى ٣١ ديسمبر ١٩٧٣ ومحاولة كل حزب اعادة ترتيب أوضاعه ومواقفه تبعا لنتائج حرب اكتوبر ومحاولة كل قوة سياسية القاء اكبر قدر من اللوم على الاطراف الاخرى . ويمكن فى هذا المجال اثارة الملاحظات التالية :

---

(١٦) اذاعة اسرائيل ٢ نوفمبر ١٩٧٣ .

(١٧) الاهرام فى ١٠ نوفمبر ١٩٧٣ .

(١٨) اذاعة اسرائيل فى ١٦ نوفمبر ١٩٧٣ .

(١٩) اذاعة اسرائيل فى ١٨ نوفمبر ١٩٧٣ . من الجـدير بالذكر رأى حاييم لاندو عضـو الكنيست من جحل الذى ذكر أنه بينما يؤيد لجنة تحقيق قضائية فانه يعتقد أن موضوع اخفاق الحكومة بالاسراع بتعبئة الاحتياط هو موضوع يستحق النقاش على المستوى الشعبى وأنه يفضل لجنة تحقيق جماهيرية على تشكيل لجنة تحقيق قانونية . اذاعة اسرائيل فى ١٨ نوفمبر ١٩٧٣ .

١ — قامت استراتيجية حزب العمل من ناحية على اساس تمييع النقاش حول الاسباب التى قادت الى احداث اكتوبر ومحاولة حصره فى الجانبين الفنى والمهنى ، ومن ناحية اخرى طرح نفســـه على انه القوة السياسية الوحيدة القادرة على الخروج بتسوية تحقق الاهداف الاسرائيلية .

٢ — ان احداث اكتوبر ادت بالتأكيد الى اهتزاز هيبة الحكومة الاسرائيلية بصفة عامة والجيش الاسرائيلى بصفة خاصة ويأتى ذلك فى اطار مرحلة حاولت المعارضـــة فيها طرح نفســـها كبديل واستطاعت أن تحقق نصرا تنظيميا فى هذا المجال باعلان جبهة ليكود التى تضـــم جحل والمركز الحر والقائمة الرسمية ، وفى اطار تحولات اجتماعية فيما يمكن وصفه بانخفاض معدلات الولاء الايـــدلوجى فى المجتمع وبـــروز التناقض بين الايدولوجية « العمالية » المعلنة وواقع المجتمع الاقتصادى والسياسى ووجود تحول ايدولوجى وقيمى على نطاق المجتمع بأسره الى ناحية اليمين(٢٠) .

لتحول هذا المجتمع الى اليمين يكفى أن نذكر أن حزب حيروت استطاع أن يضاعف تأييـــده الانتخابى فى الفترة من ١٩٥١ — ١٩٦١ من ٦ر٦٤٪ من الاصوات الى ٧٦ر١٣ من الاصوات ، وفى الفترة ١٩٥٥ — ١٩٦٥ أصبح حيروت ثانى اكبر احزاب اسرائيل فقد حصل فى هذه الفترة على ما يوازى قوة حزبى احدوت هاعفودا والمابام مجتمعين ، وفى عام ١٩٦٥ دخل حيروت فى تحالف مع حزب الاحرار وكونا جبهة جحل التى حصلت على ٢١٪ من الأصوات فى انتخابات عام ١٩٦٥(٢١) .

دعم من هذا التطور تصوير صحف المعارضة للجنرال أريبه شارون على انه بطل حرب ١٩٧٣ وأن دوره فى المعارك كان حاســـما من وجهة نظر اسرائيل (٢٢) ، كان من نتيجة ذلك أن طالبت جبهة ليكود رسميا بعمل استثناء من قانون الانتخابات الذى ينص على أن يترك اى مرشح للكنيست عمله فى الجيش قبل موعد الانتخابات بشهر على الاقل ، لكن يبقى شارون فى الجيش أطول مده ممكنه وبالفعل وافق الكنيست على ذلك فى ٢١ نوفمبر الماضى .

٣ — تشير كل الدلائل الى موقف جبهة ليكود المتشددة تجاه الاراضى المحتلة وقضية السلام مع العرب بالعلاوة على عدم مسئوليتها عن اية اخطاء يمكن أن تكون قد حدثت فى ادارة عمليات أكتوبر ، قد زاد من رصيدها الانتخابى والسياسى .

(أ) فاذا ســاد اسرائيل مزاح عدوانى واتخذت موقفا اكثر تشددا فى مباحثات السلام يكون ذلك فى أحد أبعاده نتيجة لموقف ليكود وسببا لزيادة اصرارها عليه .

(٢٠) Arian, Op. cit. 52.
(٢١) L. Fein, **Politics in Israel** (Boston, 1967), p. 88.
(٢٢) The International Herald Tribute, November, 5, 1973.

(ب) واذا حدث تقدم فى مجال السلام وانسحاب اسرائيل من الاراضى المحتلة يمكن لليكود ان تستغل هذا الموقف وتصوره على انه اذعان لضغط خارجى وفرض لأمر واقع ضـــد مصلحة اسرائيل من قبل الدول الكبرى واستمرار للموقف التاريخى ضد اليهود .

وهكذا يمكن للباحث القول بأن المجتمع الاسرائيلى ربمــا يتجه الى التشدد فى الاجل القصير(٢٣) . فى هذا الاطار يمكن أن نفهم ما نشرته صحيفة هارتس المستقلة من ان جبهة ليكود امامها فرصة للفوز فى انتخابات ١٩٧٣ لانقل عن احتمالات فوز المعراخ وأنه لو أجريت الانتخابات اليوم ــ ٢٥ نوفمبر ١٩٧٣ ــ لحصلت ليكود على ســتة وأربعين مقعدا (بزيادة اثنى عشر مقعدا) وحصلت احزاب المعراخ على ستة وأربعين مقعدا (بنقص عشرة مقاعد)(٢٤) .

والمقارنة بين نتيجة هذا الاستفتاء وما أسفرت عنه نتائج الانتخابات تكشف عن احد خصائص النظام السياسى الاسرائيلى وهى ثبات الاتجاهات الانتخابية للناخبين وقوة النظام الحزبى من حيث سيطرته على الناخبين . يرتبط بذلك ان البرامج التى طرحتها كل من الكتلتين لم تعبر عن الخلافات بينهما ومن ثم تم التصويت على اساس الاشخاص أو الارتباطات الحزبية السابقة ، كما اكدت هذه الانتخابات أيضا الاتجاه العام للنظام تجاه نظام الكتلتين ويدل على ذلك ان القطاع الأكبر من الناخبين قــد فضل اعطاء أصواته لواحدة من الكتلتين الكبيرتين .

ثالثــا :

من الملاحظ أن الصراع السياسى الدائر بين صفوف النخبة الحاكمة الاسرائيلية لا يدخل فى اعتباره كأحد متغيرات المناقشة وجهه اسرائيل أو دورها فى المنطقة أو صيغة التعايش مع جيرانها من الدول العربيــة فالتركيز يدور حول سوء الاداء أو تحديد المسئوليات أو استغلال الاخطاء لأغراض انتخابية وهــذا من شأنه شغل الانظار عن أسئلة أخرى أكثر اهمية ومبدئية ، وهى تلك المجموعة من التساؤلات المتعلقة بالأمن القومى الاسرائيلى وكيفية ضمانه ؟ وهل نظرية الأمن بالشكل الذى تطورت عليه فيما اســـمى بالبنجوريونية ــ وأساسها مفهوم جغراقى للأمن وجوهرها التعامل مع العرب من موقع القوة وفرض الأمر الواقع ــ تحتاج الى اعادة

(٢٣) يؤكد ذلك مثلا نتيجة استطلاع الرأى العام الذى تم فىنهاية أكتوبر ١٩٧٣ بواسطة معهد بحوث العلوم الاجتماعية بالجامعة العربية فقد أعرب ٨٤٪ عن اقتناعهم بأن العــرب لا يريدون سوى تدمير دولة اسرائيل وان لديهم شعورا بأن وقف النار لن يؤدى الى السلام وحول الانسحاب من الاراضى المحتلة أجاب ٦٪ بالموافقة على اعادة كل الاراضى مقــابل سلام مضمون ، ١٢٪ كل الاراضى تقريبا ، ٣٦٪ جزء من هذه الاراضى ، ٣٦٪ جزء صغير فقط ، ١٠٪ بعدم الموافقة على أى انسحاب .

وبالنسبة للانسحاب من مواقع محددة رفض ٩٣٪ الانسحاب من شرم الشيخ ، ٨٧٪ من الجولان ، ٦٣٪ من الضفة الغربية ، ٤٠٪ من سيناء .

(٢٤) و. أ. ف ٢٥ نوفمبر ١٩٧٣ .

النظر والبحث ؟ الصراع الحقيقى والمطلوب اذن ليس حول تحديد المسئولية بالمعنى القانونى والقضـــائى ولكن الحوار الســـياسى حول معنى الأمن ومقوماته .

لقد اخمدت الحياة السياسية الاسرائيلية كل صـــوت من بين النخبة السياسية يحاول أن يفعل ذلك أو اضعفته الى درجة كبيرة . قبل أكتوبر ١٩٧٣ كان اريبه ايلياف السكرتير العام السابق لحزب العمـــل صوتا وحيدا فى اجتماع اللجنـــة المركزية للحزب عنـــدما اقرت وثيقـــة جليلى بخصوص الأرض المحتلة والتى مثلت خطوة أكبر فى مجال تثبيت الوجود الاسرائيلى فى الأراضى المحتلة ، وبلغت درجة الارهاب النفسى والمعنوى حدا أن المعارضين للوثيقة لم يخاطروا بالتصويت ضدها واكتفوا بالامتناع عن التصويت أو بالتغيب عن حضـــور الاجتماع(٢٥) . وبعد أكتوبر كان اسحق بن أهارون السكرتير العام للهستدروت صوتا وحيدا آخر ، اصطدم مع النخبة الحاكمة من قبل بخصوص التفاوت المتزايد بين الفقراء والاغنياء وأثار مشكلة اثرياء الحرب وخاصة بعد ١٩٦٧ ، وفى خطاب له بنيويورك عقب الحرب انتقد بعنف السياسة التوسعية التى ادت الى مزيد من الحرب وسرعان ما طالبت ليكود فى بيان لها باستقالته لأن تصريحاته تضمنت « مدحا للعدو » ولأنه « استهزأ بمن يدافعون عن أمن اسرائيل وبذلك كشف عن عدم المسئولية القومية » ودعت اللجنة المركزية للهستدروت من بين اهارون أن يبلغهم فورا بنسخة كاملة من أقواله وقررت عقد نقاش معه بعد عودته(٢٦) ، وسرعان ما قدم بن اهارون استقالته التى ذكر فيها انه اصطدم طوال السنوات الاربع التى شغل فيها منصبه بعقبات أثارها له حزب العمل والجهازين الحكومى والنقابى الأمر الذى منعه من اتباع سياسة أكثر انصافا للعمال(٢٧) .

ولكن الى متى يخمد الصراع الاجتماعى والسياسى ؟ الى متى يمكن للابنية السياسية والانماط والأساليب التى تطورت فى فترة اليشوف أن تستمر وتفرض نفسها بعد حدوث تغيرات جوهرية فى الهيكل الاقتصادى والاجتماعى ؟ لقد حاولت مجتمعات ونظم أخرى من قبل تجميد الصراع ووقف حركة التاريخ ولكنها باءت بالاخفاق . محاولة جديدة يحاولها المشروع الصهيونى الذى تمثله اسرائيل ولكن لن تختلف نتيجتها كثيرا عن ماقبلها .

---

(٢٥) فى جلسة اللجنة المركزية لحزب العمل اعترض ايلياف على وثيقة جاليلى وقـــرأ كلمة مكتوبة اعترضت عليها مائير ووصفته ساخرة بالمسيح المخلص وأنه أهان زملائه الامر الذى أثار مشادة عنيفة بينهما . انظر تفاصيل الجلسة فى :
The Jerusalem Post September 4, 7, 1973.

(٢٦) اذاعة اسرائيل ٨ نوفمبر ١٩٧٣ .

(٢٧) استقالة بن أهارون فى ١٨ نوفمبر ١٩٧٣ .

نظرية الأمن الاسرائيلي بعد حرب أكتوبر

محمد فيصل عبد المنعم

يمثل الأمن القومي للدولة كافة اجراءات الدفاع والوقاية ضد الاخطار (الداخلية والخارجية) بهدف توفير الحماية لكيانها وهيبتها السياسية ، وصيانة أراضيها وحدودها ضد أى عدوان — مباشر أو غير مباشر — من الداخل أو الخارج ، وذلك على المستويات السياسية والعسكرية والمعنوية والاقتصادية .

الأمن فى المفهوم الاسرائيلى :

للأمن فى اسرائيل مفاهيم مختلفة ، تتراوح بين العوامل الجغرافية والديموغرافية الى المعانى الغيبية المستمدة من التاريخ اليهودى الموغل فى القدم ، والمقترن دوما فى العقلية الاسرائيلية بذكريات الاضطهاد والمذابح والشتات والجيتو ..

وعلى ذلك فان قادة اسرائيل يعزون كل شىء الى الأمن والخلاص : فالحرب والعدوان على الدول المجاورة ضرورات من أجل تحقيق الأمن .

وتحويل المجتمع الاسرائيلى بأسره الى (تجمع للمحاربين) هو من أجل الأمن ..

ومصادرة الأراضى والممتلكات العربية فى فلسطين ، والزج بأهل البلاد فى المعتقلات والسجون واصدار القوانين الجائرة ضد العرب وتقييد حريتهم فى العمل والتنقل ، كل ذلك يتم تحت دعاوى الأمن .. بل أن محاولة ضم أراضى دول عربية ثلاث عقب حرب ١٩٦٧ ، ترجعه اسرائيل ، وبصورة أساسية الى ضمان أمنها وفى هذا يقول « موشيه ديان » عام ١٩٦٩ (١) :

« ان أية تسوية مع العرب — سواء على المدى الطويل أو القريب — يجب أن يراعى فيها عامل الأمن بصفة أساسية — أمن اسرائيل وليس أمن العرب — وأن نضمن فى أى وضع ، سواء بالتسوية أو بدونها ، أن نكون نحن فى مركز أفضل من ناحية الأمن وعلى هذا فان دواعى الأمن تتطلب الا ننسحب من شرم الشيخ وخط مرتفعات الخليل — القدس — الرملة — جنين وكذلك من غزة والجولان » .

---

(١) موشيه ديان — آراء عن الصراع العربى — الاسرائيلى — ١٩٦٩ .

العوامل المؤثرة على وضع الأمن الاسرائيلي :

ويمكن أن نوجـز العوامل المؤثرة على وضـع الأمن فى اسرائيل فى العوامل التالية :

شكل الدولة :

فعلى الرغم من أن الأرض العربيـة التى قامت اسرائيل بالاستيلاء عليها — فى أعقاب الجولة العربية — الاسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨ ، تزيد بنسبة ٦٠٪ مما حدده قرار التقسيم الصادر عن هيئة الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ ، الا أن هذا الوضـع الجغرافى لم يرض أحدا من قادتها أو زعمائها قط .. ذلك الوضع الذى لم يمثل فى نظره أكثر من (رقعة صغيرة من الأرض لا تضم سوى مجموعة من المستعمرات — على حد قول يجال يادين محدودها لا تكفل الأمن ، كما لا تشتمل على أية مصادر للمياه أو المواد الأولية الخ ..) علاوة على الوجود الصهيونى فى قلب الوطن العربى ، غريبا عنه ، يعبر عن ذلك « موشيه ديان » بقوله(١) : « اننا دولة يهودية فى منطقة عربية فى الشرق الأوسط ولكننا لا ننتمى الى هذه المنطقة العربية ، نشعر بأننا أقرب الى يهود ميامى منا الى عرب عمان .. اننا أوربيون ، غربيون ولا ننتمى الى العرب » وكان «ديان» قد أعرب عن ضيقه وضيق ساسة اسرائيل مرارا بهذا الوضع الجغرافى لاسرائيل والذى وصفه قائلا(٢) :

« ان اسرائيل تواجه مشاكل أمن معقدة تعقيدا غير عادى .. فمساحة البلاد لا تتجاوز ٨١ ميلا مربعا .. بينما يبلغ طولها ٤٠٠ ميلا ، ويتركز ثلاثة أرباع سكانها فى منطقة السهل الساحلى الممتد من شمال حيفا الى جنوب تل أبيب — تلك المنطقة التى يبلغ متوسط عرضها ١٢ ميلا ما بين البحر المتوسط وحدود الأردن ، حتى بالامكان مشاهدة الجنود الأردنيين على بعـد مئات الأمتار من مبنى الكنيسـت بالقدس ، كمـا يمكن رؤية مقر رئاسة الأركان الاسرائيلية الواقعة فى السهل الساحلى وذلك من فوق التلال الواقعة على الحدود الأردنية ، هذا علاوة على أن الطرق الرئيسية والسكك الحديدية معرضة للقطع السريع ... ويكاد لا يوجد مكان فى اسرائيل — باستثناء صحراء النقب — لا تبلغه نيران العدو .. » .

القوة البشريـة :

ان اسرائيل بتعدادها الذى لا يتجاوز الملايين الثلاثة ، وعلى افتراض استمرار المعدلات الحالية من المهاجرين اليهود اليها ، لن تتمكن من مواجهة مائة مليون من العرب ، يعيشون فى البـلاد العربية على امتـداد الوطن العربى .

---

(١) موشيه ديان — آراء عن الصراع العربى — الاسرائيلى — ١٩٦٦ .

(٢) Foreign Affairs Magazine, 5 Feb., 1955.

لقد كان التصور الاسرائيلى فى البداية ، أن تلك الدول العربية التى كانت خاضعة للاستعمار فى الاربعينيات ، لن تتمكن من اللحاق بها فى السباق الحضارى علاوة على ما كانت تتوقعه من استمرار التمزق والتشرذم بين العرب[1] ، والواقع أنه لا شئ يثير المخاوف الاسرائيلية بخصوص المستقبل أكثر من التضامن العربى ، الأمر الذى يفسر قول (أبا أيبان) عقب حرب ١٩٦٧ ، من أن قرار الحرب الذى اتخذه مجلس الوزراء الاسرائيلى لبدء القتال يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ قد اتخذ عقب عقد اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر والأردن بعد أن كان الانقسام يسود المجلس قبلها ، كما يؤكد (ايجال آلون) ذلك بقوله « ان قرار خوض الحرب قد اتخذ فى اليوم الأول من يونيو ١٩٦٧ فى مجلس الوزراء ، وقد أملته الاتفاقية التى وقعتها مصر والأردن » .

ويفسر « دافيد بن جوريون » العلاقة بين القوة البشرية اليهودية والأمن ما أعلنه فى الذكرى التاسعة لقيام اسرائيل (١٩٥٦/٥/١٥) :

« ان اسرائيل لا يمكن ان تضمن امنها بدون الهجرة المتصلة .. ان الأمن يعنى المستعمرات واسكان المناطق غير المأهولة فى الشمال والجنوب .. لهذا تتبع الحكومة بالنسبة للهجرة — سياسة ليس لها شبيه فى التاريخ .. أن هناك مبررا واحدا لذلك هو احتياجات الأمن القومى » .

عدم القدرة على الاستمرار :

يتعذر على اسرائيل أن تخوض حربا طويلة الأمد مع العرب ، بسبب قلة الامكانيات واعتمادها على استمرار الدعم الخارجى ، بالاضافة الى ضرورة وضع كافة القوة البشرية الاسرائيلية داخل نطاق عجلة الحرب فور دورانها ، مما يؤدى الى عرقلة الانتاج القومى وازدياد الضائقة الاقتصادية تبعا لذلك ، كلما طال أمد القتال .. وعلى سبيل المثال فان اسرائيل اذا دفعت الى مسارح الحرب بنحو ٣٣٠ الف مقاتل (رجالا ونساء) فان نحو ثلاثة اضعاف هذا العدد — اى مليون — يجب تجنيدهم لخدمة تلك القوات المقاتلة ان ذلك يشكل عبئا ثقيلا — بل فادحا — على مجتمع صغير كالمجتمع الاسرائيلى ..

المعانى الغيبية :

الى جانب هذه العوامل المؤثرة على الوضع الأمنى الاسرائيلى ، فاننا نرى أن مفهوم الأمن فيها يختلط كذلك بالمعانى الغيبية ، ليتخذ شكل قضية تتعلق بالبقاء ذاته يفسرها « دافيد بن جوريون » بقوله[1] :

---

(١) يؤكد هذا التصور الاسرائيلى ما جاء فى مذكرات (حاييم وايزمان) — التجربة والخطأ — « يا قوم .. اعطونا نصف فرصة فقط ونحن نثبت لكم أن حكاية قوة العرب وتضامن العرب ووحدة العرب ، كلها كذب فى كذب .. » .

(١) فى الخطاب الذى ألقاه فى الكنيست — ١٩٥٦/٥/١٥ .

ان كان الدفاع عن البلاد هو من اهم اهدافنا حاليا ، فان ذلك لن يمنعنا عن العمل الخلاق من أجل الخلاص الذى هو هدف اسرائيل النهائى .. ان ولادة اسرائيل هى نتيجة لرؤيا نبوية رائعة معلنة من هضاب القدس .. عاشت هذه الرؤيا آلاف السـنين فى قلوب اليهود .. رؤيا خلاص اسرائيل والانسـانية جمعاء .. اننـا نبنى آملنا وعقيدتنا على صخرة اسرائيل .. ان الدولة والشعب فى اسرائيل وفى خارجها هما قوتنا وعوننا .

نظرية الأمن الاسرائيلى :

انطلاقا من هذه المفاهيم الصهيونية ، وبالنظر الى الرفض العربى لهذا الوجود التوسعى العدوانى الذى يعرض الكيان العربى للضياع والتمزق ، بدءا بثورات الفلسطينيين فى ١٩٢٠ و ١٩٣٦ وانتهاء بالجولات المسلحة بين الجانبين ، بلورت اسرائيل نظرية الأمن الخاصة بها فى النقاط التالية :

١ — **الأرض :** وذلك بايجاد القاعدة الأساسية لاقامة الوطن اليهودى عليها ، قطعة أرض تمثل فى البداية موطىء قدم أو نقطة وثوب .

٢ — **القوة البشرية :** لقد ظل « بن جوريون » يكافح طول حياته من أجل تحقيق شـعاره المعروف « من أجل لاجىء ومن أجل شبر » وذلك باعتبار ان الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ثم اسرائيل فيما بعد هى السبيل الوحيد لوضع المخططات الصهيونية موضع التنفيذ .

يقول « بن جوريون »(١) « ان أمن اسرائيل يتمثل فى الهجرة .. ان مصر لديها ملايين السكان بينما يبلغ عـدد سكان اسرائيل مليونى نسمة فحسب .. ان الهجرة ليست هى وحدها هدف الصهيونية ، بل اننا بحاجة — طاغية اليها من أجل أمننا » .

وبالنظر الى عدم التناسب الكمى بين القوة البشرية اليهودية والعربية ، فقد عملت القيادة الصهيونية على محاولة تعويض الفارق فى الكم بالاهتمام الى أقصى حد بالكفاءة النوعية للفرد اليهودى ، الذى يمثل فى نهاية الأمر قطاعا فى الجيش الاسرائيلى .

٣ — **الحدود الآمنة :** ولما كانت الأرض التى اغتصبتها اسرائيل عام ١٩٤٨ لا تمثل فى نظر قادتها سوى قطعة صغيرة من (أرض اسرائيل) التاريخية التى يزعمون أن الرب قد وعدهم بها ، والتى يرون أنها تزيد كثيرا عن اسرائيل الحالية ، فقد وضعت اسرائيل مبدأ الحدود الآمنة — تلك الحدود التى تصفها رئيسة وزراء اسرائيل « جولدا مائير » بأنها (الحدود التى يمكن الدفاع عنها اذا ما تعرضنا للهجوم مرة أخرى .. حدود تحول دون الهجمات)(٢) .

---

(١) من خطاب دافيد بن جوريون فى الكنيست الاسرائيلى — يناير ١٩٥٠ .
(٢) فى حديث صحفى مع رئيس تحرير مجلة نيوزويك الامريكية — ١٩٧١/٣/٨ .

وكانت تعنى بذلك الحدود التى وصلت اليها اسرائيل فى يونية ١٩٦٧ — على الضفة الشرقية لقناة السويس مع مصر وعلى طول نهر الأردن مع المملكة الاردنية الهاشمية وفوق هضبة الجولان مع سوريا ذلك الوضع الذى يصفه « موشيه ديان » بقوله : « اننا الآن .. وبعد حرب الأيام الستة نرابط على قناة السويس وفوق الجولان ووادى عربة ونهر الأردن للمحافظة على أمن اسرائيل »(١) .

٤ — كفاءة جهاز المخابرات :

وحتى يمكن تأمين الارض والقوة البشرية — المحدودة — والحدود الآمنة فلقد استلزم الأمر كذلك انشاء جهاز مخابرات يتميز بالمرونة والكفاءة ويعتمد على تعدد مصادر المعلومات ، حتى أن هذا الجهاز فى اسرائيل أصبح يمثل شبكة ضخمة مكونة من شعب ثلاث(٢) منفصلة كل منها عن الأخرى ، ويرى الاسرائيليون أن هذا التعدد مفيد تماما باعتبار أن وجود الشعب الثلاثة تحت سقف واحد قد يحول دون المنافسة الايجابية ، كما أن هذا التعدد يضمن حصول الحكومة فى نهاية الأمر على معلومات من مصادر مختلفة غير متأثرة بالآراء والعواطف الشخصية .

ان احد قادة الجيش الاسرائيلى « الكسندر بن حاييم » يعبر عما تعلقة الحكومة الاسرائيلية من اهمية كبرى على كفاءة اجهزة المخابرات للدولة بقوله : « ان خدمات المخابرات هى التى تواصل الحرب دائما ، حتى لو كانت الجهات العسكرية فى حالة هدوء .. ومن المهم أن تعمل هذه الأجهزة فى كفاءة تامة ، وبذلك فقط نتمكن من مفاجأة العدو قبل أن يفعل هو » .

القوة العســـكرية :

تعتبر اسرائيل أن القوة العسكرية أو (الذراع الطويلة القادرة على الردع فى أى مكان) هى الركيزة الأساسية لوضع نظرية الأمن موضع التنفيذ ، وذلك بالمحافظة بصورة دائمة على قوة رادعة (سلاح جوى حديث — مدرعات) قادرة على صد وتدمير الهجمات والجيوش العربية ،

---

(١) ى. ب — ١٩٦٦/٦/٩ .

(٢) وهذه الشعب هى :

— **الموســاد** : وتكلف باستطلاع الموقف الدولى الخارجى والعمل للحصول على الاسلحة من الخــارج .

— **آمان** : ومهمته الاتصال بالملحقين العسكريين فى الخارج والتجسس فى المجــالات العسكرية ، الى جانب مراقبة رجال الصحافة الاجنبية .

— **شاباك** : وتتألف من ٤ ادارات فرعية هى :

١ — ادارة مكافحة التجسس العربى على اسرائيل .
٢ — ادارة التجسس على بلاد أوربا الشرقية .
٣ — ادارة مراقبة العــرب فى اسرائيــل .
٤ — ادارة مكافحة نشــاط المقاومة العربية .

بالاضافة الى ما يجب تحقيقه نتيجـة لذلك من حتمية احراز انتصارات سريعة وخاطفة على جيوش العدو مجتمعة .

وعقب حرب ١٩٦٧ وصل الأمر بزعماء المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الى درجة كبيرة من الصلف والغرور ، نورد فيما يلى نماذج فحسب من تصريحاتهم الكثيرة التى لا يكاد يبلغها الحصر ..

ـــ يصرح « موشيه ديان » ـــ فى لقاء اذاعى يوم ١٩٧٠/١/٢٤ بقوله :

« ان هدفنا هو أن نجعل المصريين يفقدون توازنهم عن طريق انزال ضربات ساحقة بهم من كل نوع حتى يتعذر عليهم ـــ من الناحية العسكرية والنفسية ـــ الاعداد لحرب جديدة » .

ـــ وكان « حاييم بارليف » رئيس الأركان الاسرائيلى الأسبق ـــ قد صرح فى ١٩٦٩/٤/١٩ قائلا « ان تفوقنا على المصريين كبير لدرجة نستطيع فيها الا نرد على قصف مدفعيتهم ، ويمكننا فى ذات الوقت أن تنزل بهم ضربات بالغة القوة ، واننى لا أرى انه هناك اية احتمالات لاستئناف القتال لاننا غير مقتنعين بأنهم (المصريون) يمكنهم القيام بشن هجوم عبر القناة على الاطلاق ، أما فى حالة قيامهم بذلك فأننا سنحتفظ بكل خطوط وقف اطلاق النار ونخلق الضغط الذى يجعل مصر تستخلص انه عن طريق القوة لن تستطيع هى ولا الدول العربية مجتمعة تحقيق اى تقدم » .

ويعلن « عزير وايزمن » ـــ فى ١٩٧٢/٩/٢٨ :

« لكى تصل اسرائيل الى اهدافها يجب ان تقوم قواتنا بتوجيه ضربات بالغة العنف الى الدول العربية ، كما ينبغى الهجوم على الأهداف الحيوية فى مصر وسوريا وليبيا كذلك لأن الأخيرة تعاون الارهابيين (يقصد رجال المقاومة) ، أن بوسع اسرائيل أن تعامل ليبيا بنفس المعاملة التى تلقاها سوريا » .

وعلى هـذا يمكن بلورة الاركان الرئيسـية للاستراتيجية العسـكرية الاسرائيلية فى سياسـة مثلثة : الحرب الوقائية ـــ الردع ـــ التفوق النوعى والتكنولوجى .

تقييم نظرية الأمن الاسرائيلية :

بعد أن قمنا بايجاز مرتكزات الامن الاسرائيلى ـــ قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـــ والتى أعتمدت على عوامل الأرض والحدود الآمنة والقوة البشرية الى جانب الاعتماد على كفاءة أجهزة المخابرات والقوة العسكرية الرادعة ، فمن الطبيعى أن نتوقف برهة لتقييم مدى صلاحية هذه النظرية من واقع مرتكزاتها سالفة الذكر وعلى ضوء معارك الجولة العربية ـــ الاسرائيلية الرابعة التى بدأت يوم السادس من اكتوبر ١٩٧٣ .

فبالنسبة للأرض والحدود الآمنة : أثبتت الاستراتيجية العربية على وجه القطع استحالة اعتماد أمن الدول على أساس مساحة الأراضي والحدود المحصنة ، ذلك حينما قامت القوات العربية المسلحة لمصر وسوريا باجتياز خطوط وقف اطلاق النار ، لتتدفق عبر تلك الخطوط ، مجتاحة فى طريقها تحصينات خط بارليف وموانع قناة السويس خلال ساعات ست اسقطت الحصون والنظرية الاسرائيلية تحت وطأة النيران وحولتها الى أنقاض وأطلال ، الأمر الذى دفع (ج.ف جونز ــ محرر الشئون الخارجية الفاينانشال تايمز البريطانية) ليكتب فى ١٩٧٣/١٠/٢٩ :

« ان خطوط وقف اطلاق النار (الطبيعية) الملائمة التى كانت اسرائيل تعتبرها حدودا آمنة بعد حرب ١٩٦٧ قد انهارت واختفت .. وأصبحت القوات المصرية تقف وجها لوجه أمام القوات الاسرائيلية ، كما أن خط وقف اطلاق النار على الجبهة السورية قد فقد طابع (السهولة) » .

وماذا عن القوة البشرية فى اسرائيل ؟ ان اسرائيل تجد نفسها الآن ــ وبعد السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ــ مضطرة الى تجنيد كل احتياطيها من القوى البشرية رجالا ونساء ، بالاضافة الى استخدام كل مواردها للصمود فى الحرب التى تخوضها الأمر الذى يعنى شللا شبه تام فى مرافق الحياة العامة والخاصة وقلقا دائما يسود كل أسرة على مصير أبنائها فى الجبهة ، يتحولان بصورة تلقائية الى ضغط جماهيرى على الزعامة السياسية والعسكرية لعملها على الاسراع فى وضع حد لهذه الحرب ، حتى ليكاد المرء يتساءل ــ دون تهويل ــ الى كم من الوقت تستطيع دولة كاسرائيل الصمود فى مثل هذه الأوضاع ، مع استمرارها فى الاحتفاظ بمعظم سكانها على الجبهة فى وضع دائم من التوتر لا شك أن له تأثيره البالغ على الحياة فى داخلها من كل الجوانب ، وهذا أمر لا ينبغى علينا ان نقلل من آثره على الاطلاق .

كما أثبتت معارك اكتوبر المجيدة زيف الهالة التى وضعتها اسرائيل ــ ومن فى ركبها من وسائل الاعلام الغربية والصهيونية على اتساع العالم ــ بالنسبة للتفوق الاسرائيلى علميا وتكنولوجيا ، فقد فوجىء العالم بالكفاءة القتالية العالية للمقاتل العربى وبمقدرته على استخدام احدث واعقد اسلحة الحرب الحديثة ، الأمر الذى دفع المعلقين العسكريين العالميين الى الاعراب عن رأيهم فى أن العرب قد لحقوا بأسرائيل فى سباق التكنولوجيا العسكرية ، بل لقد ثبت بشكل واضح أن اسرائيل لم تتمكن قبل الحرب من تقدير كفاءة ونوعية القوات العربية (المصرية والسورية) التى دخلت القتال بمستوى جيد من التدريب القتالى ، اعترف بها الجنرال حاييم بارليف ذاته الذى أعلن فى ١٩٧٣/١١/٢ بأن المقاتلين المصريين حاربوا فى أكتوبر ١٩٧٣ بدوافع وطنية وفعالية أكثر من أى وقت مضى ، وأضاف : « واننى لا أستطيع ان اقلل من القدرة القتالية للمصريين فى الحروب السابقة .. فقد كانت صفوفهم متماسكة دائما صعبة التفتيت ، ولكنه فى هذه الحرب الأخيرة ، كانوا أكثر جسارة واكثر تصميما وكانت روح الفداء لديهم لا نزاع فيها .. بل وصلت الى حد المخاطرة » .

وفى مجال المخابرات : فلقد ثبت عجز أجهزة المخابرات الاسرائيلية عــن تفسير ومعرفة كنه الاستعدادات المصرية قبيل نشوب القتال ، لقد فوجئت اسرائيل تماما بالهجوم العربى — كنتيجة حتمية لعجز أجهزة مخابراتها — مما دعا « توماس شيتهام » — مراسل اليونايتدبرس ليكتب من تل أبيب فى ١٩٧٣/١٠/١٢ :

« ان القوات المصرية والسورية قد امسكت بالقيادة الاسرائيلية وهى عارية الأمر الذى لم تستطيع ازاءه القيادة الاسرائيلية تعبئة قوات كافية من الاحتياطى لمواجهة الموقف الأبعد ثلاثة أيام ، لقد كان الرأى العام الاسرائيلى نائما على الاعتقاد بأن أجهزة مخابراته هى الأكفأ وأن جيشه هو الأقوى .. والآن يريد الرأى العام الاسرائيلى أن يعرف ... ما الذى حدث بالضــبط ولماذا .. حتى أن السؤال الذى يتردد على كل لسان فى تل أبيب الآن هو (لماذا لم تعرف القيادة الاسرائيلية بخطط مصر وسوريا مسبقا ؟) .

أما صحيفة الأوبزرفر البريطانية فتكتب — فى ١٩٧٣/١٠/١٣ :

« كان جهاز الدفاع الاسرائيلى يعتمد على مخابرات قوية وعلى رد توقعى مضاد ولكنها أخفق فى هذه المناسبة فى تفسير الحقائق التى (كادت تتحملق فى وجوههم) » . بل أن (جون فينى) — مراسل النيويورك تايمز — فى ١٩٧٣/١١/٤ : « يقول المسئولون الامريكيون أن كلا من الولايات المتحدة واسرائيل لم تعتقد جديا فى أن الدول العربية كانت تستعد للهجوم ، لقــد حدثت ثغرة فى تقدير المخابرات الامريكية والاسرائيلية وتقييمها لنوايا العرب حول حرب جديدة ، لقد أخفقت المخابرات الاسرائيلية فى استخلاص النتائج بما لديها من المعلومات فى أطار النوايا العربية وعلى ذلك فقد فوجئت اسرائيل عندما شنت مصر هجوما يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ودفعت اسرائيل الثمن غاليــا لسوء التقدير هذا . وأخيرا يعترف الجنرال دافيــد اليعازر رئيس الأركان الاسرائيلى — فى ١٩٧٣/١٠/٢٩ » بأن مخابرات اسرائيل العسكرية قد قدرت فى وقت متأخر جدا أن العرب يعتزمون الهجوم فى يوم الغفران (٦ أكتوبر) وأن عدم تقييمنا بأن المصريين والسوريين سوف يهاجموننا فعلا لم يتح لنا فترة انذار كافية أو وقتا كافيا لتعبئة الاحتياطى » .

ثم يتلوه الجنرال حاييم بارليف — رئيس الأركان الاسرائيلى السابق — ليعترف « بأن المصريين والسوريين قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جــديدة وبكميات هائلة لم تحسن المخابرات الاسرائيلية تقديرها فوقعت المفاجأة ونجح المصريون والسوريون — على حد تعبيره — فى تحقيق انتصاراتهم » .

أما بالنسبة للقوة العسكرية ، فقد دأبت الزعامة الصهيونية — منذ عام ١٩٤٨ — على تشكيل الجيش الذى يناط به مهمة الدفاع عن اسرائيــل : الأرض والبشر والحدود .. ومن جهة أخرى ليكون بمثابة الزراع الطويلة لردع الجيران العرب « المشاغبون » والبطش بهم وعلى ذلك فقد رســمت الاستراتيجية العسكرية لجيش اسرائيل بطريقة خاصة تضع (الأمن) فى المقام الأول ، وبأسم الأمن يقوم بالعدوان ..فجيش (الدفاع)الاسرائيلى لا ينتظر

خصمه حتى يستعد للحرب ، بل يبادر — اذا شعر بذلك بالبدء بالهجوم ، فهو ليس كالقنفذ — على حد تعبير موشيه ديان — ينتظر الضربة ، بل أنه يشبه الثور الذى ما يكاد يشعر بالخطر حتى يشحذ قرنيه ليهجم على مصدره، وبالنظر الى طبيعة القوة البشرية المحدودة للبلاد فان هذا الجيش يعتمد بالدرجة الأولى على قوات الاحتياط المدربة ، بينما قواته العاملة لا تزيد على ٢٠٪ من مجموع تعداده ، جبل من الجليد العائم فوق سطح الماء — هكذا يشبهه بن جوريون — لا يبدو منه سوى قمته (القوات العاملة) بينما يظل معظم الجبل تحت الماء (قوات الاحتياط) ، وجيشا هذه مهمته لابد وأن يدعم بأسلحة عدوانية — هجومية فى المقام الأول — سلاح جوى طويل المدى ، ومدرعات حديثة تناسب حروب الصحراء الى جانب ضرورة توفير الكفاءة القتالية العالية لأفراده لتعويض النقص فى القوى البشرية ، وعلى ذلك فقد وضعت الخطوط الرئيسية بناء هذا الجيش على الأسس التالية : —

— الحرب الوقائية : بمعنى أن تقوم القوات الاسرائيلية بالهجوم على العدو اذا ما شعرت — مجرد شعور — بأن العدو يعد نفسه أو يستعد للقتال ، وقبل أن يبداه .

— الردع : وذلك بتوفير الاسلحة الرادعة القوية (الطيران والمدرعات) التى تكفل القضاء على جيش العدو — أو جيوشه — ومهاجمته فى عقر داره.

— الحرب الخاطفة ، بحيث تنهى اسرائيل القتال فى أسرع وقت بعد أن تقوم قواتها بتدمير جيش العدو تماما .

وحين نقيم هذا العامل العسكرى ، باعتباره الدعامة الرئيسية التى وضعتها القيادة الاسرائيلية لضمان ما تطلق عليه بالأمن الاسرائيلى ، وعلى ضوء معارك اكتوبر ١٩٧٣ فاننا نلاحظ الآتى : —

١ — أن اسرائيل قد أصابها الفشل التام فى تطبيق أهم مبادىء استراتيجيتها العسكرية : الحرب الوقائية وذلك نتيجة لفشل مخابراتها فى تحليل وتقييم العمل العسكرى وسبر أغواره . ذلك الفشل الذى يصفه « توماس شيتهام » — المراسل الامريكى — بقوله « أن اسرائيل قد واجهت كارثة تماثل « بيرل هاربور » .. حين قامت القوات المصرية والسورية باجتياح خطوط وقف اطلاق النار على جبهة قناة السويس وهضبة الجولان فجأة وأمسكت بالقيادة الاسرائيلية وهى عارية ، حتى أنها لم تستطع تعبئة قوات كافية من الاحتياطى لمواجهة الموقف الا بعد مرور ثلاثة أيام » .

٢ — فشل سلاح الردع الاسرائيلى — الطيران — فى تحقيق التفوق خلال مراحل الحرب كلها فلم يتمكن رغم محاولاته العديدة — من منع عملية عبور القناة وتدمير خط بارليف ، بل لقد أصيب بكارثة حينما قامت الصواريخ المصرية (أرض / جو) ووسائل الدفاع الجوى المختلفة — بمعاونة المقاتلات الاعتراضية المصرية — باسقاط أعداد كبيرة من طيران العدو قدرها الخبراء العسكريون فى العالم بأنها مذهلة ، حيث كانت القوات المصرية تسقط

ثلاث طائرات اسرائيلية من كل خمسة فوق منطقة القتال (ارنوردى بورجراف مراسل النيوزويك الأمريكية فى تقريره كشاهد عيان ومرافق للقوات خلال القتال) .

وبذلك تمكنت القوات المصرية من تأمين واحتلال رؤوس الجسور على الضفة الشرقية للقناة متوغلة داخل سيناء حسب الخطة الموضوعة تماما ، الأمر الذى دعا الخبير العسكرى الأمريكى (درويدلتون) الى ان يكتب — فى ١٩٧٣/١٠/١٦ — قائلا :

« ان التفوق الجوى لاسرائيل قد انخفض بصورة خطيرة فى هذه الحرب، فمصر وسوريا تستخدمان الصواريخ المضادة للطائرات بمهارة تامة ضد قوة جوية اسرائيلية جيدة التسليح ، كما ان القوات الجوية العربية قد ظهرت بمستوى عال على صورة لم تكن متوقعة حيث أظهر الطيارون العرب انهم لا يفتقرون الى الجسارة .. بينما أظهرت الأطقم الارضية العربية انها قادرة على تشغيل طائرات معقدة مثل الميج ٢١ تحت ظروف القتال الصعبة ».

أما عن سلاح الحرب الآخر : المدرعات .. فان الأمر لم يختلف كثيرا .. لقد اعترف الاسرائيليون بضراوة وعنف القتال فى معارك الدبابات الضخمة التى فاقت كل ما دار منها عبر التاريخ ، والتى امتدت أياما طوالا هاجمت فيها المدرعات المصرية دبابات العدو بجسارة واقتدار ، كما قامت المشاة الميكانيكية بتدمير اعداد كبيرة من مدرعاته الأمر الذى أثار دهشة الخبراء العسكريين فى العالم حتى لقد بدأ بعضهم بعيد النظر فى الدور الذى ظلت الدبابة تلعبه على مسارح القتال خلال ثلاثة أجيال .

٣ — افشلت الاستراتيجية العربية ، استراتيجية اسرائيل فى الحرب الخاطفة التى تنتهى حالما تبدأ بضربات هائلة هنا وهناك .. بل لقد أجبرت القوات العربية فى مصر وسوريا ، قوات اسرائيل المسلحة على أن تقاتل وفقا لما تمليه الخطط العربية وفى المناطق التى تحددها وبذلك أحرزت ايضا عنصر المبادأة .

فظل القتال ناشبا على مدى ثمانية عشر يوما بصورة مستمرة وضراوة بالغة فى البر والبحر والجو ، وبينما ترددت الانباء عن ترنح القوات الاسرائيلية وقرب نفاذ ذخائرها وانخفاض روحها القتالية ، ظلت القوات الضاربة الرئيسية لكل من مصر وسوريا سليمة متماسكة تماما يكتب (تيرنس سميث) — من تل أبيب — فى ١٩٧٣/١٠/١٥ قائلا :

« لقد بدأ الادراك يتزايد فى اسرائيل ، وقد دخلت الحرب يومها التاسع ، بأن زمن القتال هذه المرة سيقاس بالاسابيع وليس بالأيام ، بعد أن اعتاد الاسرائيليون على تحقيق الانتصارات السريعة السهلة وليس على الحرب الثقيلة الممتدة » .

خلاصـــــة :

نخلص من ذلك الى أن كافة العوامل والأسس التى بنت عليها اسرائيل نظرياتها فى الأمن ثبت فشلها خلال معارك أكتوبر ١٩٧٣ .

ان الأمن لا يكفل باحتلال أراضى الغير بالقوة ، وهذا هو الخطــأ الكبير الذى وقعت فيه اسرائيل .. ان ذات مطلب (الحدود الآمنة) الذى تطالب به اسرائيل على حساب الدول العربية يشكل فى حد ذاته أمرا فى غاية الخطورة بالنسبة لمستقبل السلام فى المنطقة بأسرها ، لا يخدمه بل على النقيض من ذلك ، فهو يزيد من احتمال نشوب حروب جديدة ، فالتوسع فى حد ذاته ــ يفتح الشهية للمزيد ، كما أنه يؤدى بالتالى الى حدوث حروب جديدة .. ان التوسع يتناسل ذاتيا ، وهذه حقيقة تاريخية ثابتة لقد استقر رأى كافــة المفكرين على انه فى العصر الحديث ــ عصر الصواريخ والطـائرات الاسرع من الصوت ــ لم يعد هناك ما يمكن أن يطلق عليه اسم (الحدود الآمنة) أو الحدود التى يمكن الدفاع عنها) بعد أن الغت هذه الاسلحة مثل تلك الحدود .. حتى أضحى العالم صغيرا ، لا يوجد على سطح الارض موقع أو مكن لا تستطيع أن تبلغه النيران ..

ان الأمن الحقيقى انما ينبع فى النهاية من الرغبة الصادقة فى السلام ونبذ سياسة التوسع وضم الأراضى بالقوة ولا يوجد سبيل آخــر لتحقيقــه على سطح الأرض .

صورة الشخصية العربية لدى الاسرائيليين

عوامل النشأة وظروف التغير فى ضوء حرب أكتوبر

السيد يســـين

كيف ينظر الاسرائيليون الى الشخصية العربية ؟ وما أثر صورة العـــرب لدى الاسرائيليين فى الصراع العربى الاسرائيلى ، وخصوصـــا فى مرحلتـــه الراهنة ؟ وما هو أثر حرب أكتوبر ٧٣ على تصور الرأى العام الاسرائيلى للعرب الذى تبلور وتحدد بوجه خاص بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ؟

لقد سبق لنا أن عرضنا للمفهوم الاسرائيلى بشخصيته العربية بوجـــه عام (١) ، وقلنا أن معالجة هذه المشكلة تقتضى التمييز بين ثلاثـــة مستويات للتحليل : دراسة تصور الصفوة السياسية للشخصية العربية ، ومفهـــوم الشخصية العربية كما صاغه العلماء الاجتماعيون الاسرائيليون ، وأخـــيرا دراسة الافكار القومية النمطية عن العرب لدى الرأى العام الاسرائيلى .

وسنحاول فى هذه الدراسة الوجيزة تعميق البحث فى المستوى الثالث على وجه الخصوص ، وذلك بتعقب جذور الافكار القومية النمطية عن العـــرب فى اسرائيل ، وتتبع التغير الذى طرأ عليها وعوامله فى الفترة من يونيو ٦٧ حتى أكتوبر ٧٣ ، وأخيراً نعرض للتغيرات المرتقبة بعد حرب أكتوبر .

أولا : الافكار القومية النمطية عن العرب لدى الرأى العام الاسرائيلى

اذا أردنا أن نعرف الافكار القومية النمطية National stereotypes فيمكن القول أنها **« السمات الشائعة الثابتة التى تسبغ على شعب ما من جانب شعب آخر ، والتى تتخذ شكل العقيدة العامة الجماعية ، والتى تصاغ على غير أساس علمى أو موضوعى ، تأثرا بأفكار متعصبة ، تتسم بالتبسيط فى تصورها للآخر » (٢) .**

---

(١) انظر : يسين (السيد) ، المفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية ، **المجلة الاجتماعية القومية** ، مجلد ١٠ ، عدد ٢ ، مايو ١٩٧٣ ، ١٥٩ — ١٧٦ .

(٢) اعتمدنا فى هذا التعريف على :

Terhune, K., from national character to national behavior, A reformulation, **Journal of conflict resolution**, V. XIV. No. 2, June 1970, 203 - 263.

—وراجع بصدد مصطلح الفكرة النمطية بوجه عام :

Fairchild, H.P., **Dictionary of Sociology**, New York, 1963.

ويمكن القول ان لدراسة وتحليل الافكار القومية النمطية عن العرب لدى الجمهور الاسرائيلى اهمية خاصة (١) . ذلك لانها تعكس بوضوح شديد الاثار الجسمة للسياسات الاسرائيلية المتعددة ، سواء فيما يتعلق بنوعية التنشئة الاجتماعية لليهود الاسرائيليين وما تتضمنه من تشويه تاريخ العرب، وتزييف شخصيتهم القومية (٢) ، أو ما يتعلق بالسياسات التطبيقية التى تتعلق بوضع القيود على حركة العرب ، واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية ، مما ترتب عليه تحديد الصلات الاجتماعية بين اليهود الاسرائيليين والعرب فى دوائر بالغة الضيق لا تسمح بالتفاعل الاجتماعى العميق .

ومن المعروف فى بحوث علم النفس الاجتماعى أن قلة التفاعل بين أعضاء حضارات أو قوميات مختلفة يؤدى الى تكوين افكار قومية نمطية تتضمن اتجاهات عدائية (٣) . فاذا اضيف ــ فى حالة المجتمع الاسرائيلى الذى تسوده اغلبية اسرائيلية واقلية عربية ــ حالة الحرب والعداء بين اسرائيل والعالم العربى ، ادركنا كيف أن كل هذه الظروف الحضارية والاجتماعية ، تشكل تربة صالحة لتبلور افكار قومية نمطية سلبية عن العرب لدى اليهود الاسرائيليين ، يدعمها ولاشك الفروق الحضارية والحواجز اللغوية .

ومن الاهمية بمكان ــ قبل أن نعرض للافكار القومية النمطية لليهود الاسرائيليين عن العرب ــ أن نتعمق أولا مفهوم الافكار القومية النمطية (٤).

مفهوم « الفكرة النمطية » Sterotype يستخدم بكثرة فى تحليل العلاقات بين الجماعات السلالية المختلفة . غير انه حتى الآن ليس هناك اتفاق بين الباحثين حول دلالته السيكلوجية ، ولا يسود الاجماع حول علاقته بمتغيرات اخرى مثل « التعصب » .

وتشكل الافكار النمطية عادة ماينظر اليها باعتبارها عملية ادراكية(٥) Perceptual process **وهذا هو الذى يجعلنا نثير السؤال الهام الذى يتعلق بمدى قرب او بعد الفكرة النمطية عن الواقع .**

---

(١) نعتمد فى هذا الجزء من الدراسة على بحث أشمل لنا . انظر : يسين (السيد) ، **الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى** ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الاهرام ، ١٩٧٤ .

(٢) راجع بهذا الصدد : حفنى (قدرى) تجسيد الوهم ، دراسة سيكلوجية للشخصية الاسرائيلية ، القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧١ .

(٣) Ibrahim, S.M., Cross-Cultural interaction and attitude formation before and after a major crisis, in : Sociological Focus, on attitudes, vol. 4., No. 3. Spring 1971, 1 - 16.

(٤) راجع بهذ االصدد : Peres, Y. & Levy, Z., Jews and Arabs : ethnic group stereotypes in Insrael, Race, Vol. X, No. 4, April 1969, 479 - 492.

(٥) يرى الباحث المصرى سعد الدين ابراهيم أن ثمة علاقة وثيقة بين : التفاعل ، الادراك ، والاتجاه .

راجع : Ibrahim, S.M., Interaction, perception, and attitudes of Arab students toward Americans, in : Sociology and social research, vol. 55., No. 1., Oct. 1970, 29 - 46.

اثبت عديد من الباحثين ان الفكرة النمطية لا تتطابق مع جوهر الشخصية القومية للجماعة التى صيغت عنها (١) . ومعنى ذلك أن الذى يهيمن على الاتجاه السائد فى الفكرة النمطية هو عوامل وقوى اجتماعية نفسية تحدث فعلها فى مجال الحياة الاجتماعية لمن يعتنقونها .

بعبارة اخرى ، الافكار القومية النمطية لليهود الاسرائيليين عن العـرب لا تتطابق مع الواقع من ناحية ، وتؤثر عليها فى نشأتها واستمرارها وتغيرها عوامل متشابكة ومتعددة : سياسية واقتصادية واجتماعية ، لصيقة ببنيـة المجتمع الاسرائيلى من ناحية ، ومتعلقة بتطورات الصراع العربى الاسرائيلى من ناحية أخرى .

ويرى بيريز وليفى أن هناك نظرة أخرى للافكار النمطية ، لا تذهب الى المدى الذى ذهبت اليه وجهة النظر السابقة ، فترى أن لها — مثلها مثل باقى العمليات الادراكية — علاقة بالواقع ، **غير أن هذه العلاقة ليست مبـاشرة وليست بسيطة** . وحجج هذا الرأى تتمثل فيما يلى :

١ — أن الفكرة النمطية تؤدى وظيفة التمييز بين الجماعات المختلفة من الناس ، وهى لذلك تسودها نزعة لتجاوز السمات العامة للجماعة المعينة ، مع التركيز فى نفس الوقت على السمات المميزة . وفى حين اننا نجد أن العضو العادى فى جماعة سلالية ما من المحتمل ان يتشابه — الى حد كبير — مع أعضاء الجماعات السلالية الاخرى ، الا أن « العضو النموذجى » لابد له أن يحمل سمات مميزة .

٢ — أن الفكرة النمطية تعبر عن الدور الذى تلعبه جماعـة محـددة فى التاريخ الجماعى للمدركين الذين صاغوا الفكرة . بعبارة أخرى ، الفكرة النمطية لليهود الاسرائيليين عن العرب تعبر عن الدور الذى لعبه العرب فى تاريخهم الجماعى . وتؤثر فى صياغة هـذه الأفكار النمطية الحوادث التاريخية المصيرية .

٣ — تتغير الفكرة النمطية بحسب الموقف الذى يوجد فيه أعضاء الجماعة السلالية التى صاغت الفكرة (اليهود الاسرائيليون) وأعضـاء الجمـاعة السلالية الأخرى المضادة (العرب) .

وهناك عدة عوامل أساسية تحدد هذا الموقف الذى يؤثر تأثيرا بالغا فى تشكيل الافكار النمطية وهى :

(أ) توزيع القوة بين الجماعتين . وبالرغم من أن هناك عوامل اخـرى تؤثر فى تشكيل الأفكار النمطية ، الا أن هذا العامل يبدو انه الحاسم .

---

(١) انظر المراجع التى يشير اليها المرجع التالى : Peres, Y. & Levy, 2, Op. cit.

والصور التى تتبناها الجماعات السائدة فى مختلف المجتمعات لها سمات عامة مشتركة فيما بينها . وهناك ايضا تشابه ملحوظ بين الافكار النمطية التى تلصق بالجماعات ذات المكانة المنخفضة (١) .

وهناك امكانية لقياس تأثير هذا العامل ، وذلك بدراسة حالة جماعتين ، حدث تاريخيا — كما هو الحال بالنسبة للفلسطينيين واليهود — أن تبادلتا مراكز القوة ، فاصبح من كانوا اغلبية اقلية ، ومن كانوا اقلية اغلبية . فاذا كان عامل توزيع القوة هو حقا العامل الحاسم ، فلنا ان نتوقع أن صورة كل فريق عن الآخر ، لابد لها أن تتبدل بحسب الادوار الجـديدة التى اصـبح يشغلها كل منهم .

(ب) العامل الثانى المؤثر على الافكار النمطية — كما اشرنا من قبل — هو مدى الاتصال الاجتماعى بين الجماعات السلالية . ذلك ان قلة الاتصال أو انعدامه يساعد على صياغة وبلورة الافكار النمطية ، وعلى العكس كثرة الاتصال يسهم فى تصحيح كثير من الانطباعات المشوهة الكامنة فى الافكار النمطية .

(جـ) المدى الذى تتصادم فيه المصالح الرئيسية لكلتا الجماعتين السلاليتين . بعبارة أخرى مجال دائرة الصـدام بين اليهـود الاسرائيليين والعـرب فى اسرائيل تؤثر تأثيرا بالغا فى الافكار النمطية التى يصوغها كل منهم عن الآخر .

بعد هذا التاصيل النظرى لمفهوم الفكرة القومية النمطية فـان السؤال المطروح هو : ما هى الافكار القومية النمطية التى صاغهـا الراى العـام الاسرائيلى عن العرب ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تقتضى منذ البداية ان نحدد ملامح الاطـار السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى تبلورت فيه هذه الافكار القوميـة النمطيـة .

ومن الاهمية فى هذا الصدد تحديد الاصول التى نبعت منها صورة الذات الاسرائيلية وصورة الذات العربية ، وكذلك مفهوم كل من الاسرائيليين والعرب عن الآخر .

يزعم بعض الباحثين الاسرائيليين أن الصراع بين اليهود والعرب ظهر اولا باعتباره صراعا بين الثابت والمتحرك ، بعبارة أخـرى كان العـرب يمثلون العنصر الثابت غير القادر على التطور ، فى حين كان اليهود يمثلون العنصر الديناميكى ، الذى يغير كلا من طبيعـة الارض الفلسـطينية ومن النظـام الاجتماعى السائد .

والحقيقة ان صياغة القضية بهذه الصورة فيه تضليل متعمد . فنظـرة العرب لليهود سيطرت عليها حقيقة واحدة لا مجال فيها لخداع النفس أو

(١) سنناقش بعد قليل تطبيقا واقعيا لهذه الفكرة فى المجتمع الاسرائيلى الذى يسوده نسق مركب للمكانة الاجتماعية ، يتكون تنازليا من : اليهود الاشكنازيم ، اليهود السفارديم ، العرب.

للتزييف : **نظرة الوطنى صاحب الأرض للاجنبى المحتل** . ولم يقنع العرب بتكوين صورة نمطية عن اليهود ، بل لقد قاوموا وناضلوا ضد الاستيطان اليهودى ، ولكن خاب مساعاهم ، لاسباب متعددة ، لعل الانتهازية السياسية لحكومة الانتداب البريطانى فى هذا الوقت اهمها جميعا ، هذه الانتهازية التى كانت جزءا من خطة السيطرة الامبريالية الغربية على العالم العربى .

ومما لاشك فيه أن حرب ١٩٤٨ كان لها تأثير واضح على تنمية افكار قومية نمطية لدى العرب واليهود . فانتصار اليهود أعطاهم الاحساس بالقوة والنجاح ، فى حين أن العرب — فى نظر اليهود وفى نظر أنفسهم — كانوا يمثلون الشعب المقهور والمنهزم الذى يسوده الاحساس بالضعف .

وقد اعقبت حرب ١٩٤٨ تغييرات واسعة المدى لحقت ببنية المجتمع الفلسطينى ، لعل اهمها فرض القوانين العرفية ، وتقييد حركة العرب وتحديد اقامتهم فى بعض المناطق . ومن ناحية أخرى انقلب الميزان السكانى لحساب اليهود بشكل واضح ، فبعدما كان عدد السكان اليهود فى فلسطين عام ١٩٤٧ ٦٣٠٠٠٠ يهودى ، فى حين كان عدد العرب ١٢٠٠٠٠٠ عربى ، أظهر الاحصاء الاسرائيلى عام ١٩٥١ أن عدد اليهود أصبح ١٤٠٤٠٠٠ يهوديا وانخفض غير اليهود ليصبح ١٧٣٠٠٠ (الغالبية العظمى منهم عرب) ، اما غير العرب فلا يمثلون سوى اقلية ضئيلة) .

ولعله قد آن الأوان لنستعرض أبرز نتائج البحوث الميدانية التى أجريت على مجموعات من اليهود والعرب لتحديد الأفكار القومية النمطية التى صاغتها كل مجموعة عن الأخرى .

ولن يعنينا هنا سوى الافكار القومية النمطية التى كونها اليهود عن العرب . لعل أهم ما نلاحظه بهذا الصدد ندرة الدراسات الاسرائيلية والغربية بوجه عام التى اجريت لتحديد الافكار القومية النمطية التى صاغها اليهود الاسرائيليون ازاء العرب . وبالرغم من أن الباحثين الاسرائيليين «بيريز وليفى» تعرضا مباشرة لهذا الموضوع فى بحث لهما (١) الا أن القراءة النقدية لبحثهما وطريقة عرض بياناته تبرز أنهما تحاشيا الصياغة الواضحة للافكار القومية النمطية التى صاغها اليهود الاسرائيليون ازاء العرب . والبحث كله عبارة عن تحليل كيفى لصورة مجموعة من الطلبة اليهود عن مجموعة من الطلبة

---

(١) Peres, Y. & Levy, Z., Op. Cit.

أجرى هذا البحث على مجموعتين من الطلبة الجامعيين : الاولى يهود اختيروا بطريقة عشوائية ، والثانية عرب اختيروا بطريقة « المضاهاة الفردية » .Individual matching وذلك لتلافى زيادة تخصص الطلبة العرب فى بعض الفروع العلمية ونقص تخصصهم فى فروع أخرى . وروعى فى العينتين التماثل فى المتغيرات التالية : الجنس والعمر ومجال الدراسة. وكان تكنيك البحث اجراء مقابلات مفتوحة متعمقة كانت تستغرق بين ثلاث وأربع ساعات . ودار التحليل حول الموضوعات الست التالية : مدى تركيز كل جماعة على الاخرى ، الاحساس بعلو المكانة أو بالدونية ، درجة اعتماد كل فرد من المجموعتين على اعضاء جماعته السلالية ، امكانية التعرف على عضو كل جماعة سلالية من المظهر الجسمانى أو غيره جماعته السلالية ، امكانية التعرف على عضوكل جماعة سلالية من المظهر الجسمانى أو غيره من العلامات ، الاتجاهات السياسية فيما يتعلق بالثقة فى النظام أو الشك فيه .

العرب والعكس ، غير أن هذه الصورة مصاغة بطريقة بالغة العمومية ،تركز على تفاصيل الحياة اليومية ، وعلى انماط السلوك الاجتماعى ، اكثر من التركيز على الاحكام العامة الاجمالية لليهود عن العرب أو العكس .

غير أن حقيقة الأفكار القومية النمطية التى صاغها اليهود الاسرائيليون ازاء العرب ، قد كشفت عنها بعض البحوث التى قام بها باحثون اجانب فى اسرائيل . ومن ابرز هذه البحوث الدراسة الميدانية التى قام بها **« إدوارد روبنز »** أستاذ الانثروبولوجيا بجامعة وسكونسن والتى نشرها بعنوان : **« الاتجاهات والافكار النمطية ، وضروب التعصب بين العرب واليهود فى اسرائيل » (١) .**

يتفق « روبنز » ومنذ البداية مع النتائج التى توصل اليها « بيريز وليفى » فيما يتعلق بدرجة تركيز اليهود الاسرائيليين واهتمامهم بمشاكل العرب . فاليهود لم يعنوا كثيرا بالتفكير فى مشاكل العرب — أو بحسب تعبير«روبنز» — ربما كان اتجاه اليهود الاسرائيليين السائد ازاء العرب هو اللامبالاة ، **وهو اتجاه يفوق فى رسوخه اتجاه الشك فيهم (٢) .**

وهكذا حين يستفيد العرب فى اسرائيل من بعض التطورات الاقتصادية فان اليهود الاسرائيليين ينتظرون منهم أن يشعروا منهم بالامتنان ، وبدون أن يلقوا بالا الى اهمية الجوانب الروحية التى يركز عليها العرب ، ويرون فى عدم تحقيقها خسارة لا يمكن أن تعوضها اى فوائد مادية سواء كانت دائمة أو عارضة . أن اليهود الاسرائيليين ينكرون على العرب ما اعتبروه هم الدافع المحرك لهجرتهم الى فلسطين وهو تحقيق الذات القومية .

وغالبية اليهود الاسرائيليين — كما يقرر « روبنز » — يؤيدون سياسات الحكومة الاسرائيلية الخاصة بفرض القيود العنيفة على العرب ، بزعم أن اعتبارات أمن اسرائيل لها الاولوية على حقوق العرب الانسانية .

ومن ناحية أخرى ينكرون حقوق اللاجئين الفلسطينيين على أساس أن مشكلتهم ينبغى على الدول العربية أن تجد حلا لها .

ويقرر « روبنز » — بمنتهى الوضوح — **يبدو أن الدولة الاسرائيلية قد رعت ودعمت الاتجاهات بين السكان اليهود حتى لا يهتموا بالعرب ولا بمشكلاتهم ، وحتى تصبح لا مبالاتهم بها اتجاها راسخا .**

---

(1) **Robins, E., Attitudes, stereotypes, and prejudices among arabs and Jews in Israel in : New Outlook, Vol. 15., No. 9., (16), Nov. Dec., 1972, 36 — 48.**

(٢) اذا كانت هذه البيانات صادقة ، فقد يرد هذا الاتجاه الى النظرة العدوانية التى تبناها الصهيونيون فى بداية استعمارهم الاستيطانى لفلسطين ، والتى مبناها أن « اليهود شعب بلا ارض ، هبط الى أرض بلا شعب ».ويؤكدذلك ما يزعمه عدد من القادة الصهيونيين أن اليهود فى غمرة اندفاعهم للهجرة الى (أرض الميعاد) واستعمارهم،لم يلتفتوا الىالفلسطينيين ولم يتصوروا أنه ستنشب مشكلات جسيمة معهم ستتطور بعد ذلك الى صراع مسلح .

واليهود الاسرائيليون مشغولون بانفسهم ويركزون كل اهتماماتهم عـلى مشكلاتهم ، وهم لذلك — نتيجة لجهود الدولة واجهزتها الدائبة فى تدعـيم الوعى **الزائف** لديهم — اصبحوا عاجزين عن تقدير الموقف الحقيقى للعرب بصورة واقعية فهم **ينظرون لاسرائيل باعتبارها يهودية ، اما العرب فهم الاجانب .**

أن اتجاهات الشك ازاء العرب ، تجد تبريرها عند اليهود الاسرائيليين فيما يطلقون عليه « العقلية الشرقية » . وهذه هى النغمة الرئيسية التى ما اكثر ما ترددت فى الكتابات الاسرائيلية عن الشخصية العربية . والعقلية الشرقية ، تتسم فى نظر اليهود الاسرائيليين بملامح **تتمثل فى عدم الصبر على التعليم ، الافتقار للطموح ، انعدام الاخلاق ، نظرة تقليدية ومحافظة للعالم، وتركيز الاهتمام على الاسرة وليس على مصلحة البلد .**

أن هذه الافكار النمطية التى صاغها اليهود الاسرائيليون ازاء العـرب والتى عرضها « روبنز » فى بحثه وحللها بطريقة كيفية ، قد وجدت التعبير الكمى عنها فى قياس للراى العام قام به معهد « لويس هاريس » لقياس الرأى العام الاسرائيلى تجاه مسائل الحرب والسلام ، وذلك لحساب مجلة التايمز، ونشرت نتائجه فى العدد الصادر فى ١٢ ابريل ١٩٧١ .

وقد وجه السؤال التالى الى الاسرائيليين اليهود :

هل توافق على العبارة التالية	(نعـم)	(لا)
— العرب اكثر كسلا من الاسرائيليين	٥٣٪	٣٦٪
— العرب اقل ذكاء من الاسرائيليين	٧٤٪	١٩٪
— يشعر العرب بحقد أعمى تجاه اسرائيل	٦٨٪	٢٦٪
— العرب اشد قسوة من الاسرائيليين	٧٥٪	١٧٪
— العرب ليسوا فى شجاعة الاسرائيليين	٨٠٪	١٢٪
— العرب اقل امانة من الاسرائيليين	٦٦٪	٢٠٪
— العرب ادنى من الاسرائيليين	٦٧٪	٢٣٪

اذا تأملنا هذه العبارات التى وجهت لقياس الراى العام الاسرائيلى تجاه العرب ، نستطيع أن نقرر انها اذا ادمجت معا بطريقة عضوية ، فانهـا تمثل عناصر الشخصية القومية العربية المزيفة التى حاولت التأكيد عليها الصفوة الاسرائيلية الحاكمة .

غير أنه يمكن القول أن الافكار النمطية التى صاغها اليهود الاسرائيليون عن العرب ، والتى سادت المجتمع الاسرائيلى لفترة طويلة ، بدأت تتغير — ببطء شديد — نتيجة للتطورات البالغة الاهمية التى حدثت بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، وبوجه خاص تحت تأثير ما أطلق عليه سياسة الجسور المفتوحة .

التغير فى الافكار النمطية عن العرب بعد يونيو ١٩٦٧ :

اختلفت الاستراتيجيات الاسرائيلية الخاصة بالتعامل مع العرب اختلافات جوهرية حسب المراحل التاريخية ، غير أن أهم تحول على الاطلاق لحق بها عقب حرب يونيو ١٩٦٧ .

فى مرحلة الاستيطان اليهودى زعم الصهيونيون — على المستوى الايديولوجى — انه ليس هناك مشكلة صراع بين اليهود المهاجرين الى فلسطين وبين العرب . ولعل الصيغة الشهيرة « شعب بلا أرض هبط الى أرض بلا شعب » تشير الى هذا الاتجاه . غير أنه على مستوى الواقع الاجتماعى جابه اليهود السكان العرب من خلال اتباع وسيلتين رئيسيتين : الخداع والتسرب الذى تمثل فى اغراء الاقطاعيين العرب وكبار الملاك لبيع اراضيهم ، واستخدام وسائل الدفاع الذاتى من ناحية ، والعنف المكشوف من ناحية أخرى .

ولم تعد هناك مشكلة جسيمة بصدد العرب بعد انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ . اذ حدثت — نتيجة الارهاب الاسرائيلى الذى ترتب عليه نزوح آلاف العرب عن فلسطين وتحولهم الى لاجئين — خلخلة فى التركيب الديموجرافى للمجتمع فى فلسطين المحتلة ، ساعدت عليه موجات الهجرة اليهودية المتدفقة ، وسرعان ما تحولت الاقلية اليهودية الى أغلبية ، وتبدل حال الأغلبية العربية فأصبحت أقلية .

وتمثلت الاستراتيجية الاسرائيلية فى هذه الحقبة فى تحويل عرب اسرائيل الى مواطنين من الدرجة الثالثة (بعد اليهود الشرقيين) . حيث فرضت عليهم الاقامة الجبرية داخل حدود معينة ، ووضعت قيود عديدة على حرياتهم، واخضعوا اخضاعا كاملا للحكم العسكرى .

ثم نشأ واقع جديد بعد حرب يونيو ١٩٦٧ وسقوط الضفة الغربية تحت الاحتلال الاسرائيلى . اذ رأت اسرائيل أن من مصلحتها تدعيم ما يعرف « بالجسور المفتوحة » بين الضفة الشرقية للأردن والضفة الغربية لتسهيل عملية انتقال الافراد والبضائع باتجاه واحد فى البداية ، من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، ثم بعد ذلك من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية(١) . وقد قدرت اسرائيل أن الجسور المفتوحة هى سبيلها الى تحقيق «السلام الاسرائيلى » الذى لا يمكن أن يتم فى حالة اغلاق الحدود بينها وبين البلاد العربية وبالتالى يسمح لها بالافلات من طوق المقاطعة العربية للاطلال على « المجال الحيوى لاسرائيل » ، الأمر الذى يبرر من وجهة نظر مصممى

---

(١) انظر : عبد الحميد (عيسى) ، ست سنوات من سياسة الجسور المفتوحة ، بيروت : مركز الابحاث الفلسطينية ، يوليو ١٩٧٣ .

الاستراتيجية الاسرائيلية كافة المخاطر الأمنية التى قد تترتب على الاتصال مع العرب فى هذه المرحلة . وبغض النظر عن الفوائد الاقتصادية الضخمة التى حصلت عليها اسرائيل نتيجة هذه السياسة فانها قد وضعت فى اعتبارها بالاضافة الى ذلك ، أن ما أطلق عليه « زيارات الصيف » التى بمقتضاها كان الزوار العرب يدخلون الى اسرائيل ، يمكن أن تستغل لتقديم نفسها الى العرب والاتصال بهم مباشرة ، لينقلوا بعد عودتهم الى أماكن عملهم وسكناهم فى أقطار عربية متعددة ، صورة التقدم التكنولوجى «والحضارى» فى اسرائيل الى الشعوب العربية ، وبالتالى سد الهوة النفسية العميقة بين العرب واسرائيل وتخفيف حدة المشاعر تجاهها . ويمكن ادراك خطورة هذه السياسة اذا علمنا أنه عام ١٩٧٢ وصل عدد « السائحين » العرب الذين اجتزوا نهر الأردن خلال أشهر الصيف الى ١٥٣،٠٠٠ألف نسمة » .

وأكد اهتمام المؤسســة الحاكمة الاسرائيلية بهذه السياسة وتقديرها لآثارها الايجابية بالنسبة لاسرائيل ، التصريح الذى ادلت به جولدا مائير فى رسالتها الى اليهود فى جميع أنحاء العالم بمثابة بدء السنة اليهودية الجديدة، « ان هناك تعايشا متزايدا بين العرب واليهود داخل اسرائيل والأراضى التى احتلتها منذ حرب ١٩٦٧ ، التى تمثل جسرا للتفاهم المتبادل » .

واذا اضفنا الى ذلك كله المحاولات الاسرائيلية ــ التى نجحت الى حد كبير ــ فى ادماج القوة العاملة العربية فى الضـــفة العربية فى الاقتصاد الاسرائيلى ، يتبين لنا أن **حجم ونوع الاتصال بين العرب ويهود اسرائيل قد زاد زيادة ضخمة منذ حرب يونيو ١٩٦٧ .**

واذا كانت المؤسسة الاسرائيلية لم تنظر الا الى الجوانب الايجابية فى هذه العملية الاجتماعية من وجهة نظرها ، واهمها نقل السياح العرب الى البلاد العربية صورة زاهية عن المجتمع الاسرائيلى ، الا انهــا ــ فيمــا يبدو ــ فاتها أن التداعيات المتعلقة بالآثار النفسية الاجتماعية للاتصال بين جماعتين متعاديتين لا يمكن أن تسير فى خط من اتجاه واحد ، من الجانب الاسرائيلى للجانب العربى . ذلك أنه من المؤكد أن هذا الاتصال ــ بغض النظر عن جوانبه الاقتصادية والسياسية ــ قد أدى الى تغير تدريجى وان كان مؤكدا فى نظرة جماهير الاسرائيليين الى العرب . فقــد الحت أجهزة التنشئة الاجتماعية فى اسرائيل ووسائل الاعلام على تقديم **صورة نمطية للعربى** ، تتمثل عناصرها فى أنه جاهل ومتخلف وكسول ويفتقر الى الدافعية ، ومما لاشك فيه أنه نتيجة للاتصال الواسع المدى بين العرب واليهــود الاسرائيليين ، لابــد أن قد حــدثت تحولات فى ادراك اليهود الاسرائيليين للعربى . واذا سلمنا ــ مع علماء النفس الاجتماعيين أن ثمة علاقة وطيدة بين **الادراك والتفاعل والاتجاه** ، لكان لنا أن نخلص الى أن سياسة الجســور المفتوحة من ناحية وادماج عرب الضـــفة الغربية من ناحية أخرى ، تضمنت العناصر الاساسية التى عن طريقها أخذت تتغير اتجاهات اليهود الاسرائيليين ازاء العرب . **ولعل أخطر صور هذا التغير اكتشاف الانسان فى الآخر ، او بعبارة أخرى أدراك الدوافع والمشاعر التى**

تحرك العربى فى مسلكه ازاء اسرائيل واليهود الاسرائيليين من ناحية ، وسقوط الأوصــاف النمطية الاسرائيلية عن العــربى بالتدريج من ناحية ثانيــة .

ومما لاشك فيه أن حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، سيكون من شأنها ـــ كما سنرى ـــ تدعيم هذا التغير فى نظرة الاسرائيليين الى العرب . ذلك انه اذا كان الاتصال « السلمى » بين العرب واليهود الاسرائيليين قد احدث بعض التغييرات ، فان الاتصال « العدائى » فى الحرب وفى ميادين القتال ، وخصوصا فى حرب تمت لأول مرة فى تاريخ الصراع فى ظروف متكافئة بين الطرفين ، حيث برزت القدرات الحقيقية للمقاتل العربى ، من شأنه أن يعمق من حدوث هذا التغير .

ثالثا : التغيرات المرتقبة فى الأفكار القومية النمطية عن العرب نتيجة لحرب أكتوبر ١٩٧٣ :

من الحقائق المعرفة أن التاريخ لا يعرف الوقوف عند تاريخ محدد يكون فاصلا حاسما بين حقبتين متمايزتين ، ذلك لان من مجراه الديناميكى المتتابع ، تتفاعل فى تياراته عناصر شتى مستمرة ، حيث يتصارع القديم مع الجديد فى حركة جدلية لا تتوقف أبدا . وعلى ذلك ، يمكن القول أن تيارات التغير المرتقبة فى المجتمع الاسرائيلى لابد لها أن تحمل طابع التكامل والتناقض والاستمرار والانقطاع من خلال عملية مستمرة أبدا .

وفى تقديرنا أن هناك تغيرا جوهريا سيطر على المجتمع الاسرائيلى نتيجة لحرب اكتوبر ، يتمثل فيما يمكن أن نطلق عليه التغير الجوهرى فى الاطار الادراكى للاسرائيليين .

ولعل الاطـــار الادراكى للاسرائيليين ـــ فيما يتعلق بالصراع العـــربى الاسرائيلى ـــ يتمثل أكثر ما يتمثل فى النظرة للذات والنظرة للآخر ، والآخر هنا هم العرب بطبيعة الاحوال . والنظرة **الاسرائيلية للذات تتضمن تصورا محددا لدولة اسرائيل : دورها ورسالتها ، ومن ناحية أخرى صورة ذاتية عن الاسرائيليين كأفراد وكشعب .**

لقد وضـــع الاسرائيليون ثقتهم فى قادتهم السياســـيين والعسكريين ، وتضخمت ذواتهم بوجه خاص عقب الانتصار الاسرائيلى الكاسح فى يونيو ١٩٦٧ ، وأصبحوا يتصورون انهم اصبحوا سادة المنطقة الى الأبد .

لكن ذلك كانت حرب أكتوبر وما صحبها من تراجع للجيش الاسرائيلى ، وبروز للقوة الحقيقية للجيوش العربية ، بمثابة الصـــدمة الساحقة التى أصابت الاسرائيليين بالبلبلة ، والحيرة والاضطراب .

وظهرت فجوة واضحة بين الجماهير والحكومة ، حدثت فجوة تصديق ، كشف عنها المظاهرات التى ثارت أمام الكنيست اثناء القاء جولدا مائير لخطاب لها ، كان شعاراتها « ان شعب اسرائيل قوى ، ولكن حكومته ضعيفة » .

واهم ما نريد أن نركز عليه انه قد حدث خلل جسيم فى **مكونات الاطار الادراكى للاسرائيليين نتيجة لحرب أكتوبر** . غير ان الاسرائيليين لايمكن لهم — من وجهة النظر النفسية — تغيير اتجاهاتهم ازاء أنفسهم وازاء العرب فى فترة قصيرة . **ولذلك نتوقع ان الوعى الاسرائيلى سيمر فى المرحلة القادمة فى مرحلة انتقالية غير محددة الملامح ،سيحاول فيها اعادة صياغة مكوناته الاساسية . فى هذه المرحلة سيقاوم الاسرائيليون قبول الحقائق الجديدة التى اسفرت عنها الحرب ، وسيتذبذبون بين اقصى التمسك بالمفاهيم القديمة ، الى اقصى القبول اللفظى للواقع الجديد .**

غير أنه فى يقيننا ، **انه لايمكن رصد اتجاهات التغير فى الوعى الاسرائيلى** ، الا بعد مرور هذه المرحلة الانتقالية التى أشرنا الى سماتها الاساسية .

ولكن محصلة التغير الكيفى ، لن تعتمد فقط على عامل الزمن ، والشفاء من الصدمة السيكولوجية العنيفة التى نجمت عن الحرب ، ولكن ايضا على تفاوت مستويات الوعى الاسرائيلى . هنا لابد ان نفرق تفرقة واضحة بين مستويات ثلاث : مستوى الصفوة السياسية ، ومستوى العلماء والمفكرين الاجتماعيين ، ومستوى الرأى العام الاسرائيلى .

ان التغييرات فى الوعى الاسرائيلى على مستوى الصفوة السياسية عملية بالغة التعقيد ، لأنها من ناحية تعتمد على الخلافات التكتيكية أو الاستراتيجية بين اعضاء هذه الصفوة فيما يتعلق بمواقفهم من الصراع العربى الاسرائيلى من ناحية ، وعلى قدرتهم على التكيف مع الحقائق الجديدة التى ترتبت على حرب أكتوبر من ناحية أخرى .

وفى تقديرنا ان مقاومة أعضاء الصفوة الاسرائيلية المتشددين ستزداد عنفا وضراوة فى المرحلة القادمة . فليس ميسورا على من صاغوا الاستراتيجية الاساسية للتعامل مع العرب بكل ما تتضمنه من اوهام اسرائيل الكبرى ، وسياسة التوسع ، وضم الاراضى ، وعبادة القوة والاعتماد عليها ، والتضخيم فى الذات الاسرائيلية ، والتهوين من شأن العرب ، أن يتراجعوا تراجعا جوهريا فى مؤقفهم . وقد يلعب المعتدلون دورا هاما فى اعادة تكييف الوعى الاسرائيلى على مستوى الجماهير ، حتى يكون أكثر تطابقا مع الواقع الجديد .

ويأتى بعد ذلك المستوى الثانى ، وهم العلماء والمفكرون الاجتماعيون ، الذين اسهموا بدورهم فى صياغة صورة الذات الاسرائيلية ، وصورة الشخصية العربية . ان هذه الفئة — نزولا على الاعتبارات الاكاديمية التى وان كان من الممكن ، كما فعلوا الانحراف عنها ، وخصوصا فى سنوات العجز العربى عقب حرب يونيو ١٩٦٧ — لن يستطيعوا طويلا الاستمرار فى خديعة الرأى العام الاسرائيلى ، ولابد لهم أن يعيدوا صياغة نظرياتهم التى جهدوا فى صياغتها والترويج لها . **ولعل بدايات الحديث فى اسرائيل عن القدرة المنسية للمقاتل العربى ، التى ردمت تحت رمال الصلف والغرور الاسرائيلى ، الذى كان رد فعل للنصر الاسرائيلى فى ١٩٦٧ ، تشير الى هذا التحول الذى لابد له ان يتم .**

ولا يبقى امامنا سوى المستوى الثالث الخاص بالرأى العام الاسرائيلى . فى تقديرنا ان تغير الوعى لدى الراى العام الاسرائيلى نتيجة لحرب أكتوبر سيتم بمعدل اسرع من معدل تغير الصفوة السياسية والعماء والمفكرين . **ذلك ان الحقائق السياسية والعسكرية الصلبة تكون اقوى نفاذا الى هذا الوعى ، خصوصا بالنسبة لحرب تساقط فيها — لأول مرة فى تاريخ اسرائيل — آلاف القتلى والجرحى ، ووقع مئات الاسرى فى ايدى القوات العربية .**

ولعل مما سيساعد على هذا التغير نتائج الاتصـــال الواسع المدى مع العرب ، الذى تم تحت مظلة سياســـة الجسور المفتوحة ، التى سبق أن اشرنا اليها . غير أن هذا الاتصال السلمى ، أضـــيف اليه فى حرب أكتوبر اتصال عدائى بين القوات المسلحة الاسرائيلية والقوات المسلحة العربية . وقد تكون هذه هى المرة الاولى التى يكتشف فيها المقاتل الاسرائيلى — على نطاق واسع وبصورة حادة وقاسية — المقاتل العربى وقدراته . ولابد للافكار القومية النمطية الثابتة التى كان يعتنقها الاسرائيليون عن العرب ، أن تنهاوى تحت وطأة هـــذا الاكتشاف . لن يحدث ذلك فورا بطبيعة الأحوال ولكن لاشك أن حرب اكتوبر من شأنها اطلاق بدايات هذا التغير .

وخلاصة دراستنا ان الافكار القومية النمطية عن العرب لدى الاسرائيليين والتى اســـهمت فى تكوينها الاستراتيجية التى وضــــعها الصفوة الحاكمة الاسرائيلية ، والتى ركزت على ابعـــاد العـــرب عن الاتصال المنتظم مع الاسرائيليين من خلال فرض القيود العديدة على اقامتهم وتحركاتهم ، وعلى تقديم وتدعيم صورة مشوهة للشخصـــية العربية ، قد بدأت تتغير تغيرا منتظما من خلال عملية الجسور المفتوحة التى ارادتها الصفوة الاسرائيلية مكاسب خالصة لحســـاب اسرائيل . ذلك ان الاتصال « الســـلمى » بين جماعتين متعاديتين من شأنه أن يسقط كثيرا من الافكار النمطية التى تتبناها كل جماعة عن الآخرى . غير انه بالاضافة الى ذلك كله ، ومن خلال الاتصال العدائى بين المقاتل الاسرائيلى والمقاتل العربى فى ميدان القتال ، تكشفت القدرات الحقيقية «للعربى» ، التى حرصت الصفوة الاسرائيلية على اخفائها وتشويهها لمدا طويلا فى الزمان .

وليس من شك أن محصلة هذا التغير ، الذى تم نتيجة للقتال البطولى للقوات المسلحة العربية ، تعد ايجابية بالنسبة للطرف العربى للصراع . فقد آن لجماهير الاسرائيلين التى خدرتهـــا الاوهام الاسرائيليـــة عن القوة النائفة لدولـــة اسرائيل ، والعجز الشـــديد للعالم العربى ، ان تفيق على الحقائق الصلبة ، وتدرك بشاعة المصير الذى رسمته الصفوة الاسرائيلية لليهودى فى المنطقة : ان يكون قاتلا او مقتولا . وليس هناك من سبيل لتحقيق السلام العادل فى الواقع ، سوى نزع الطابع الصهيونى عن دولة اسرائيل ، وانشاء دولة علمانية يتعايش فيها اليهود والعرب معا ، وليس هذا بخيال بعيد ، فقد سبق لليهود أن عاشوا فى ظل الحضارة العربية الأصيلة ، التى لا تعرف التمييز العنصرى ، الذى هو ثمرة مرة من ثمار الحضارة الغربية .

تأملات سيكولوجية حول دلالات ٦ أكتوبر

دكتور قدري حفني

ليس من شك في أن الفعل هو الذي يحدد للكلمة مدلولها وقيمتها ، وأن الممارسة هي التي تحسم في النهاية صواب أو خطأ أية صـياغة نظرية . وأبناء الأمة العربية الذين مارسوا قتال العدو الاسرائيلي في سيناء والجولان وفلسطين هم أصحاب الحق الأول — اذا لم يكن الوحيد — في تحديد المسار الصحيح للكلمة العربية حاضرا ومستقبلا . ولعل أهم معالم ذلك المسار هو تجلي حقيقة أن الممارسة القتالية العربية تمثل الامكانية الوحيدة الفعالة لخلخلة التجمع الاسرائيلي .

معارك أكتوبر .... بداية

صحيح أن التاريخ تيار متصل ، وأن الحاضر وريث الماضي . وصحيح تبعا لذلك أن كلمات « البداية » و « النهاية » تفقد مدلولها القطعي اذا ما أريد بها وصف واقعة تاريخية . ورغم صحة ذلك كله فان استبعاد هذه الكلمات نهائيا والوقوف عند حد القول بأن « التاريخ تيار متصل » يحول دون تبين حدود المراحل التاريخية ويحول بالتالي دون الاحاطة احاطة دقيقة بمفهوم التطور التاريخي .

والموقف الانسب فيما نرى هو النظر الى الواقعة التاريخية باعتبارها نهاية وبداية في نفس الوقت . نهاية لما سبقها ، وبداية لما يليها . والنظر الى الواقعة التاريخية من هذا المنظور لا يعني بحال استحالة التمييز بين الحديث عنها كنهاية والحديث عنها كبداية ، بل لعله يفرض حتمية مثل هذا التمييز . الحديث عن الواقعة التاريخية باعتبارها نهايـة حديث عن الماضي وتقص للأسباب والعوامل . والحديث عن الواقعة التاريخية باعتبارها بداية حديث عن المستقبل واستشراف للنتائج المرتقبة . والصلة الوثيقة بين السبب والنتيجة لا تنفي بحال تمايزهما .

ومعارك أكتوبر ١٩٧٣ انما هي نهاية أو نتيجة لكل ما سبقها من أحداث ووقائع تتالت منذ كارثة يونيو ١٩٦٧ أو من قبل ذلك . وهي في نفس الوقت بداية لما يليها مما يجرى ومما سوف يجرى من أحداث ووقائع . وحديثنا عن معارك أكتوبر حديث عنها بوصفها بداية ، وذلك يعني مباشرة أنه حديث عن المستقبل . له ما لاستشراف المستقبل من أهميـة ، وعليه ما على ذلك الاستشراف من مخاطر ومزالق .

بدايتنا هي ما حدث في أكتوبر عام ١٩٧٣ . والمهمة الاولى التى تواجهنا هي توصيف ما حدث . أو بعبارة أدق هي تحديد وطرح رؤيتنا لدلالة ذلك الذى حدث وهى رؤية لابد وأن تختلف باختلاف التخصص الذى ينتمى اليه الباحث ، وباختلاف الموقع الذى يتخذه داخل تخصصه . فتفاصيل الأحداث ركام هائل ، وعلينا أن نختار من وسط ذلك الركام ابرز الاحداث وأغناها من حيث دلالتها السيكولوجية بالنسبة للتجمع الاسرائيلى ، لننطلق بعد ذلك صوب محاولة التنبؤ بالآثار المتوقعة مستقبلا .

فلنحاول اختزال ماحدث في ابسط صـــورة ممكنة : لقـــد تمت مواجهة عسكرية مباشرة بين القوات المسلحة الاسرائيلية وقوات مسلحة عربية أسفرت ضمن ما أسفرت عنه من اضطرار القوات المسلحة الاسرائيلية تحت ضغط عسكرى عربى ، ولأول مرة منذ عام ١٩٤٨ الى التراجع عن أرض ســـبق أن احتلتها بالقوة المسلحة . كما أســـفرت عن وقوع أكبر قدر من الخسائر البشرية عرفه التجمع الاسرائيلى منذ اقامته .

ان اختزال الاحداث يعنى بالضرورة اسقاط العديد من التفاصيل والتركيز على أهمها من وجهة نظر الباحث . وتراجع القوات المسلحة الاسرائيلية — أيا كان حجم ذلك التراجع — بالاضافة الى كثافة الخسائر البشرية تمثل فيما نرى أهم المعالم التى تبرز وسط الركام الهائل لتفاصيل أحداث معارك أكتوبر .

وقد يبدو للوهلة الاولى أن اختيارنا لتلك الوقائع قـــد جانبه الصواب تعسفا وانحياز . فالجيش الاسرائيلى ليس أول الجيوش التى اضطرت تحت ضغط عسكرى الى التراجع عن أرض سبق أن احتلتها بالقوة ، فذلك أمر وارد ما دامت هناك حروب . والأمر بالمثل فيما يتعلق بضخامة الخسائر البشريـــة .

ان اختيارنا لهاتين الواقعتين بالتحديد باعتبارهما أهم ما حدث انما يرجع الى حقيقة أن المؤســـســـة العسكرية الاسرائيليـــة تختلف عن كافة المؤسسات العسكرية الأخرى تاريخا وتكوينا . ومن هذا الاختلاف بالتحديد نكتسب هاتين الواقعتين أهميتهما ودلالتهما السيكلوجية .

العسكرية الاسرائيلية .. التاريخ معكوسا

رغم الحداثة النســـبية لتعبير « المؤســـســـة العسكرية » فان وجود تلك المؤسسات ايا كان تعريفنا لها — أمر حتمى وطبيعى فى المجتمعات كافة . فالمؤســـسة العسكرية هي التنظيم الاجتماعى الذى يتحدد دوره فى السعى الى تحقيق اهداف الدولة اذا ما تطلب ذلك التحقيق استخدام القوة .

وما يحدث عادة فى المجتمعات « الطبيعية » هو أن ينشأ المجتمع أولا ، ثم تقوم الدولة ، وتتحدد أبعادها السياسية والايديولوجية ، وتتحدد بالتالى

التنظيمات السياسية المناسبة لتلك الابعاد واخيرا تتشكل المؤسسات العسكرية وفقا لتلك المقتضيات جميعا والأمر بالنسبة للتجمع الاسرائيلي ومؤسسته العسكرية قد اتخذ عكس ذلك المسار التاريخي الطبيعي تماما .

لقد نشأت اولى التنظيمات المسلحة الاسرائيلية على ارض فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر فى صورة منظمة الهاشومير ، وهى المنظمة التى وضع بذرتها صهاينة الحالوتس الذين اقاموا مستعمرة بتاح تكفاه فى بداية حركة الهجرة الصهيونية الى فلسطين . واتخـذت تلك المنظمة شكلها العسكرى المتميز عام ١٩٠٧ ، أى قبل قيام الدولة بما يقرب من نصف القرن واستمرت كذلك الى ان تحولت اثر وعـد بلفور عام ١٩١٧ الى المنظمة المعروفة باسم منظمة الهاجاناه التى حصلت من بريطانيا عام ١٩٣٦ على اعتراف فعلى بوجودها كمنظمة للدفاع عن المستعمرات . وخلال عام ١٩٤٢ ، وبترتيب من القيادة البريطانية ، برزت من صفوف الهاجاناه منظمة أخرى هى البالماخ التى كان على راسها ايجال الون . وقبل ذلك — فى عام ١٩٣٧ — كانت قد ظهرت منظمة الارجون زفاى ليومى التى راسها جابوتنسكى وتلاه مناحم بيجن وقد استمرت كافة تلك التنظيمات قائمة على هذه الصورة الى ان اعلن بن جوريون عشية قيام الدولة عام ١٩٤٨ قراره بحلها جميعا وادماجها فى جيش نظامى واحد ، أطلق عليه جيش الدفاع الاسرائيلى(١) .

العسكرية الاسرائيلية ... بوتقة الصهر :

اذا جاز للمشتغل بعلوم القانون أو السياسة ان يتحدث عن « الجندى الاسرائيلى » فان مثل ذلك الحديث يمثل للمشتغل بعلم النفس مشكلة حقيقية . ان كل من ارتدى بزة عسكرية اسرائيلية ، وحمل ما يشير الى أن هويته اسرائيلية ، هو فى عرف الجميع « جندى اسرائيلى » . وهو كذلك بالفعل من وجهة النظر القانونية والسياسية . ولكن ترى هل يمكن اعتباره كذلك أيضا من وجهة النظر السيكولوجية ؟ بعبـارة أخرى هل ثمة تكوين سيكولوجى مشترك يجمع بين هؤلاء الجنود جميعا ؟

لقد تكون التجمع الاسرائيلى من خليط يضم يهودا من شتى بقاع الارض ينتمون الى ما يقرب من المائة قومية . وتقوم الصهيونية فكرا وممارسة على أن ذلك الخليط المتنافر من اليهود يمثل بالفعل — أو يمكن أن يمثل — كيانا متسقا من الناحية السيكولوجية . وسعيا نحو تجسيد هذه الفكرة اعتمدت الدولة الصهيونية على العديد من المؤسسات التى تصورت أنها يمكن ان تكفل صـهر ذلك الشتات فى بوتقة واحـدة . وتحتل المؤسسة العسكرية الاسرائيلية بكافة تنظيماتها مكانا متميزا بين تلك المؤسسات .

يضم التجمع الاسرائيلى — على الأقل — فئتين كبيرتين هما الاشكنازيم والسفارديم لكل منها خصائصه السيكولوجية المميزة . فهما يتباينان مثلا من حيث النظرة الى الدين اليهودى ، والنظرة الى الزواج المختلط بينهما ، ومن حيث معدلات الانجاب ، والفرصة المتاحة للعمل ، ومعدلات الهجرة ، والهجرة المضادة ، وانماط التفكير ، وأساليب التنشئة الاجتماعية ، والتوافق الدراسى ومعدلات الجناح ، وغير ذلك كثير .

يقول عالم الاجتماع الفرنسي المعروف جورج فريدمان وهـــو بمعرض تسجيل انطباعاته عن زيارتين قام بهما لاسرائيل عامي ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ على التوالي(٢) « لقد تم بالفعل تسخير مؤسسات البلاد من أجل تشكيل الشـــباب وتعريفهم بمشاكل الوطن ، وصراعاته ، وما يتعرض له من مخاطر ، وتنشئتهم كمواطنين وطنيين لاسرائيل . ومن أكثر تلك المؤسسات أهمية الناحال وهي من الناحية النظرية فـــرع من قوات الدفاع ــ اي الجيش ــ ويتم التجنيد لها عن طريق التطوع الاختياري ... ولكن من الناحية العملية فان حركات الشباب في المدارس الثانوية وفي مواقع العمل تقوم بخلق النواة التي يتجمع حولها الجاريتيم ... ان دور الجيش ككل في التدريب المدني لا يقل أهمية عن دوره العسكري » . ثم لا يلبث فريدمان أن يمضي مؤكدا أن المهمة الشاقة التي تواجه اسرائيل ، وهي مهمة الدمج بين الاشكنازيم والسفارديم انما تقع أساسا على عاتق مجالين همـــا : الجيش ؛ ونشر اللغة العبرية .

أن وجود تـكوينين سيكلوجيين رئيسيين في اطار التجـــمع الاسرائيلي لا يعني بحال انهما على قدم المساواة من حيث الحجم أو التأثير . ولنا أن نعتبر سيكلوجية الاشكنازيم هي السيكلوجية التي تسود التجمع الاسرائيلي وهي الاجدر بتركيزنا ، وذلك لاعتبارات عديدة أهمها :

١ ــ يهود الاشكنازيم هم مؤسسو الدولة الاسرائيلية ، والقائمون على حكمها منذ انشائها حتى الآن .

٢ ــ اذا ما وضعنا في الاعتبار حقيقة أن اسرائيل تجمع من المهاجرين والمهجرين ، واذا ما وضعنا في الاعتبار أيضـــا مضمون قانون الهجـــرة الاسرائيلية الذي يقضي بمنح الجنسية الاسرائيلية تلقائيـــا لأي يهودي يعبر عن رغبته في الهجرة الى اسرائيل ، اذا ما وضعنا هذين العاملين في الاعتبار فانه يصبح واضحا أن يهود الاشكنازيم خارج اسرائيل يمثلون مخزون الهجرة المستقبلية لها .

٣ ــ يهود الاشكنازيم هم منشـــئو الحركة الصـــهيونية وقادتها على المستوى العالمي حتى الآن .

٤ ــ يسود الطابع العسكري التجمع الاسرائيلي حيث يلعب الجيش دورا رئيســـيا على المســـتوى الاجتماعي ، ويحتل الاشكنازيم المناصب الرئيسية في الجيش الاسرائيلي فضلا عن أنهم يمثلون خيرة مقاتلية تخطيطا وتنفيذا .

٥ ــ تحظى الكيبوتزات الاسرائيلية بقـــدر هائل من اهتمـــام علماء الانسانيات الاسرائيلية وغير الاسرائيليين أيضا . وليس في تلك الدراسات جميعا ما يمكن أن يفسر ضخامة حجم ذلك الاهتمام عسكريا أو اقتصاديا أو سكانيا . والتفسير الأساسي الذي يمكن الركون اليه ــ فيما نرى ــ هو دور الكيبوتز كقدوة اجتماعية وسيكلوجية لذلك الشتات الذي يضمه التجمع الاسرائيلي . والاشكنازيم هم أصحاب تلك الكيبوتزات . صنعوها على عيونهم ، وقاموا بتمويلها وتسليط الأضواء عليهـــا . ومن ثم فهي مؤسسات أشكنازية قلبا وقالبا .

وقد كشفت دراسات قمنا بها للمكونات السيكولوجية للاشكنازيم الاسرائيليين عن عدد من الخصائص السيكولوجية الأساسية التى تشكل فى تفاعلها ما يمكن أن تطلق عليه شخصيةالجماعة الاشكنازية الاسرائيلية . وكانت تلك الخصائص هى : العدوانية ، والانطوائية ، والتمركز حول الذات ، والتشاؤم ، والتشكك ، والجمود ، واللاانفعالية(٣) .

وتتسق تلك الخصائص السيكولوجية للاشكنازيم الاسرائيلين اتساقا تاما مع الخصائص الايديولوجية للفكر الصهيونى وما يتميز به من ميل الى العنف وحض عليه ، وما يروج له من دعاوى استعادة أرض الميعاد ، وتحقيق رسالة شعب الله المختار ، وما الى ذلك(٤) بل ان تلك الخصائص السيكولوجية تكاد تكون ترجمة سيكولوجية مباشرة للمناخ الذى كان يسود الجيتو اليهودى الأوروبى حيث تتضخم الى اقصى حد مشاعر الاحساس بالاضطهاد وبالتمايز .

وتقوم المؤسسة العسكرية الاسرائيلية من خلال تنظيماتها المختلفة بتدعيم ذلك التكوين السيكولوجى ونشره وتسييده فضلا عن ضبط وتوجيه وتنظيم أساليب التنفيس عما يفجره ذلك التكوين من طاقات عدوانية . فعلى المستوى الاجتماعى تقوم المؤسسة العسكرية بدورها فى صهر شتات المهاجرين الذين يضمهم التجمع الاسرائيلى . وعلى المستوى الايديولوجى تقوم المؤسسة العسكرية بدورها فى تجسيد العنف الصهيونى باعتبارها الأداة العملية لاستعادة أرض الميعاد وتحقيق رسالة شعب الله المختار فضلا عن نجاحها فى اقامة وحماية الدولة الصهيونية . وعلى المستوى السياسى تقوم المؤسسة العسكرية من خلال صورة « الجيش الذى لا يقهر » بكفالة الأمن الاسرائيلى ، ليس لمن يضمهم التجمع الاسرائيلى فحسب ، بل أيضا ليوهد العالم المدعوين للهجرة الى فلسطين . وعلى المستوى السيكولوجى تقوم المؤسسة العسكرية بدورين متكاملين فهى بما تخلقه وتدعمه من طابع عسكرى يسود التجمع الاسرائيلى تكفل مصدرا لا ينضب لتضخم مشاعر الاضطهاد ، وتوقع الخطر ، وما الى ذلك من مشاعر هى أفضل المصادر لتفجير الطاقات العدوانية . ومن ناحية أخرى تقوم المؤسسة العسكرية بدور الضابط والموجة لتلك الطاقات العدوانية التى عملت على تفجيرها بحيث تضمن توجيهها الى الأهداف المطلوبة .

ومن هنا فان اضطرار الجيش الاسرائيلى الى التراجع تحت ضغط عسكرى عن أرض سبق أن احتلها ، وتحمله لخسائر بشرية كثيفة من جراء ذلك انما يعنى تهديدا خطيرا لكافة تلك الأدوار الموكلة الى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية . وبالتالى فانه يعنى تهديدا لجوهر الابنية الفوقية الاسرائيلية .

فمن الناحية الايديولوجية يمثل التراجع عن جزء تم الاستيلاء عليه من « أرض الميعاد » سابقة لها دلالاتها الايديولوجية الخطيرة . فهى تعنى أن العنف الصهيونى لا يمثل الحصان الرابح دائما . وأن تفوق أبناء « شعب الله المختار » أمر قابل للمناقشة . وبالتالى فان الدلالة التاريخية لاقامة دولة اسرائيل تصبح بدورها عرضة للاهتزاز .

ومن الناحية الاجتماعية فان تخلخل صورة الاشكنازى المحارب المنتصر دوما يؤدى الى مزيــد من احتمالات فشــل عملية الصهر الاجتماعى بما تســتهدفه من ضــمان ســيادة الطابع الاشكنازى على ابنــاء التجمع الاسرائيلى .

ومن الناحية السياسية فان اضطرار الجيش الاسرائيلى الى التراجع ، فضلا عن خسائره البشرية الجسيمة انما يعنى تهديدا لصورة الجيش الذى لا يقهر ، وبالتالى لما تمثله المؤسسة العسكرية ليهود اسرائيل وليهود العالم من ضمان للأمن الشخصى .

أما من الناحية السيكلوجية فان ماحدث يكتسب دلالتين متكاملتين فهو يعنى من ناحية تهديــدا لمشاعر الامتيــاز والتفوق الحاسم ، ويعنى من ناحية ثانية تأكيدا لمشاعر الاضطهاد والتعرض للمخاطر . او بعبارة أخرى فانه يعنى تهديــدا لسيكلوجية « اسرائيل الكبرى القويــة الغادرة » ، وتدعيما لسيكلوجية « اسرائيل الصغيرة المهددة الضعيفة » ، وكلتاهما أساس راسخ للسيكولوجية الاسرائيلية الاشكنازية .

وماذا بعــد ؟

ترى هل فى مقدورنا الآن استشراف ملامح الطريق الذى نتوقع أن تمضى فيه السيكولوجية الاسرائيلية ؟ ان القضية ــ فيما نرى ــ ليست قضية « الاستطاعة » بقدر ما هى قضية « الضرورة » .

ان استشرافنا لتلك الملامح قد يبدو أمرا محفوفا بالمخاطر والمنزلقات ، وهو كذلك بالفعل . وقد تبدو المعرفة التى حصــلناها عن السيكولوجية الاسرائيلية أقل بكثير مما كان ينبغى توافره لدينا ، وهى كذلك بالفعل . ومن ناحية أخرى فان الأحداث تتلاحق ، وتتوالى تبعــا لذلك التغيرات على الموقف السياسى والعسكرى ، ويترك ذلك كله آثاره على تحديد معالم هذا الطريق الذى نسعى الى استشرافه . تلك كلها صعاب ومخاطر قائمة بالفعل . وهى تحد ــ بلاشك ــ من مدى الاستطاعة ولكنها لا تعنى بحال انتفاء للضرورة . بل على العكس فلعلها تضاعف من الحاح تلك الضرورة .

ان مكونات شخصية الجماعة جــزء من بنائها الفوقى فضلا عن أنهــا محصلة لكافة العوامل التى تمارس تأثيرها على تلك الجماعة سواء كانت عواملا اقتصــادية أو اجتماعية أو عسكرية أو سياسية أو ما الى ذلك وبالتالى فان تغير ردود الفعل السيكولوجية الصادرة عن جماعة معينة انما يتوقف فى النهاية على تغير تلك العوامل المؤثرة فى الجماعة .

ومن هنا فان اقدامنا على التنبؤ بردود الافعال التى نتوقع صدورها عن الشخصية الاسرائيلية التى عرضنا ملامحها ومكوناتها لابد وأن يستند الى واحد من منطلقين :

الأول : أن نحصر بقدر المستطاع احتمالات محصـــلات تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية .. الخ المحيطة بالموقف الراهن والمؤثرة فيه . محاولين بعد ذلك التوصل الى تنبؤ سيكولوجى مقابل لكل من تلك المحصلات المتوقعة .

الثانى : أن نختار احتمالا واحـــدا نراه الأهم أو الارجح أو الاخطر محاولين صياغة تنبئنا السيكولوجى مفترضين تحقيق هذا الاحتمال .

ولاشك لدينا فى أن المنطلق الأول هو الاقرب الى الاكتمال نظريا ، وهو الاقرب أيضا الى الثراء تطبيقيا . الا أن الالتزام به يتطلب بالضرورة توافر صورة الفريق المتعدد التخصصات وهو الأمر الذى نأمل أن يتاح تحققه

فى أقرب وقت وعلى أعلى المستويات . أما ولم يعد أمامنا سوى المحاولة الفردية فليس فى مقدورنا سوى الاعتماد على المنطلق الثانى ، أى المفاضلة بين الاحتمالات المختلفة واختيار واحد أو بعضا منها .

ان الاحتمالات عديـــدة تفوق الحصر وليس أمامنا فى البدايـــة سوى اختزالها الى عدد محدود على أساس من تمايز التأثير المتوقع حدوثه على الاستجابات السيكولوجية الاسرائيلية . واذ ما سلمنا بذلك الأساس وجدنا أنفسنا حيال احتمالين محددين :

الاحتمال الأول : أن تمضى الأمور فى الاتجاه المطلوب اسرائيليا بحيث تتمكن اسرائيل عسكريا وسياسيا من تدارك ما خلفته معارك أكتوبر ، واستعادة الهيبة الاسرائيلية من جديد .

الاحتمال الثانى : أن تمضى الأمور فى الاتجاه المطلوب عربيا بحيث تجبر اسرائيل عســكريا وسياسيا على الرضـــوخ للحد المشترك من المطالب العربية .

وقد يبدو اننا خلال عملية الاختزال هذه قد أسقطنا العديد من الاحتمالات التى قد يكون حدوثها هو الاقرب الى التوقع مفضلين اختيار احتمالين هما الاقرب الى التمنى عربيا واسرائيليا . ولا مناص — ولا ضير أيضا — من التسليم بأن هذا صحيح تماما . ان اختيارنا لهذين الاحتمالين المتطرفين يتيح لنـــا ولغيرنا امكانيات اســـتنتاج الاحتمالات الأخرى وتوقع آثارها نسبيا . فضلا عن أن هذا الاختيار يصـــور الحدود القصوى المفترضة لاحتمالات تغير ردود الفعل المتوقعة .

وفى وسعنا ان نمـــر مسرعين بالاحتمال الأول ، احتمال الاقتراب من تحقق التمنى الاسرائيلى . وسرعتنا فى المرور به تنبع من أن تحققه لن يمثل — فيما نظن — تغيرا جوهريا فى ردود الفعل الاسرائيلية المعروفة ، وان كان المتوقع أنه سوف يشحذها ويضخمها ويزيد من ظهورها . أى أنه سوف يؤدى الى المزيـــد من المشـــاعر الاضطهادية ، والى المزيد من الاحساس بالخطر ، والى المزيد من العدوانية الى آخره .

اما الاحتمال الثانى فهو الذى يستحق منا وقفة متأنية باعتباره الاحتمال الذى يمكن أن يترك آثارا بعيدة المـدى على الشخصيـة الاسرائيلة . ونستطيع أن نتصور فى حدود هذا الاحتمال أن ردود الافعال التى صدرت ، والمتوقع صدورها عن التكوين السيكولوجى السائد فى اسرائيل يغلب أن تتخذ مسارا مرحليا محددا لعله أن يكون على الوجه التالى :

اولا : الرفض

اصبحت فكرة انتقائية الادراك من الأفكار الكلاسيكية فى علم النفس . فقد اصبح من المسلم به أن الانسان لا يدرك كل ما يقع على حواسه من مؤثرات بل انه لينتقى منها أشـياء ويترك أخرى . ونستطيع أن نقول ــ تبسيطا ــ أن الانسان يدرك ما يريد أن يدركه ويرفض ، أو بالأخرى يعجـز عن ادراك مالا يود ادراكه . ذلك هو شأن البشر جميعـا رغم تفاوت درجات انتقائيتهم هذه من فرد الى آخر ومن موقف الى آخر .

ولنضف الى تلك الصفة العامة صفة أخرى تميز الشخصية الاسرائيلية هى الجمـود . ان البحوث التى أجريت فى مجال الشخصية الاسرائيلية وتعرضت بالفحص السيكولوجى لتلك الخاصيـة تجمع على تأكيد اتصاف الاشكنازيين الاسرائيلين ضمن ما يتصفون به بخاصية الجمود . وتتعدد الصيغ التى تتخذها التعبير عن تلك الخاصيـة لديهم سواء كانوا أطفالا أو راشدين . ونشمل تلك الصيغ الانصياعية ، والتلق فى المواقف الجديدة ، وعدم القدرة على تحمل الغموض ، والميل للسلطوية (٢) . ورغم تعـدد تعريفات الجمود فى التراث السيكولوجى العام الا أن تلك التعريفات جميعا تتفق رغم تنوعها على أن الجمود يعنى ضمن ما يعنيه العجز عن ادراك التغيرات الجديدة التى تطرأ على موقف معين .

ويمكننا من خلال مفهومى « انتقائية الادراك » و « الجمود » أن نتصور ملامح الاستجابة السيكولوجية الأولى الصادرة عن الشخصية الاسرائيلية قبيل ظهيرة اليوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ومع بداية وقوع الأحداث . ان صورة العرب لدى الاسرائيلين والتى خلفتها أساسا كارثة يونيو ١٩٦٧ هى صـورة المنهزمين المتخلفين ضـعاف الحيلة الذين تمزقهم خلافاتهم وصراعاتهم ومخاوفهم من بعضهم البعض والذينقد يتحدثون جيدا وكثيرا ولكنهم لايصنعون شيئا أو يقدرون على صنع شىء مجد(٥) وكان منطقيا ان تلقى تلك الصورة هوى لاحد له لدى الاسرائيليين . فهى الصورة المناقضة لتصورهم لانفسهم متحدين بل منصهرين ، لهم اليد القوية الطولى فى المنطقة يستطيعون فرض ما يريدون فى الوقت الذى يختارونه . ويؤكدون امتيازهم وتفوقهم فى كل لحظـة . وكان طبيعيا والحال كذلك أن يزداد تمسك الاسرائيلين بتلك الصورة التى كونوها عن العرب .

وبدأت استعدادات القتـال ، أى بتعبير سيكولوجى ، بدأت معطيـات الموقف الادراكى فى التغيير . وتكاد المصـادر العربية والاسرائيلية تجمع الآن على أن المعلومات التى كانت متوافرة لدى القيادة الاسرائيلية قبيل

نشوب القتال وفى الساعات الأولى من نشوبه كانت تنطق بما لا يدع مجالا للشك فى أن العرب سوف يقاتلون .

ولكن العقل الاشكنازى الاسرائيلى ظل فى البداية لائذا بجموده محتميا به رافضا ــ رغم كل ما لديه من معلومات ــ التسليم بأن العرب يستعدون بالفعل للقتال . واستمر العقل الاسرائيلى حتى اللحظات الأولى لبداية القتال الفعلى عاجزا ــ رغم كل امكانياته وقدراته ــ عن الفكاك من أسار ما اطمأن اليــه من أفكار قديمة عن عجز العرب وهوانهم واســتحالة اقدامهم على القتال .

ولعلنا بهذا التصور السيكولوجى قد اسهمنا بلمسة ضوء فى تفسير ذلك الموقف الذى شهدته الساعات الأولى السابقة مباشرة لبدء القتال والتالية مباشرة عليه . موقف واضح لا يحتمل لبسا . وعقل واع متمرس بأعمال الاســتطلاع والاستخبار . ومع ذلك يعجــز العقل الواعى عن ادراك ما رصده من معالم الموقف الواضح .

ثانيا : الاحتواء

لم تستمر الاستجابة بالرفض طويــلا بطبيعة الحال . بل سرعان ما تحولت الى محاولة احتواء ما حدث احتواء عقلانيا . واتخذ تلك المحاولة صورا ثلاثا متتالية متداخلة :

الصورة الأولى : التهوين

كانت الصورة الأولى من صور محاولة الاحتواء العقلانى لما حدث هى السعى نحو التهوين من حجم ذلك الذى حدث ومن دلالتــه . التقليل من حجم الخسائر الاسرائيلية والتقليل من قيمة المكاسب العربية . ولعل خير ما يجسد صورة التهوين هذه تصريح دايان بأن خط استحكامات بارليف كان أشبه بالجبن الجرويير التى تحوى من الثقوب أكثر مما بها من الجبن .

الصورة الثانية : التبرير

ليس للتهوين مهما بلغت كفاءته أن ينجح فى الغاء ما حــدث تماما . ولذلك لم يكن بد من الالتجاء الى التبرير بهدف جعل الانجاز العربى بمثابة الاستثناء الطارىء لا القاعدة الثابتة . ولقد أفرز العقل الاسرائيلى الكثير من التبريرات لــما حدث . ورغم تنوع تلك التبريرات وتعددها فانهــا فى عمومها كانت تدور حول محورين متكاملين :

(أ) أن المعارك كانت مفاجئة للاسرائيليين .

(ب) أن الاسرائيليين لم يكونوا على أهبة الاستعداد للقتال .

وكلا الحجتين تخدم الهدف الأساسي الاسرائيلي ، وهو تأكيد أن انجاز السادس من أكتوبر ليس سوى الاستثناء العارض ، وأن القاعدة هو ما حدث خلال كارثة يونيو ١٩٦٧ . ان عنصرى « المفاجأة العربية » و « عدم الاستعداد الاسرائيلي الكامل » يتسمان بطبيعتهما بعدم الاستمرار أو بعبارة أدق بعدم القابلية للتكرار المنتظم .

« ان النتائج الأولى لقتال مفاجىء لا يمكن أن تعبر عن حقيقة علاقات القوى بين الأطراف المتحاربة » تلك هي الفكرة التى سعت التبريرات الاسرائيلية الى ترسيخها فى اذهان الاسرائيليين و « تسويقها » الى الخارج كلما أمكن ذلك . وهى على أى حال فكرة تتفق تماما مع التكوين السيكلوجي الاسرائيلي السائد ، وتدعمه دعما لا حد له . تتفق معه بتأكيدها أن اسرائيل هي الأقوى والأرقى والأقدر . وتدعمه بتأكيدها أنه اذا كان ثمة جرح هين أصاب اسرائيل فانه أصابها استثناء وفى غفلة من الزمن . ومثل ذلك التأكيد بالتحديد هو ما يمكن أن يسهم اسهاما فعالا فى تهيئة المناخ السيكلوجي الأنسب لتفجير أقصى طاقات العدوان لتصحيح « الاستثناء » واعادة الأمور الى نصابها .

الصورة الثالثة : الوعيد

تكتمل حلقات محاولة الاحتواء العقلانى الاسرائيلي لما حدث بصورة الوعيد « الانجاز العربى الهين الاستثنائي سوف تسحقه على الفور القوة الاسرائيلية التى لا تقهر لتعيد نتائج القتال الى التعبير عن حقيقة توازن القوى بين الأطراف المتحاربة » . ولقد نجحت اسرائيل فى نشر تلك الفكرة داخليا — بل وخارجيا الى حد ما — بحيث أصبح التساؤل هو : بعد كم ساعة سوف تتمكن اسرائيل من سحق العرب ؟ وتشير التقارير التى نقلتها وكالات الأنباء الغربية الى أن الرأى العام الاسرائيلي قد بدأ فى التململ قلقا ولم تمض على القتال أربع وعشرون ساعة بسبب تباطؤ الانتصار الاسرائيلي .

ثالثا : التنمر

تقوم السيكلوجية الاسرائيلية كما أسلفنا على جذر أساسى هو تضخم أو تضخيم الشعور بالاضطهاد . والى هذا الشعور بالتحديد يمكن دون تعسف أن نرجع غالبية السمات أو الخصائص التى اتضح لنا أنها تميز الشخصية الاسرائيلية الاشكنازية . ان التراث السيكلوجي ليفيض بالدراسات والبحوث التى تجمع على اختلاف أساليبها ومناهجها ومسلماتها النظرية على قضية واحدة هى : أن احساس الفرد بعدوانية يواجهها من المحيطين به ، وسواء كان هذا الاحساس حقيقة أو خيالا وسواء كان عدوانا متوقعا أو ممارسا بالفعل ، لا يمكن أن يؤدى الا الى عدوانية مقابلة يوجهها الفرد الى هؤلاء الآخرين . وقد تتعدد وتتنوع الصور الظاهرة للأهداف التى يمكن أن تتجه اليها تلك العدوانية الى حد أنها قد ترد أحيانا الى صاحبها عنيفة قوية تكاد أن تدمره تدميرا ولكن العين الدربة لا تجد صعوبة كبيرة

فى اكتشاف أن المصدر الحقيقى لهذا العدوان ايا كان التواء السبيل الذى اتخذه انما هو الشعور بالاضطهاد ، وأن الهدف الأصلى لهذا العدوان انما هو الآخرون .

ومن ناحية أخرى فان التراث السيكولوجى ليفيض ايضا بما لا حصر له من الدراسات التى تربط بين تصور الفرد لعدوانية البيئة المحيطة به وبين انطوائيته وجموده وتشاؤمه وتشككه وتمركزه حول ذاته ولا انفعاليته ولسنا فى مجال التعرض التفصيلى لما تزخر به تلك الدراسات من تفاصيل بالغة الثراء .

ولو انتقلنا من الحديث عن « الاحساس بالاضطهاد » كجذر اساسى لخصائص الشخصية الاسرائيلية ، ومن الحديث ايضا عن دلالة الاحساس بالاضطهاد فى التراث السيكولوجى العام ، الى الحديث مرة أخرى عما حدث فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ لاتضح لنا جوهر تلك المرحلة التى توشك أن نتناولها : مرحلة التمزق .

ان أهم ما حدث سيكولوجيا فى الفترة من السادس من اكتوبر حتى الثانى والعشرين منه انما يتمثل — كما سبق أن أشرنا — فى اضطرار القوات المسلحة الاسرائيلية الى « التراجع عن جزء من الأرض سبق أن احتلته بالقوة المسلحة » ، ومعنى ذلك على وجه الدقة أن الجيش الاسرائيلى قد اصيب بجرح ما ، ليس بالسطحى ولا بالقاتل ايضا . والفرق بين الحالة الأخيرة وسواها هو الفرق بين « التراجع » و « التسليم » . أو بين « الجزء » و « الكل » أو بين « الخسائر البشرية الجسيمة » و « الافناء » . خلاصة القول ان القوة العسكرية الاسرائيلية — وفقا لما تقول به مختلف التقديرات العسكرية — لم يقض عليها وأن كانت قد أصيبت أصابة لا يمكن التقليل من شأنها .

أن الموقف الراهن للسيكولوجية الاسرائيلية يكاد يمثل انعكاسا دقيقا لموقف القوة العسكرية الاسرائيلية . قوة عسكرية عدوانية تعرضت لضربة قوية حقا ولكنها — لظروف عديدة — لم تقض عليها تماما . سيكولوجية عدوانية تقوم اساسا على تضخيم الشعور بالاضطهاد تلقت ضربة قوية لم تتمكن من احتوائها تهوينا أو تبريرا أو وعيدا . وفى نفس الوقت فان هذه الضربة وحدها لم تكن بالكافية للاجهاز تماما على السبيل العدوانى للتعبير عن هذا الشعور بالاضطهاد .

يردد البعض أحيانا مثلا سائرا مؤداه ان الضربة التى لا تقضى على الوحش المفترس تزيد من وحشيته . وليس أصدق من هذا المثل انطباقا على العسكرية الاسرائيلية والسيكولوجية الاسرائيلية على حد سواء . وعلى أى حال فلنترك الحديث عن العسكرية لابنائها محاولين أن نقصر حديثنا على السيكولوجية الاسرائيلية فحسب .

لقد ادت معارك أكتوبر فيما نتصور الى تضخيم مشاعر الاضطهاد القائم اساسا فى السيكولوجية الاسرائيلية . ونستطيع من خلال تتبعنا لما تناقلته

وكالات الأنباء الغربية ــ فضلا عن المصادر الاعلامية الاسرائيلية المتاحة ــ منذ بداية المعارك حتى الآن أن نتبين العديد من الملامح التى تشير بالفعل الى تضخم شعور الاسرائيليين بالاضطهاد أو على الأقل سعى السلطة الاسرائيلية الى تضخيم ذلك الشعور . وأهم تلك الملامح فيما نرى هى :ــ

(أ) لقد كان الاعلام الاسرائيلى يركز قبل كارثة يونيو ١٩٦٧ على فكرة أن العرب « يريدون » تدمير اسرائيل ، واستمرت تلك الفكرة تتردد بدرجات متفاوتة . ولقد اتخذت تلك الفكرة بعد معارك ١٩٧٣ صورة متطورة هى أن العرب قد « حاولوا بالفعل » تدمير اسرائيل . وأن ما حال بينهم وبين التحقيق الكامل لما حاولوه هو تلك الاراضى التى احتلتها اسرائيل عام١٩٦٧ .

(ب) ابدى الاعلام الاسرائيلى تركيزا على موقف أوربا الغربية خلال المعارك وعلى أثرها مؤداه «خيانة» دول أوربا الغربية لاسرائيل و«تخليها» عنها بمجرد اهتزاز قبضتها العسكرية القوية .

(جـ) ابدى الاعلام الاسرائيلى كذلك فى تناوله لموقف الدول الافريقية بعض الافكار التى تدور حول أن تلك الدول لم تتردد فى أن تقلب ظهر المجن لاسرائيل رغم ما تلقته منها من مساعدات وأن « تنكر » تلك لاسرائيل انما يرجع الى اهتزاز صورة اسرائيل القادرة .

(د) أبرز الاعلام الاسرائيلى أيضا أن اسرائيل قد فوجئت ــ ضمن ما فوجئت به ــ بمقدرة العرب على أساليب القتال الحديث المتطور وذلك يعنى من الناحية السيكلوجية ابراز قوة المضطهد (بكسر الهاء) حفزا لمشاعر المضطهد (بفتح الهاء) .

تلك الملامح جميعا انما تعنى ــ فيما نرى ــ أن الشعور بالاضطهاد يبلغ الان أوجه فى اسرائيل تضخما وتضخيما . بل اننا نستطيع القول ــ تصورا ــ أن مشاعر الاضطهاد فى اسرائيل تبلغ الآن حدا لم تبلغه من قبل . اللهم الا فى تلك الشهور القليلة السابقة مباشرة لنشوب المعارك فى ١٩٤٨ والمصاحبة لبدايتهـــا .

ونستطيع فضلا عن ذلك أن نمضى فى تصورنا الى القول بأن القيادة الاسرائيلية لا تملك استثمارا أو توجيها أو تحكما فى تلك المشاعر الاضطهادية سوى بدفعها الى التفجير تحاشيا لاندفاعها صوب الانفجار . وغنى عن البيان أن التفجير المنظم وهو البديل الوحيد للانفجار التلقائى لا يمكن أن يتم الا من خلال المؤسسة العسكرية الاسرائيلية القائمة أساسا على تنظيم العدوانية الاسرائيلية .

خلاصة القول اننا لا نستطيع أن نتصور من الناحية السيكلوجية سوى أن القيادة الاسرائيلية ، انما تستجمع وتجمع كل طاقاتها العدوانية الآن بهدف محدد هو « أن تمضى الأمور فى الاتجاه المطلوب اسرائيليا بحيث تتمكن اسرائيل عسكريا وسياسيا من تدارك ما خلفته معارك أكتوبر واستعادة الهيبة الاسرائيلية من جديد » .

وإذا كانت تلك هى طبيعة المرحلة السيكلوجية الراهنة التى يمر بها التجمع الاسرائيلى ، وإذا كان المرجح سيكلوجيا تبعا لذلك أن تحاول اسرائيل تطوير عدوانها حيال العرب ، فإن تحقيق ذلك على مستوى الممارسة العملية أمر لا تحسمه ولا يمكن أن تحسمه التصورات السيكلوجية على أى حال . فهو لا يمكن أن يكون إلا نتاجا للعديد من العوامل الدولية والمحلية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية البالغة التشابك والتعقيد والتى لا ينفى أى منها الآخر ولا يحل محله . ومن ناحية أخرى فانها جميعا لا تنفى ولا تقلل من حقيقة أن التجمع الاسرائيلى الآن ، وعلى المستوى السيكلوجى ، انما يمر بمرحلة آثرنا أن نطلق عليها « التنمر » .

رابعا : التفكك

ترى ما الذى يحدث اذا ما حالت الظروف عسكريا وسياسيا دون تمكن القيادة الاسرائيلية من تفجير الطاقات العدوانية تفجيرا منظما ناجحا يحقق أهدافها ؟ . بعبارة أخرى ما الذى يمكن أن يحدث على المستوى السيكلوجى اذا ما استطعنا عسكريا وسياسيا تحرير الأرض العربية المحتلة كاملة بما يعنيه ذلك من قضاء على عسكرية التجمع الاسرائيلى ؟ لقد سبق أن أشرنا أنه ليس من بديل — فى تصورنا — للتفجير سوى الانفجار . وبالتالى فاذا ما فشلت طاقات العدوان الاسرائيلية فى تحقيق أهدافها الخارجية فليس من أمامها آنذاك سوى التفكك داخليا .

وقبل أن نمضى الى الحديث عن مظاهر ذلك التفكك كما نتصورها ينبغى أن نؤكد مرارا ودون ملل اننا الآن انما نتحدث عن « مستقبل » ، مرجو ولكنه ليس مرئيا ، محتمل ولكنه ليس قريبا . هو بالتأكيد يدخل فى نطاق التصورات الممكنة لعقولنا . ولكنه — وبالتأكيد أيضا — لا يدخل فى نطاق التناول الممكن لأيدينا الآن . وتصور المستقبل بعيدا كان أو قريبا هو فى حقيقة الامر ضرورة وليس ترفا بل لعله خطوة لابد منها لصنع ذلك المستقبل أو الاسهام فى صنعه . الا أن الخطر الحقيقى انما يتمثل فى تصور المستقبل كما لو كان حاضرا . والأمل كما لو كان واقعا . وآنذاك لا يصبح هذا التصور سوى قيد يعوق دفع الحاضر الى المستقبل ، والسعى بالأمل الى بلوغ الواقع . وليس أخطر على النضال التاريخى من التعامل مع الأمل كما لو كان واقعا ، ومع المستقبل كما لو كان حاضرا .

ولنمض قدما بعد تلك التحذيرات والتحوطات فى سبيل محاولة تصور ملامح ذلك « التفكك » . أن ما نعنيه بالتحديد « التفكك » هو تحول الطاقات العدوانية عن أهدافها الخارجية الاصلية الى أهداف داخلية جديدة . وظاهرة انتقال العدوان من هدف أصلى الى هدف « مصطنع » سواء كان ذلك الهدف الجديد خارجيا و داخليا ظاهرة عرفها التراث السيكلوجى منذ فترة طويلة . أنها ظاهرة ازاحة العدوان Displacement of agression ولعلها — فيما نتصور — من الظواهر النفسية القليلة التى تصدق على السلوك الجماعى بقدر صدقها على السلوك الفردى . وعلى أى حال فان

تخلى العدوان عن هدفه « الطبيعى » واستبداله بهدف آخر لا يتحقق الا حين يفقد الهدف الطبيعى امكانياته كهدف لتلقى العدوان . ولا يمكن لذلك أن يتحقق فى حالتنا هذه الا بأن يصبح العرب بوصفهم الهدف الطبيعى للعدوانية الاسرائيلية مصدرا مؤلمــا شديد الايلام للسيكولوجية الاسرائيلية فى سعيها العدوانى ، وذلك هو ما سبق أن عبرنا عنه باحتمال استطاعتنا عسكريا وسياسيا تحرير الأرض العربية كاملة .

وعلى اى حال فان الدراسات السيكولوجية العديدة التى اجــريت على الاشكناريم الاسرائيليين والتى تناولناها فى بحث آخــر بتحليل مفصل (٧) تشير بوضــوح الى القابلية الملحوظة التى يبديها هؤلاء الاسرائيليون فى ممارسة ازاحة العدوان من هدف « قوى » الى هدف « مستضعف » أو الى ما يعرف اصطلاحا بكباش الفداء .

ونستطيع ان نتصور أهم الاهداف الداخلية الجديدة التى سوف يتجه اليها العدوان الاسرائيلى فى مرحلة التفكك هذه كما يلى :

(أ) الاقلية العربية : ان الاقلية العربية ليست جزءا عضويا من نسيج التجمع الاسرائيلى ، ولعلها لهذا السبب بالتحديد سوف تكون فى مقدمة الاهداف التى يمكن ان تتجه اليها العدوانية الاسرائيلية وهى فى طريقهــا للارتداد الى الداخل .

(ب) السفارديم : ان فشل المؤسسة العسكرية الاسرائيلية فى تنظيم تفجير العدوان الاسرائيلى لابد وان يعنى فشلا على نفس المستوى فى اداء تلك المؤسسة لدورها كبوتقة صهر لذلك التجمع ، وبالتالى الى تزايد تعرض السفارديم لدور كباش الفداء . خاصة وان العداء المتبادل بين الفئتين ليس بالامر المستحدث .

(ج) يهود الدياسبورا : لعله يبدو غريبا — للوهلة الاولى — أن ندرج يهود الدياسبورا ضمن الاهداف المحتملة عند تحول العــدوان الاسرائيلى الى الداخل نظرا لانهم يقعون بالفعل خارج الحدود الجغرافية لذلك التجمع . والامر بايجاز هو أن ما يقع فى نطاق الداخل سيكولوجيا لا يتحتم بالضرورة أن يكون ضمن ما يقع فى ذلك النطاق جغرافيا ايضا . فضلا عن الصراع بين يهود اسرائيل ويهود الدياسبورا يضرب بجذوره الى قديم وان تعددت صوره واشكاله . ولعل ابرز تلك الصــور صــورة الصراع بين « الاسرائيلية » « واليهودية » (٨) .

(د) كباش فداء اشكنازيه : ليس من المستبعد بل لعله الاقرب احتمالا ان يظهر عدد من كباش الفداء الاشكنازية تكون هدفا للعــدوان فى هــذه المرحلة وينبغى أن نفرق بين مستويين متصورين للوجود المحتمل لهــذه الظاهرة : المستوى الاول وفيه قد تقدم القيادة الاسرائيلية واعية راغبة على التضحية ببعض رجالها لضمان بقائها ووحدة صفوف اتباعها . أما المستوى الثانى فهو الذى يفرض فيه على القيادة الاسرائيلية كرها أن تفرز من بين صفوفها كباش فداء تتحمل دورها كأهداف للعدوان . وأهمية التفرقة بين المستويين غنية على البيان .

ليست تلك سوى نماذج من الاهداف التى يمكن أن تتجه اليها العدوانية الاسرائيلية ويمكننا تصور مالا نهاية له من هذه الاهداف المحتملة ، ويمكننا أيضا تصور مالا نهاية له من القضايا التى يمكن أن تقدم من خلالهــا تلك الكباش والحجج التى قد يحتمون بها .

خلاصة القول أن فكرة التفكك هذه رغم ما تمثله فيمـــا نرى من حتم تاريخى لابد من احاطتها بايضاحات نظرية :

١ ــ أنه ليس تفككا تلقائيا ذلك الذى نتحدث عنه بل هو تفكك ناتج عن مواجهة عربية فعالة ومؤثرة ومستمرة .

٢ ــ أنه ليس تفككا قريبا فى متناول اليد ولا حتى مرئيا فى نطاق البصر بل أنه مجرد أمر متوقع رغم حتميته . واستبعادنا لحدوثه فى المدى القريب لا يرتبط بحال بتهوين من قدراتنا بل أنه يرجع فى المقام الأول الى حقيقة علمية قوامها أن التغيرات الفوقية لا يمكن الا أن تكون تالية تاريخيا للتغيرات التحتية . وليس التغيير السيكولوجى سوى تغير فوقى على أى حال .

٣ ــ ان التفكك وفقا لتصورنا له لا يعنى بحال النهاية بــل هو مرحلة يمكن أو لا يمكن أن تتبعها مباشرة النهاية . ذلك اذا كان ثمة مجال للحديث عن نهايات فى التاريخ .

٤ ــ أن التفكك وفقا لتصورنا له أيضـــا يستحيل ان يتحقق اختيـــارا اسرائيليا ، بل هو بالضرورة اضطرار اسرائيلى تحت اجبار عربى .

خامسا : الانقسام

ذكرنا فى بداية هذا الحديث ان كلمات البداية والنهاية تفقد مدلولهــا القطعى اذا ما اريد بها وصف واقعة تاريخية . رغم ذلك ، ورغم أن حديثنـــا هو فى جوهره وسواء كان تنبؤا أو تسجيلا حديث عن وقائع تاريخية ، رغم كل ذلك فلابد من أن نبحث لحديثنا عن نقطة نهاية قد تكون متعسفة ولكنهـــا ضرورة والا استمر الحديث عن التاريخ متصلا بلا انقطاع وهو مالا طاقة لاحد به مستمعا أو متحدثا .

ولتكن نقطة نهاية حديثنا هى محاولة المضى قدما فى استطلاع المستقبل متصدين للاجابة عن تساؤل مؤداه بايجاز وماذا بعد التفكك ؟

انفجار التجمع الاسرائيلى عدوانا مرحلة حتمية فيما نتصور وكما أشرنا . ولكن ماذا بعد تلك المرحلة ؟ ما الـــذى يمكن أن تنتهى اليه أو تنتهـــى به الشخصية الاسرائيلية الاشكنازية التى عرفناها ؟

اتصور أن اصحاب التكوين السيكولوجى الاشكنازى الاسرائيلى ســـوف ينقسمون فى المستقبل البعيد الى قسمين متمايزين : ــ

القسم الأول : الرافضون

واعنى بهم اولئك الذين لن يتمكنوا من استيعاب الواقع الجديد ،وبالتالى فسوف يظلون متمسكين بالاطار السيكولوجى العـــام للتكوين الاشكنازى الاسرائيلى ، اعنى الاطار القائم على الشعور بالاضطهاد والشعور بالتمايز. واذا كان تضخيم هذين الشعورين قد ادى الى خلق النموذج الاشكنازى الاسرائيلى المعروف . واذا ما تصورنا زوال الظـــروف الموضـــوعية التى لا تسمح لذلك النموذج المعروف بالاستمرار فى الوجود وهو على ما هـــو عليه من عدوانية وشعور بالاستعلاء . واذا ما تصورنا أيضـــا استمرار تمسك هذه الفئة بما درجت عليه من تضخيم لمشاعر الاضطهاد والتمـــايز خاصة وأن الظروف الجديدة المتصورة قد تحمل ما يساعد على ذلك التضخيم، فان المتصور آنذاك أن يظهر وجه العملة الآخر لمشاعر الاضطهاد والتمايز . وهو على أى حال الوجه القديم لاولئك اليهود الذين سبق أن عرفهم الجيتو فى أوربا الشرقية يشعرون بالاضطهاد والتمايز حقا ولكنهم يعبرون عـــن مشاعرهم تلك بالتحايل والمسكنة والتفوق العقلى .

القسم الثانى : الواقعيون

ونعنى بهم اولئك الاشكنازيم الاسرائيليين الذين ســـوف يســـتطيعون استيعاب الواقع الجديد . وفى حقيقة الأمر فاننا لن نستطيع أن نمضى فى الحديث عنهم الى اكثر من مجرد الاشارة الى احتمال وجودهم . فتحقـــق ذلك الاحتمال يعنى ان امرا جديدا تماما لم يعرفه التاريخ البشرى من قبل يحدث للمرة الأولى . ولذلك فالحديث عن تفاصيله او مجرد محاولة الاقتراب من رسم ملامحه لا يصبح مجرد تنبؤ بمستقبل بعيد بل يصبح ضربا من الرجم بالغيب .

خاتمـــــــة :

نعود فى النهاية لنبرز نقطة نراها اساسية ولعلنا قد أشرنا اليها فى سياق حديثنا . ان التفسير السيكولوجى لوقائع التاريخ والتنبؤ السيكولوجى بها قد يكون ضروريا بالفعل . الا انه ينبغى على من يقدم عليه ـــ انتاجا او تلقيا ـــ أن يضع فى اعتباره ان ذلك الحديث تفسيراً كان أو تنبؤا ليس سوى جانب واحد محدد بل ومحدود من الحقيقة التاريخية .

مراجـــــع البحث

١ — فيما يتعلق بالعسكرية الاسرائيلية وادوارها المختلفة التى تلعبهـا داخل التجمع الاسرائيلى انظر على سبيل المثال : —

— Begin, M. *The revolt : story of the Irgun,* 1951.

— Blechman, B.M. "The consequences of the Israeli ; reprisals : An assessment", A dissertation submitted to Georgetown University for the degree of Doctor of Philosophy, *Unpublished,* 1971.

— Churchill, R.S. and Winston S. *The six day war,* 1967.

— Halpern, B. "The role of the military in Israel" J.J. Johnson, (ed.)., *The role of military in underdeveloped countries,* 1962.

— Heiman, L. "Warriors in skirts", *Military Review,* 41, 1962, 13.

— Heymont, I. "The Israeli ; Nahal program", *Middle East Journal,* 2, 1967, 314.

— Hurewitz, J.C. *Middle East Politics : the military dimensions,* 1969.

— Lau-Lavie, N. *Moshe Dayan : A biography,* 1969.

— Levenberg, A. *"Confrontation areas", Dispersion and Unity,* II, 1970, 223.

— Perlmutter, A. "The Israeli Army in Politics : the Persistence of the civilian over the military", *World politics,* 20, 1968, 627.

——— *Military and Politics in Israel,* 1969.

ابراهيم العابـــد ، العنف والسلام : دراسة فى الاستراتيجية الصهيونية ، ١٩٦٧

اسعد عبد الرحمن ، « العلاقات المدنية والعسكرية فى اسرائيل »، **شئون فلسطين** ۹ ، ۱۹٦۹ ، ٤٤ .

المقدم الهيثم الايوبى ، « العمل والردع فى الاستراتيجية الاسرائيلية»، **شئون فلسطين** ۱۷ ، ۱۹۷۳ ، ۷۸

كمال الغالى ، النظام السياسى الاسرائيلى ، ۱۹٦۹ .

محمود عزمى ، اضواء حول جـــذور معطيـــات الاســـتراتيجية الصهيونية « عشـــية حرب ۱۹٤۸ » ، **شئون فلسطين** ، ۲۱ ، ۱۹۷۳ ، ۱۳۷

هشام عبد الله ، « سـلاح الطيران الاسرائيلى » ، **شئون فلسطين**، ۱٥ ، ۱۹۷۲ ، ۷۹ .

قدرى حفنى ، تجسيد الوهم : دراسـة فى الشـخصية الاسرائيلية ، ۱۹۷۱ .

۲ — انظـــــــر :

— Friedman, G. *The end of the Jewish People,* 1968.

۳ — انظـــــــر :

قدرى حفنى ، شباب عجوز : دراسة فى سيكلوجية الســـابرا الاسرائيليين ، تحت الطبع .

— دراسة فى الشخصية الاسرائيلية : الاشكنازيم ، تحت الطبع
— تجسيد الوهم ، ۱۹۷۱ .

٤ — انظـــــــر :

عبد الوهاب المسيرى ، نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى ، ۱۹۷۳ .

٥ — انظـــــــر :

— Beit-Hallahmi, B. "Some psychosocial and Cultural factors in the Arab-Israeli, conflict», *The Journal of Conflict Resolution,* 16, 1972, 269.

— ——— "Some uses of religion in the Arab-Israeli Conflict", *Unpublished,* 1973.

— Harkabi, Y. "Basic factors in the Arab collapse during the six-day war"., Orbis, II, 1967, 677.

— *Arab attitudes toward Israel,* 1972.

—Hong, S. "Arab national character and Middle East conflict", *The Jerusalem Post,* 18 Oct., 1970.

٦ — انظـــر :

اعتمدنا اساسا فى التوصل الى تلك الملامح بالاضافة الى ما اوردته الجرائد العربية على الاعداد التى صدرت فى الفترة من ١٥ اكتوبر حتى الآن من المجلات والجرائد الآتية :

Newsweek.

-U.S. News & World Report.

Time.

The Guardian.

-The Sunday Telegraph.

Observer Review.

The Observer.

wish Observer.

٧ — انظـــر :

قدرى حفنى ، دراسة فى الشخصية الاسرائيلية : الاشكنازيم ، تحت الطبع .

٨ — انظـــر :

Herman, S.N. *Israelis and Jews : the Continuity of an Identity,* 1970.

الحرب الرابعة وميكانزم
استجابة الشارع الاسرائيلي
بين البيجنيه والبن جوريونية

دكتور ابراهيم البحراوى

لم يعد أمرا مقبولا على معيار الضرورة المعروفية والقوميـــة أن يظـــل الباحث العربي في مجال الشئون الصهيونية والاسرائيلية ، واقعا في اسار المنهج التجريدي المعمم الذى نلمسه في البحوث العربية التى تتعامل بالبحث مع مركبات الفكر الصهيونى الفاعلة في الواقع الاسرائيلي .

ذلك أن هذا المنهج يميله الى التعامل مع هذا الفكر في المرحلة الاولى ليضعه في انساق مجردة ساكنة .. انما يقطع على نفسه الفرصة الواجبة — لسلامة اى بحث — لربط هذه الانساق الفكرية بأصولها في الواقع المتحرك ليرصد حركة التأثر بين الواقع والفكر في عملية تطورهما .

ثم أن هذا المنهج في مرحلته الثانية ، بميله الى اطلاق تعميم الانســـاق الفكرية التى يتوصل الى توصيفها دون تحديد المستوى المادى والعينى لفعل كل منها .. انما يخلط بين المستويات ويقطع علينا في النهاية امكانية الرؤية الواضحة لطبيعة الحركة والتفاعل بين هذه الانساق الفكرية في مستوياتها العينية وبين سائر المستويات العينية والفكرية الاخرى في اطـــار الظروف الموضوعية المتغيرة بطبيعتها .

ومن هنا فان أب الاهداف الذى تقصد اليه هذه الاطروحـــة هو تقـــديم محاولة تسعى الى جعل قضية الفكر الصهيونى في الواقع الاسرائيلي تسير على قدميها وليس على رأســها .

ونحن نسعى الى تحقيق هذا الهدف بتقديم عدد من المركبـــات المـــادية والفكرية وهى في حالة العمل داخل مستوى واحد هو مستوى الشــــارع الاسرائيلي .. وفى اطار تركيبى واحد .

هذا الاطار نسميه الميكانزم باعتبار أن الميكانزم كما نعنيــه يدل عـــلى مركبات الحركة وشكلها وقانونها حسب الظروف الموضوعية المتغيرة .

اذن فمهمتنا تتحدد على التوالى في : حصر المركبات الداخلية والخارجية التى تلعب دورا في تكوين استجابة الشارع الاسرائيلي تجاه عناصر وعلاقات الصراع مع العرب ، ثم في استكشاف الأصول المـــادية لهذه المركبات والتى

تختفى تحت انساق الوعى الصهيونى الظاهرة وتمنحها جدارة الفعل والاستمرار باعتبارها تعبيراً عقائديا وسياسيا موافقا وموازيا لها (للاصول المادية) . ثم تمتد مهمتنا بعد ذلك الى تحديد شكل التفاعل بين هذه المركبات فيما نسميه بالميكانزم تحت الظروف الموضوعية المتغيرة .

وبالاضافة الى هذا فاننا سنعمد الى اختبار صحة الميكانزم الذى نستخلصه ونفترضه — فى حدودنا المعرفية الراهنة — على معيار التأييد الذى تمنحه أغلبية الشارع الاسرائيلى لحزب سياسى بعينه (فى الحالات المختلفة للميكانزم ، وهى الحالات التى يرتبط اختلافها باختلاف الظروف الموضوعية المتعلقة بالصراع) على اساس أن مدى التأييد الذى يمنحه الشارع لحزب ما انما يعد دلالة على مدى تمثيل ومراعاة الحزب لمصالح وحاجات الشارع الاقتصادية سواء فى برنامجه الداخلى او فى صياغته لبرنامج التعامل مع عناصر وعلاقات الصراع .

وليس معنى هذا اننا نلغى فعل انساق الفكر الصهيونى .. بل اننا نصفها فى حجمها الطبيعى من حيث كونها تعبيرا عقائديا سياسيا موافقا لمصالح وحاجات اقتصادية محددة فى هذا الشارع .

من هنا يرد فى هذه الاطروحة القسم الاختيارى لصحة الميكانزم المستخلص تحت عنوان (الميكانزم بين البيجنية والبن جوريونيه فى ظروف الحرب الرابعة) .

ومن الحتمى فى نظرنا أن نشير قبل الدلوف الى موضوع الاطروحة الى اننا نعتبر هذه الافكار التى سنعبر عنها .. مجرد محاولة اختبارية لحسم القضية المعرفية المعلقة التى يتنازع الجميع حولها ، وهى :

هل اسرائيل فى مستوى الشارع تمثل حالة خاصة يلعب فيها الفكر الصهيونى والوعى به دور السيادة بغض النظر عن تعبيره عن الواقع الاقتصادى الاسرائيلى وحاجاته ؟ .

أم انها مجرد حالة معقدة يصدق عليها المنظور المادى الجدلى فى المعرفة اذا طبق بمزيد من الصبر وسعة الافق ؟ وهو ما يفيد أن الوعى الصهيونى يعبر عن حاجات اقتصادية محددة فى الشارع الاسرائيلى . ؟

ذلك أن الباحثين الذين يمنحون الوعى الصهيونى حق الجدارة فى تحريك الشارع الاسرائيلى فيعنون به فى افراط ويعممون فعله وأثره فى مستوى الشارع ، يظلون محلقين فى مستوى أفقى يفصل الفكر عن الواقع المادى . ورغم ذلك يبقى لهم عذرهم ، حيث أن الباحثين الذين يؤيدون التعامل المعرفى مع اسرائيل عبر المنظور المادى الجدلى يقفون عاجزين عن تفسير سيادة الوعى الصهيونى فى مستوى الشارع الاسرائيلى تفسيرا يربطه بالاصول المادية فى واقع هذا الشارع .

قد ينجحون فى ابراز العلاقة بين الفكر الصهيونى والامبريالية العالميـة ولكن هذا النجاح يظل متعلقا بمستوى الصفوة الصـهيونية فى اسرائيـل وخارجها والتى يحدث التواؤم بين مصالحهـا وتصوراتها وبين مصـالح الامبريالية فى المنطقة بالشكل المباشر .

ومن ثم يظل السؤال مفتوحا على مستوى الشارع ، يتحدى قائلا :

ما هى العلاقة بين الحاجات والمصالح الاقتصادية للشارع الاسرائيلى وبين الفكر الصهيونى . ؟

ولسنا نتوقع ان تحسم هذه الاطروحة القضية حسما قاطعـا (لنقص بعض الاحصاءات) لكنا نعتقد انها تضع الاساس لذلك .. وهو اساس نستكمل بناءه فى دراسات أوسع بعد ذلك .

ولعلنا فى غنى عن تبيان اهمية حل هذه القضية المعرفية .. ذلك أن حلها يعنى المعرفة الحقيقة باسرائيل فى مستوى الشارع وهذا ما يحدد فى النهاية ما اذا كنا نسير فى الطريق الصحيح فى برنامجنا السياسى والعسكرى والاعلامى مع العدو اسرائيل أم لا .

معنــى الشــارع :

يتبقى من الضرورى فى صدر الاطروحة أن نشير الى أننا نعنى بتعبير الشارع .. ذلك المفهوم العلمى الشائع الذى يعرف رجل الشارع على انه الشخص غير المتخصص فى موضوع العمل . ونحن نستند الى هذا التعريف هنا مع معرفتنا بأن هذا التعريف قد لا يتفق على نحو دقيق مع مواصفات الشارع الاسرائيلى باعتبار صفته الحزبية الغالبة .. وهو أمر سنعمد الى استقصائه فى دراسات أوسع .

ومن هنا يكون مفهوم مصطلح الشارع بالنسبة لموضوعنـا هـو تلك الجماهير الاسرائيلية غير المتخصصة فى رسـم وتنفيـذ السياسة تجـاه الصراع مع العرب .

الشارع الاسرائيلى .. نظرة تاريخية :

تفيد النظرة التاريخية الى الشارع الاسرائيلى بداهة ، ان هذا الشارع قد تكون أصلا عن طريق الهجرة . وهذه الحقيقة بذاتها تشير الى أن هناك مركبات بعينها تعمل بين الجماعات اليهودية المهاجرة وتدعوها الى هـذه الهجرة ، رغم التباين السلالى والثقافى بينها .

ولعل نظرة الى جداول (١) الهجرة اليهودية منذ بدايتها وحتى اليـوم

(١) الياس سعد ، الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة . دراسات فلسطينية رقم ٦٦ سـنة ١٩٦٦ .

تساعد بشكل عيني على استخلاص الدلالات المناسبة التي يمكن أن تعيننا في تحديد وتوصيف هذه المركبات ونوع عملها في الشارع الاسرائيلي اليوم.

ونلاحظ لدى النظرة الفاحصة الى جداول الهجرة هذه ما يلي :

١ ــ أن الموجة الاولى للهجرة وبعض موجات الهجرة الكبيرة قد جاءت ابان أو قبل أو بعد حوادث الاضطهاد ضد اليهود في الخارج .

(١٨٨٢ ــ ١٩٠٣ في أعقاب اضطهادات روسيا) (١٩٠٤ ــ ١٩١٣ الهجرة الثانية من روسيا) (١٩٢٩ ــ ١٩٣٦ ابان اضطهادات النازي وارهاصاتها) .

٢ ــ أن بعض موجات الهجرة الكبيرة قد جاء في غياب الاضطهاد وفي اعقاب تحقيق انتصارات صهيونية ملموسة في فلسطين (انشاء الدولة ١٩٤٨) موجة الهجرة الكبيرة (١٩٤٩ ــ ١٩٥١) (انتصار ١٩٦٧) موجة الهجرة الكبيرة من الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية .

٣ ــ أن موجات الهجرة تضعف في حالات الازمات الاقتصادية في اسرائيل . فترات القحط في الهجرة (١٩٥٢ ــ ١٩٥٤ (١٩٦٦ ــ يونيو ١٩٦٧) .

٤ ــ أن بعض موجات الهجرة الكبيرة ترتبط بانفراج الوضع الاقتصادي في اسرائيل (١٩٥٥) (١٩٥٦ ١٩٥٧) (١٩٦١ ــ ١٩٦٥) .

٥ ــ أن بلدان الهجرة الاساسية هي من الدول التي لا تسمح الظروف فيها للافراد بالحصول على دخول متميزة ومرتفعة . الدول الشرقية المتخلفة ودول الكتلة الشرقية .

٦ ــ أن الهجرة من البلدان الغنية ذات الاقتصاد المفتوح والتي لا يرتبط التاريخ اليهودي فيها بالاضطهاد .. ضئيلة للغاية .

٧ ــ أن الفئة الاقتصادية الغالبة من المهاجرين هي فئة العمال (١٩٢٢ ــ ١٩٤٥ ــ ٥٢ر٥٪ من مجموع المهاجرين عمالا) وأن الفئة التالية هي من أصحاب الاموال (١٩٢٢ ــ ١٩٤٥ ــ ٥ر٢٢٪ من مجموع المهاجرين من اصحاب الاموال) .

٨ ــ أن الصغار يمثلون ٢٠٪ من مجموع المهاجرين .

(١٩٢٢ ــ ١٩٤٥ ــ ٢٠٪ من مجموع المهاجرين من الصغار) .

ولدى النظر الى الملاحظات السابقة على هيكل وخصائص الهجرة اليهودية يمكننا (مع وضع نقص الاحصاءات في الفترات الاخيرة والتوزيع الفئوي الاقتصادي للمهاجرين في الاعتبار) أن نحصر الدلالات التالية :

١ — تعكس موجات الهجرة الكبيرة ابان وفى اعقاب حالات الاضطهاد ضد اليهود فى الخارج دافع البحث عن الامان فى الهجرة ذاتها .

٢ — تعكس موجات الهجرة الكبيرة فى حالة غياب الاضطهاد وبعد تحقيق انجازات صهيونية كبيرة احساس الجماهير اليهودية من العمال واصحاب المال بأن الوعى الصهيونى ممثلا فى حديه الأساسيين ، حد الانتماء الى شعب يهودى واحد متجمع ، وحد العلاقة التاريخية بالأرض العربية كمكان لهذا التجمع ، انما يعبر عن مصالح رئيسية عندها ويشبع حاجات اساسية لديها .

٣ — تعكس موجات الهجرة الكبيرة من عمال البلدان المتخلفة والبلدان الاشتراكية ومن اصحاب الاموال فى عقاب الانجازات الصهيونية وفى حالات الانفراج الاقتصادى فى اسرائيل ، بالاضافة الى ضعف الهجرة فى حالات الأزمة الاقتصادية .. ميلا الى البحث عن ظروف عمل أكثر تميزا وادرارا للدخل بالنسبة للعمال وميلا الى البحث عن ظروف استثمار أفضل بالنسبة لأصحاب الأموال .

ويؤيد هذا ضعف الهجرة من الدول الغنية ذات الاقتصاد المفتوح .. كما أنه يشير فى نفس الوقت الى ان يهود هذه الدول لا يشعرون بأن الوعى الصهيونى ممثلا فى الحدين المنصوص عليهما فى الدلالة رقم(٢) يعبر عن مصلحة حيوية ويشبع حاجات ضرورية وأساسية عندهم .

٤ — تشير النسبة الكبيرة للصغار بين المهاجرين الى أن الشارع الاسرائيلى اليوم فى ١٩٧٣ يضم بالاضافة الى حوالى ٢٥٪ من الكبار المولودين فى فلسطين .. نسبة كبيرة من الكبار الذين نشأوا فيها وتكونت مواقفهم وخبراتهم بعيدا عن دوافع المهاجرين (الكبار) وخبراتهم القديمة .

مركبات الشارع المهاجر وغير المهاجر :

ويمكننا الآن بصدد تحديد هذه الدلالات واثر الثلاث الاولى فى تكوين الشارع الاسرائيلى المهاجر وحظر الرابعة من الاشارة الى حجم الشارع غير المهاجر .. أن ننتقل الى التعامل معها فى شكلها التركيبى كمركبات فاعلة فى هذا الشارع بعد تكونه واستتبابه .

١ — مركب الأمن .

(أ) لاحظنا فيما سبق أن احد دوافع الهجرة اليهودية هو البحث عن الامان فيها . والبحث عن الامان لا يطرح دلالة سيكولوجية محضة كما قد يتصور البعض من ظاهر حالة البحث عن الامان . ذلك أن البحث عن الامان يعكس فى أصله حالة البحث عن ظروف توفر حماية الذات من الخطر ثم توفر لها بنفس الدرجة حياة انتاجية استهلاكية منتظمة بعيدا عن اى خطر يهدد بزعزعتها أو قطعها ، باعتبار أن هذه احياة الاقتصادية هو صنو البقاء على قيد الحياة .

هذا على الرغم من أن ظاهرة افتقاد الامان والبحث عنه تأخــذ شكــلا سيكولوجيا فى التعبير المباشر عن نفسها .

وعلى هذا يكون البحث عن الامان تعبيرا عن حاجة عضوية واقتصادية .

وبالتالى فانه يمكننا أن نعتبر أن هجرة اليهودى الى اسرائيل أو الى مكان التجمع اليهودى نتيجة لخبرة الاضطهاد العينية أو تحت تأثير شبحها التاريخى أو نتيجة للايهام الصهيونى بوجودها .. انما تمثل فى الواقع استجابة سلبية من هذا اليهودى تجاه واقع الخطر الذى يهدد ذاته وحياته الاقتصادية فى الخارج وهى استجابة تأخذ على شكل الهرب من واقع الخطر واللجوء الى واقع جديد (اسرائيل) يتصور اليهودى المهاجر انه سيمنحه الامان بهذا المعنى .

وعندما يصل المهاجر الى اسرائيل فان احســاســه بالامن يستتب نسبيا نتيجة لوجوده فى اطار يهودى متكاتف يوحى بالقدرة على الدفاع عن النفس والحياة الاقتصادية .

غير أن حقيقة الرفض العربى لوجود الدولة الاسرائيلية تستثير عند هذا المهاجر احساس افتقاد الامن والشعور بأن حياته العضــوية والاقتصادية معرضة للخطر مرة أخرى .

ولكن استجابته فى هذه المرة ونتيجة لاحساســه بمقدرة الدفــاع عن النفس لا تكون استجابة هروبية بل استجابة العنف والمبادأة به ضد العرب دفاعا عن الذات والحياة الاقتصادية .

نخلص من هذا الى أن مركب الأمن عند المهاجر يكون نابعا فى الأصل من تجربته القديمة ومستثارا نتيجة للرفض العربى .

(ب) هذا بالنسبة للمهاجر ، أما بالنسبة للاسرائيلى المولود فى اسرائيل أو الذى هاجر اليها وهو صغير ، فان صلته بخبرة افتقاد الأمن التاريخية تكون واهية رغم محاولات ربطه بها ، ومع ذلك فان احساســه بالرفض والتهديد العربى يستثير عنده ابتداء استجابة العنف دفاعـــا عن حيـــاته العضوية والاقتصادية الفردية والجماعية .

على هذا يمكننا أن نحدد أن مركب الأمن هو تعبير فى الأصل عن حاجة عضوية واقتصادية وانه يعمل فى ثبات فى الشارع الاسرائيلى المهاجر وغير المهاجر نتيجة للرفض والتهديد العربى ، وأن افرازه هو العنف والمبادأة به تجاه العرب .

٢ — مركب الانتماء اليهودى الخالص :

(أ) تد يبدو أن التحاق المهاجر اليهودى بالدولة اليهودية فى غياب حالات الاضطهاد وفى أعقاب الانجازات الصهيونية الكبيرة هو مجرد استجابة لوعى

الانتماء اليهودى الخالص الذى تنادى به الصهيونية وتجسده تجربة الجيتو التاريخية ..

غير ان حقيقة الامر هى ان الهجرة اليهودية الضخمة فى هذه الحالة انما تعكس حاجة اساسية كامنة لدى المهاجر يلبيها ويشبعها وعى الانتماء اليهودى .

ذلك ان خبرة عدم الامن العينية او التاريخية (التى تغذيها الصهيونية) فى مجتمعات بعينها ، (الاتحاد السوفيتى ودول اوربا الشرقية على نحو خاص) تجعل المهاجر اليهودى من هذه البلدان يتصور ان امنه بالمعنى الاقتصادى والعضوى الذى حددناه سلفا ، غير مضمون تاريخيا الا فى اطار يهودى خالص .

لهذا يقدم هذا اليهودى على الهجرة اساسا تلبية لحاجة الامن التاريخية عنده بالاضافة الى انه هو ويهودى الدول الفقيرة الذى يهاجر معه فى هذه الحالة يتشاركان فى التطلع الى ظروف عمل تدر دخلا أكبر وهو ما يوحى به اليهما الانجز الصهيونى سواء كان فى شكل انشاء الدولة (١٩٤٨) أو توسيع حدودها (١٩٦٧) .

ومما يؤكد صحة هذا التحليل ان يهود أمريكا وهم الذين لا تشوب حياتهم شائبة افتقاد الامن بهذا المعنى العضوى والاقتصادى فيها .. والذين يتمتعون فوق ذلك بمستويات دخل عالية .. لا يقدمون فى غالبيتهم الساحقة على الهجرة .

وهذا يعنى أن وعى الانتماء اليهودى الخالص ليس هو بذاته الدافع الى الهجرة . وانما هو تعبير موافق وملب لحاجة عضوية واقتصادية كامنة (حاجة الامن العضوى والاقتصادى) عند اليهودى المهاجر ، تستثيرها وتشبعها فى آن واحد مقدرة اسرائيل العسكرية والتى توحى للمهاجر ليس فقط بأن أمنه سيتحقق وحسب بل ان فرصه فى دخل اعلى ستزيد فى ظل انجازاتها (انشاء الدولة — توسيع حدودها) .

ولهذا فان المهاجر يتمسك لدى وصوله الى اسرائيل بالطابع اليهودى الخالص للدولة .. ويجفل من اى حديث عن فكرة الدولة مزدوجة القومية خوفا من تحوله فى لحظة الى اقلية ازاء أغلبية عربية ، بما يعرض حياته العضوية والاقتصادية للخطر مرة ثانية .

(ب) هذا بالنسبة للمهاجر ، اما بالنسبة لغير المهاجر فان اصراره على الطابع اليهودى الخالص للدولة يأتى نتيجة المولد والنشأة والبلوغ فى بيئة قومية يهودية غالبة تضمن له الاحساس بالأمان ، ولهذا يصبح من العسير عليه التخلى عن الطابع القومى لدولته التى نشأ فيها .

وعلى هذا يمكننا ان نحدد أن مركب الانتماء اليهودى الخالص يعمل فى

الشارع الاسرائيلي المهاجر وغير المهاجر في ثبات وأنه تعبير عقائدى سياسى موافق لحاجة اقتصادية محددة في هذا الشارع .

٣ ــ مركب العلاقة التاريخية بالأرض :

(أ) يمكننا ان ندرك في يسر على ضوء التحليل السابق لمركب الانتماء اليهودي الخالص أن مركب العلاقة التاريخية بالأرض العربية ليس سوى الشق الثاني من مقولة الوعى الصهيونى التى تلبى حاجة أساسية كامنة عند المهاجر .

ذلك أن هجرة المهاجر الى اسرائيل لا تعكس مجرد الاستجابة لما يسمى بالعلاقة التاريخية بالأرض ، بل هي تعكس تلبية هذه العلاقة لحاجة كامنة لد ى المهاجر ، فهذه الأرض هي أرض التجمع اليهودى الذى يشبع حاجة الأمن العينية والتاريخية بمعناها العضوى والاقتصادى بالاضافة الى انها تعنى فرصة اكبر في الحصول على دخل اقتصــــادى اعلى بالنسبة للعامل وفرصة استثمار أوسع بالنسبة لصاحب المال .

ولهذا فان المهاجر من العمال لا يعترض في الغالب على توسيع رقعة هذه الأرض التاريخيـــــة ولا على ربط هذا التوســـــيع بتفسيـــرات جغرافية أوسع للعبارات الدينية التى تحدد معنى هذه الأرض . وذلك طالما كان هذا التوسع يعنى اضافة دخل قومى جديد ينعكس على حياته وطالما ان هـــذا التوسيع لا يتحول في لحظة بما يثيره من خطر عربى ملموس الى نقيض لحاجة الأمن الاساسية .

هذا في حين أن المهاجر من أصحاب المال يهمه بالدرجة الأولى أن يحدث هذا التوسيع بغض النظر عما قد يثيره من خطر عربى وايـــا كانت درجة تناقضة مع حاجة الأمن لدى جماهير العمال وذلك لأنه يعنى بالنسبة له في النهاية مصلحة استثماريةجديدة .

(ب) وبالنسبة لغير المهاجر فان ما يحكم موقفـــه تجاه المعنى الجغرافى للأرض التاريخية هو نفس المعيار السابق .

وعلى هذا يمكننا ان نحدد ان مركب العلاقة التاريخية بالأرض في معناها الموسع يعمل في الشارع على مستويين :

ــ مستوى الطبقة العاملة : حيث تقبله وترحب به في حالة عدم تناقضه مع حاجة الأمن الأساسية .. وطالما ظل مرادفا لمعنى الأمن (بما يمنحه من ميزات دفاعية عسكرية) وما يمنحه من دخل قومى أعلى .

ــ مستوى أصحاب المـــال : تقبله وتحبذه بشكل مبدئى لاتفاقه مع مصلحتها الاستثمارية . وبالطبع فان هذا لا ينفى وجود جماعات من العمال يسيطر عليها هذا المركب بشكل مطلق باعتباره جزءا من وعيها الصهيونى الزائف .

٤ — مركب العلاقة العينية بالأرض العربية ..

وهو يعمل عند السابرا والمهاجر (فى الصغر) .. وهو ينبع عنده نتيجة لظروف المولد والنشأة والبلوغ فى حدود معينة من الأرض العربية . ويتمثل افرازه فى احساس الملكية الوطنية لهذه الارض وعدم الاستعداد للتخلى عنها .

ويحل هذا المركب عند غير المهاجر محل العلاقة التاريخية عند المهاجر .

٥ — مركب الارهاق اليومى :

وهو يعمل عنـــد الشارع الاسرائيلى بأجمعه ، مهاجرا وغير مهاجر ، وهو ناتج عن المقاومة العربية العسكرية ضد الوجود الاسرائيلى سواء فى حدود ١٩٤٨ أو فى الحدود الموسعة بعد ١٩٦٧ .

ويعمل هذا المركب على مستويين :

— المستوى الأول : الارهاق أو التهديد الفكرى فى حالة حدود ١٩٤٨ .

وفى هذه الحالة يستثير مركب الأمن فى الشـــارع كله وتكون الاستجابة الميل الى العنف دفاعا عن الذات والحياة الاقتصادية .

— المستوى الثانى : الارهاق العسكرى فى حالة الحدود الموســـعة (١٩٦٧) .

(ا) يفرز استجابة التطلع الى القبول العربى عند الجمهرة العاملة .. ويهز مركب العلاقة التاريخية عنـــدها فى المعنى الموسع باعتباره مناقضا لحاجة الأمن الاساسية ومثيرا للتهديـــد العربى . ويتناسب افراز مركب الارهاق طرديا فى هذه الحالة مع حجم المقاومة العربية وقدرتها على اسالة الدم الاسرائيلى وتهديد الحياة الاقتصادية .

(ب) يفرز استجابة مزيد من العنف عند أصحاب الأموال والجماعات التى يحركها الوعى الصهيونى بشكل مطلق .

الميكانزم :

تعمل هذه المركبات جميعا فى ميكانزم واحـــد على النحو التالى وتبعا للحالات التالية :

١ — فى حالة الارهاق العسكرى لوجود اسرائيل فى حدود (١٩٤٨) مع توفر القدرة العسكرية الاسرائيلية .

مركب الأمن : حالته وافرازه * العنف دفاعا عن الـذات والحياة الانتاجية .

مركب الانتماء اليهودى الخالص : ينشط بشكل زائـد ويلتحق بافراز حالته وافرازه الأول

مركب العلاقة التاريخيـة : حالته يتهيأ للعمل . (تطلع الاراضى جديدة وافرازه لضمان الأمن)

مركب العلاقة العضـوية : حالته ينشط ويتحـد بمركب الأمن ومركب وافرازه الانتماء اليهودى .

مركب الارهاق : حالته وافرازه العنف ويتحد بالمركبات الثلاثة الاولى عن جمهرة الشارع .

حاصل الميكانزم .. العنف + التطلع لاراضى جـديدة لضمان الأمن استجابة توافق مع نظرية الأمن العسكرية .

٢ ــ فى حالة **الانتصار العسكرى مع ضعف المقاومة العربية (١٩٦٧)**

مركب الأمن : حالته وافرازة حالة كمون مع التمهيد لافراز مركب العلاقة التاريخية بالأرض .

مركب الانتمـاء اليهـودى : حالته حـالة فعل طبيعى . وافرازه

مركب العلاقة التاريخية بالأرض : ينشط عند الطبقات العاملة لمرادفته حالته وافرازه لمعنى الأمن وعند أصحاب المال والوعى الصهيونى المطلق ابتداء

مركب العلاقة العضـوية بالأرض : يعمل تجاه الأراضى الجديـدة مع حالته وافرازه الزمن .

مركب الارهاق : حالته وافرازه سـاكن .

حاصل الميكانزم : تمسك جمهرة الشارع بالأراضى الجديدة .

٣ ــ فى اعقاب الانتصار العسكرى مع ضربـة عسكرية كبيرة ومتحركة للامام من جانب العرب . (اكتوبر ١٩٧٣) مع احتمال تكرارها .

مركب الأمن : حالته وافرازه نشاط زائد .. العنف الزائـد + تمسك ببعض الأراضى للامن × عند الجمهرة العاملة .

مركب الانتمـاء اليهودى : حالتـه نشاط زائد . وافرازه

مركب العلاقة التاريخيـــة : حالته وافرازه يعزل عن العمل عند الطبقات العاملة لادراكها انه مثير الخطر .
ينشط عند اصحاب المال وجماعات الوعى المطلق .. لتعويض انعزال المركب عند الجمهرة العاملة .

مركب العلاقة العضـوية بالأرض : حالته وافرازه ينشط بالنسـبة لحدود (١٩٤٨) يضـعف عمله تجـاه الاراضى الجديدة .

مركب الارهاق : حالته وافرازه ينشط فى شدة عند الطبقات العاملة تطلع للقبول العربى .
العنف الزائد عند اصحاب المال والوعى .

حاصل الميكانزم : عند الجمهرة العاملة .. تطلع الى القبول العربى بحثا عن الأمن .. الانفصـــال عن الارتبـــاط التاريخى بالأراضى الجديدة مع الاصرار على ضم بعضها كضمان للامن مستقبلا .

عند اصحاب المال والوعى المطلق .. العنف الزائد + التمسك بالأراضى الجديدة .

هكذا يعمل ميكانزم الاستجابة لدى الشـــارع الاسرائيلى تجاه عناصر وعلاقات الصراع مع العرب .. فيما يراه الكاتب .. فى حدود علاقة الرفض العربى على تنوع حالاتها .

ومن السهل ما دمنا قد حصرنا الميكانزم أن نتوصل الى التغير الذى يمكن أن يطرأ عليه فى حالة القبول العربى .

ففى حالة القبول يخفت مركب الامن ويختفى افرازه من العنف بالتدريج . ويظهر مركب العلاقة التاريخية بالأرض الجديدة على أنه نقيض لحاجة الأمن وليس معادلا لها كما كان الأمر فى حالة الرفض العربى بالنسبة للجمهرة العامـــلة ..

ولكن مركب الانتماء اليهودى الخالص لا يمكن أن يتأثر بحـــالة القبول العربى وكذلك مركب العلاقة العضوية بالأرض عنـــد السابرا فيما يتعلق (بحدود ١٩٤٨) لا يتغير افرازه ويظل يعطى احساس الملكية الوطنية تجاه هذه الاراضى .

هذا فيما يتعلق بالميكانزم فى حالتين اساسيتين هما حالة الرفض العربى مع تنوعات معينة وحالة القبول النظرية .

والميكانزم بين البيجنية والبن جوريونية :

ويمكننا ان ننظر عبر ميكانزم الاستجابة فى حالة الحرب الرابعة .. الى نوع الاختيار السياسى الذى ستتجه اليه غالبية الشـــارع الاسرائيلى فى الانتخابات العامة التى تجرى فى الحادى والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٧٣ توافقا مع ميكانزم الاستجابة عندها .

ولسنا نقصد بهذا الى التنبؤ بنتيجة الانتخابات ولكننا نقصد الى اختيار صحة الميكانزم الذى توصلنا اليه بتحديد التعبير الســـياسى الذى يمثله . (عند ظهور الا طروحة تكون نتيجة الانتخابات قد أعلنت) .

وتقتضينا هذه المهمة الاختبارية القـاء نظرة على خريطـــة الاحزاب السياسية فى اسرائيل .

تفيد النظرة المدققة الى خريطة الحركة بين الأحزاب الاسرائيلية حقيقة معينة .. وهى أن حزبى حيروت اليمينى والماباى العمالى يمثلان بؤرتى الجذب المركز يتبين بالنســـبة لحركة الائتلاف على مســـتوى الاحزاب فى اسرائيل .

ففى لحظة زمنية نرى حيروت والماباى نقطتين مستقلتين على الخريطة ثم لا نلبث أن نلاحظ ان حيروت يتسع ليصبح كتلة جاحال ثم ليصبح كتلة لكود بانضمام احزاب جديدة الى فلكه .. فى حين نرى الماباى يتسع ليصبح حزب العمل ثم ليصبح كتله المعراخ بانضمام أحزاب جديدة .

ان هذه الحقيقة السياسية تعكس تمثيل هذين الحزبين لقطاعات واسعة فى الشارع الاسرائيلى وانحصار المنافسة على الأغلبية فى الشارع بينهما .

والواقع ان هذه الحقيقة تتفق — فيما نرى — مع حالات الميكانزم .

ذلك اننا لو نظرنا الى نظرية حيروت السياسية تجاه الصراع مع العرب والتى أسميناها (البيجنية باعتبارها المســـة المعاصرة للجابوتنسكية) لوجدنا انها تقوم اســاســـا على تبنى ما يعرف بالعلاقة التاريخية بالأرض العربية الواســعة .. بغض النظر عن مطلب السلام مع العرب .

وهذه النظرية تتفق ابتداء مع المصالح الاقتصادية لأصحاب المال بالاضافة الى توافقها مع جماعات الوعى الصهيونى المطلق من العمال والمثقفين .

هذا فضلا عن ان هذه النظرية تتفق فى لحظة ما مع الميكنزم العامل فى الشارع كله وذلك فى الحالة (رقم ٢ من الميكانزم) وهى (حالة الانتصار العسكرى مع ضعف المقاومة العربية ١٩٦٧) . وفى هـــذه الحالة يكون

حاصل الميكانزم (تمسك بالاراضى التاريخية عند الطبقة العاملة فى جمهرتها) .

ولو لاحظنا أن الكتلة التى يتزعمها حيروت لم يزد حظها من أصوات الشارع انتخابيا الا فى انتخابات ١٩٦٩ لكان هذا تأكيدا لصحة تصورنا للميكانزم . وتوافق الواقع مع الحقيقة السياسية .

ولعل ما مكن حيروت من الحصول على اصوات انتخابية اكبر ممايحصل عليه عادة هو أن برنامجه الاقتصادى غير محدد ولديه ممارسات عمالية (فى الهستدروت) وجماعية (فى حركة الكيبوتسيم التابعة له) وهو مايساعده فى الحصول على بعض اصوات الجمهرة العاملة فى حالة توافق الميكانزم مع برنامجه السياسى .

اما فى الحالة (٣) من الميكانزم (حالة الانتصار العسكرى مع ضربة عسكرية كبيرة متحركة للامام من جانب العرب مع احتمال تكرارها اكتوبر ١٩٧٣) وحيث يكون حاصل الميكانزم عند جمهرة الطبقة العاملة انفصال عن الاراضى الجديدة فى الشكل التاريخى والتطلع الى القبول العربى مع الاصرار على الاحتفاظ ببعض الاراضى او تجريدها لضمان الأمن مستقبلا .. فان المفارقة مع برنامج حيروت تحدث عند هذه الجمهرة الغالبة لتعارض البرنامج مع حاجة الأمن .

وبالتالى فان حظ البيجنية من التأييد فى الشارع يكون قاصرا على اصحاب المال والجماعات العمالية والمثقفة ذات الوعى الصهيونى المطلق بالاضافة الى المهاجرين الجدد الذين تستقطبهم اجهزة الخدمات فى الحزب بما تقدمه اليهم من خدمات .

ولو اننا نظرنا الى نظرية المبادئ السياسية تجاه الصراع مع العرب والتى نسميها (البن جوريونية نسبة الى مؤسسها) لوجدنا أنها تقوم على على ما يعرف بنظرية الأمن العسكرية وهى نظرية تتفق مع حاصل الميكانزم فى جميع حالاته ..

فهى تقوم على ثلاثة حدود .

الحد الاول ، هو حد المبادأة بالردع العسكرى مع ظهور الخطر العربى وهو حد يتجاوب مع عطاء مركب الأمن (العنف والمبادأة به دفاعا عن الذات والحياة والانتاجية) فى جميع حالات الميكانزم .

الحد الثانى ، هو حد الاحتفاظ بالاراضى التى تحتل جميعها (طالما سمحت الظروف الدولية والتأييد الامبريالى بذلك) باعتبارها سياجا للامن مالم يعلن العرب عن قبولهم الكامل لاسرائيل .

وهو حد يتجاوب مع عطاء الميكانزم فى الحالة (٢) حالة الانتصار العسكرى مع ضعف المقاومة العربية (١٩٦٧) .

ففي هذه الحالة يكون حاصل الميكانزم (تمسك بالاراضى الجديدة عند جمهرة الطبقة العاملة) .

الحد الثالث .. هو حد الاستعداد للتخلي عن الاراضى الجديدة المحتلة (فى أعقاب حرب عربيــة ناجحة واحتمال تكرارها) (وفى غياب التأييــد الامبريالى للاحتفاظ بالأرض جميعها) مع الاحتفاظ ببعضها وتجريد بعضها تحت شعار ضمان الأمن مستقبلا اذا أبدى العرب قبولا لوجود اسرائيل .

وهذا الحد يتفق مع الميكانزم فى الحالة (٣) حيث يكون عطاؤه عند جمهرة الطبقة العاملة .. انفصال عن الاراضى الجديدة بالشكل التاريخى ونطلع الى القبول العربى بحثا عن الامن مع الاصرار على ضم بعض الأراضى ضمانا للامن مستقبلا .

لهذا فان (البن جوريونية) تظل فى جميع الاحوال النظرية الاكثر ملاءة لميكانزم الاستجابة عند غالبية الشارع الاسرائيلى ورغم أن المنافسة تشـد بينها وبين البيجنية فى الحالة (٢) .

الا أن السيادة تكون لها . ومما يساعدها فى ذلك أن برنامجها الاقتصادى محدد ويتفق فى وضوح ظاهر مع مصالح الطبقة العاملة فى الداخل .. كما أن نظريتها السياسية فى التعامل مع الصراع تشبع مركب الأمن الذى هو مركب اقتصادى فى الأساس عند هذه الطبقة العاملة .

قد يتبقى بعد ذلك سؤال يتطلب الاجابة عنه يقول :

لماذا تنحصر المنافسة على تأييد الشارع بين هاتين النظريتين فحسب ولماذا تلجأ الأحزاب بالتالى الى الالتحاق بتلك أحداهما ؟

والاجابة على هذا السؤال تكمن فى الميكانزم ذاته .

ذلك أن هناك مركبين يعملان فى ثبات دائم فى الشــارع الاسرائيلى فى مجموعة ولا يمكن أن يتغير عطاؤهما تحت أية حالة من الحالات المذكورة باعتبار أن هذا العطاء يمثل الحد الادنى لحاجة الأمن الاقتصادية . والذى لا يستطيع الشارع الاسرائيلى التنازل عنه طالما هو قادر على حمايته . هذان المركبان هما :

— مركب الانتماء اليهودى الخالص .

— مركب العلاقة العضوية بحدود ١٩٤٨ .

وبالتالى فان اى حزب حتى لو كان يساريا عماليا — يتغافل فى برنامجه السياسى عن هذا الحد الادنى يحصل على اســتجابه التناقض فى عموم الشارع . والمثل على هذا هو حزب المابام الذى يتضمن برنامجه استعدادا

لدولة مزدوجة القومية .. او دولة فلسطينية لصيقة . فبرنامجه هذا يناقض الحد الادنى ومن ثم تنحصر أصواته الانتخابية فى اعضائه فقط .

ويمكننا الآن أن نختتم هذه الاطروحة بسؤالين اخيرين :

— هل معنى هذا كله أن الشارع الاسرائيلى غير مستعد للمساومة والنقاش حول حق الشعب الفلسطينى فى العودة ؟ ..

— والاجابة .. نعم .

— اذن وكيف يمكن ضمان حقوق الشعب الفلسطينى فى أرضه ؟

— الاجابـــة :

— راجـع عمل مركب الارهاق وأثره على فصم علاقـة الطبقة العاملة بالأرض الموسعة . وانظر فى احتمالات الميكانزم اذا تولدت حالة جديدة الحالة .

(٤) (اكتســاح الجيوش العربيــة القوات الاسرائيلية فى الأراضى الموسعة وكسر الجهاز العسكرى الاسرائيلى) ثم طرح مبدأ تقسيم الدولة من جانب العرب .

تطبيقات النظرية السسيولوجية للتنظيم
فى المجال العسكرى

دكتور على عبد الرازق جلبى

مقدمـــــــة :

لم تكن تسمية المجتمع المعاصر بانه مجتمع التنظيم تنطوى على شىء من المبالغة . وذلك لأن انتشار التنظيمات المعقدة والرشيدة واضطراد نموها يعد من احد سمات المجتمع الحديث التى تميزه عن نماذج المجتمعات القديمة . ولقد اصبح اليوم للتنظيم دور غالب فى حياة اعضاء المجتمع بمقارنته بغيره من الادوار التى تلعبها الوحدات الاجتماعية الاخرى . حيث انه ما أن يوجد الانسان على وجه البسيطة الا وتتولاه تنظيمات متباينة بتوجيهه ورعايته . فهو عندما يولد يجد التنظيم الاسرى قد استعد لخدمته ، ثم تتولى تنظيمات مثل المدرسة والمعهد او الجامعة عملية تنشئته تربويا وتعليميا ، وما أن يتخرج من احداها الا ويجد أنه من الواجب عليه أن يخدم فى احدى وحدات الجيش ، وقبل ذلك أو بعده يجد تنظيمات العمل قد وفرت لـه الفرصة للمشاركة فى جهود واحد منها ، ويظل مرتبطا بهذا التنظيم أو بغيره ويعيش على ما يقدمه له من اجور وجزاءات حتى تنتهى مدة خدمته . وقد يعتمد على معاش يقدمه له هذا التنظيم ليعينه على مواجهة متطلبات البقيـة الباقية من حياته . وحتى اذا ما اصابه مرض فلا يجد مفرا من اللجوء الى تنظيم كالمستشفى ليقدم له ما يحتاجه من خدمات علاجية ، اما اذا وجد نفسه فى حاجة الى الترفيه فانه قد يلجأ الى تنظيم مثل النادى أو غيره ، كما قد يقضى الشخص مدة عقوبة فى تنظيم مثل السجن اذا ضبط أو ادين فى واقعة لا يقرها القانون . ومعنى هذا أن الانسان يمضى معظم فترات حياته فى تنظيمات وعندما يبدأ الاخرون فى اعداد رفاته للدفن ، فان تنظيما مثل الكنيسة أو غيرها يتولى اعداد مراسيم هذه العملية .

والواقع ان هذا الانتشار والنمو والتنـــوع وبروز دور التنظيمـــات فى المجتمع وحياة الانسان ، قد آثار اهتمام الباحثين فى علوم متعددة ، ودفعهم نحو العمل على توفير قدر من الفهم الموضوعى للتنظيم . ولعل هذا ما يفسر مايعانيه ميدان التنظيمات اليوم من عدم توفر بناء منظم يضم مختلف المعارف والافكار التى توفرت حوله . واحاول فى المقال الحالى حول تطبيقات النظرية السيولوجية للتنظيم فى المجال العسكرى أن اجيب على التساؤلات التالية :

ما هى وجهة نظر علم الاجتماع فى دراسة التنظيم ؟ وهل حاول باحثوه القيام بمحاولات ترمى الى تطبيق وجهة النظر فى المجال العسكرى ؟ وهل

بامكان عرض وتحليل هذه الوجهة للنظر ومحاولات تطبيقها ان تثير بعض الملاحظات وتطرح بعض التساؤلات ؟ وذلك لان الاجابة على هذه التساؤلات فى رأى خليقة بأن تطرح أمام المهتمين بدراسة التنظيم مجموعة من القضايا التى تستحق الدراسة ، ومن ناحية أخرى قد تمد العاملين فى الميدان العسكرى بحد ادنى من المعرفة العملية التى قد يفيدوا منها فى مجالهم وعملهم .

أولا : وجهة نظر علم الاجتماع فى دراسة التنظيم :

يرجع الاهتمام بدراسة التنظيمات الى بداية ظهور علم الاجتماع كنظام علمى أو كعلم مستقل قائم بذاته فكان (سان سيمون) S. Simon أول من لاحظ ظهور الانماط التنظيمية الحديثة ، وتعرف على بعض سماتها المميزة ، وادراك اهميتها فى تطور المجتمع ، وأكد أن الادارة فى مجتمع المستقبل لا تستلزم الالزام ولا القوى ولم تعد تستند الى الميلاد أو الوراثة ، وانما لابد أن تنهض على المهارات العلميـة والمعرفة الوضعية . غير أن (أوجست كومت) كان يعلق أهمية كبيرة على التنظيم التلقائى ويرى أنه يفوق التنظيم المخطط(١) .

وتنطوى كتابات (هربرت سبنسر) و (توتيس) و (دوركايم) على اشارات صريحة لمبدأ التنظيم الرشيد بخاصة فى محاولاتهم التمييز بين أنواع التنظيمات الاجتماعية وبين مراحل تطور المجتمع(٢) .

أما (ماكس فيبر) فكان أول من وضـع نظـرية منظمة عن التنظيم والسلطة ، قوامها الهيكل التنظيمى الرسمى والقواعد المحددة(٣) . وقد بدأ فيبر تحليلاته بصياغة نموذج للسلطة الشرعية المعقولة باعتباره هو النموذج القاعدى والنقطة التى يرجع اليها فى تحديد وتميز وتحليل النماذج التقليدية والمقدسة الأخرى للسلطة . وجاءت هذه الصياغة على شاكلة النموذج الشائع فى عصره ، ونعنى على شاكلة السلطة البيروقراطية فى المجتمع الالمانى فى ذلك الوقت ، التى نظر اليهـا باعتبارها الاداة الاكثر كفاية ومعقولية فى ادارة التنظيمات(٤) .

ولقد أصبحت نظرية (فيبر) فى هذا الصدد ، تمثل المصدر الاول للكثير من البحوث الامبيريقية والنظريات التى ظهرت فيما بعد ، والتى تتناول موضوع

---

(1) A. Gouldner, Organizational analysis; in : R. Merton, et al, Sociology to-day, Basic Books, Inc, Pub., New York, 1959, p. 400 - 401.

(2) R. Mayntz, The Study of Organizations, Current Sociology, Vol. XIII, No. 3 — 1965. p. 95.

(3) V. A. Thompson, Modern Organization; Alfred A. Knopf, N.Y. 1961, p. 10.

(4) M. Weber, The Theory of Social and Economic Organization, Trans. by T. Parsons, A Free Paper Back, New York, 1966, pp. 330 - 332.

التنظيم والبيروقراطية (١) هذا على الرغم من أن الميدان لم يخلو من اسهامات أخرى تدخل ضمن هذا المصدر (٢) .

ولقد انطلق كل من (ميرتون) و (جولدنر) و (فريدريك) و (بارسونز) و (فيليب سيلتر تيك) و (اتزيوني) وغيرهم من علماء الاجتماع ، من تحليلات (فيبر) ليديروا المناقشـــات النظرية حـــول مبحث التنظيمات أو ليقدموا وجهات نظرهم أو ليجروا البحوث للتحقق من مزاعمه .

اذ يذهب (روبرت ميرتون) في مناقشته لنظرية (فيبر) الى انه قـــد ترتب على تأكيـــد الأخير للنواحي الرشيدة وغير الشخصية في البنـــاء البيروقراطي ان جاء هذا البناء خاليا من الاشارة الى العلاقات والاعتبارات غير المعقولة الاخرى ومن كل ما له صلة بعلاقات الود والعـــداء والقلق وما اليها (٣) .

ولقد مهد (ميرتون) بهذه الملاحظة الطريق امام ما عرف فيما بعد باتجاه العلاقات الانسانية في الصناعة ونظرية الجماعات الصغيرة أو معوقات التنظيم dysfunction (٤) .

ولاحظ (جولدنر) ان النموذج البيروقراطي عند (فيبر) جاء خاليا من الاعتبارات المتعلقة بالزمان والمكان ، وحاول تحليله الى توضيح العناصر العامة التي قد تظهر في صور التنظيم البيروقراطي بغض النظر عن العصر والمنطقة التي تظهر فيها هذه الصور العامة (٥) .

وحاول (فريدريك) اختبار عناصر التنظيم البيروقراطي عند (فيبر) في ضوء الشواهد الامبيريقية ، وتوصل الى مجموعة من العناصر تكون نموذجا عاما ، قد تكشف البحوث المستقبلة اما عن وجودها أو تنتهي الى حذفها أو الى اضافة عناصر أخرى جديدة (٦) .

وعندما وجد (بارسونز) أن ميدان التنظيم يمثل احد المجالات المناسبة لاختبار نظريته العامة ، حاول أن يطبقها على هذا الميدان . وجاء تحديده

---

(١) R-Merton, et al., Readerin Bureaucracy, The Free Press, and Glenco, 1960. p. 17.

(٢) ويمكن أن نذكر في هذا الصدد ، ما قدمه روبرت ميشيل في دراسته الشهيرة حـــول الاحزاب الاشتراكية والنقابات وما تركه لنـــا شستار برنادر من أفكار في كتابه عن وظائف المديرين وما أضافه كل من تايلور وجوليك وأرويك وغيرهم .

(٣) R. Merton. Bureacratic Structure and Personality, in ; Social Theory and Social Structure, The Free Press of Glenco, Illinois, 1944, p. 151.

(٤) Crozier, Bureaucratic phenomena, Unive of Chicago Press, 1967. p. 174.

(٥) A. Gouldner, on Weber Analysis of Bureaucratic Rules in Merton, R., Reader in Bureaucracy, op. cit., p. 48.

(٦) J. Freedrick, Some observations on Weber's Analysis of Bureaucracy, in Merton, R., Reader in Bureaucracy, op. cit., p. 29 - 30.

للتنظيمات ليوجز المشاكل التى تواجه كل الانسـاق الاجتماعية . بحيث نجده ينظر اليها باعتبارها وحدات فرعية ، وكيف يمكن تحقيق التكامل بينها ؟ ثم يعتبرها موجهة نحو تحقيق هدف محدد ، وكيف يمكن التوفيق بين اهداف الوحدات الفرعية وبين الهدف العام للنسق ؟ وكان بارسونز قد استخدم مفاهيم المشاكل الاربعة للنسق والازواج الخمسة من متغيرات النمط فى تحليلاته لموضوع التنظيم(1) .

ويعتبر (فيليب سيلزنيك) التنظيمات بمثابة انساق لأوجـه النشاط المتناسقة او هى تعبيرا بنائيا عن الفعل المعقول(2) . واذا كان هذا النسق يحاول تعبئة كل موارده وامكاناته الانسانية من اجل تحقيق اهدافه ، فان الافراد داخله يقاومون كل معاملة لهم باعتبارهم وسائل ، وهم يتفاعلون كجماعات ويعملون ايضا على تحقيق اهدافهم وحاجاتهم الخاصة به . بمعنى انه ينشأ داخل نسق التنظيم نسق او بناء غير رسمى بعكس الجهود وأوجه النشاط التلقائية للأفراد والجماعات الفرعية(3) . وتقوم العلاقات داخل هذا البناء على اسس شخصية وتنطوى على عوامل الهيبة والقبول داخل الجماعة وروابط الصداقة وأساليب الضبط(4) .

ويرى (اميتاى اتزيونى) انه ينبغى النظر الى التنظيم على انه وحـدة اجتماعية معقدة وكبيرة يتفاعل داخلها جماعات اجتماعية متباينة وكثيرة . وبينما تشترك هذه الجماعات فى بعض المصالح والاهتمامات الا ان لها أيضا مصالح واهتمامات متعارضة ، وخاصة فيما يتعلق بالكيفية التى يتم بها توزيع الأرباح فى التنظيم وانهم اذا كانوا يشتركون أيضا فى بعض القيم القومية ، فانهم يختلفون من ناحية أخرى على قيم كثيرة .. وهى جماعات تتعاون فى مجالات معينة ولكنها تتنافس كذلك فى مجالات أخرى .. ويحدث ايضا الصراع بين جماعتا العمال من ناحية والادارة من ناحية أخرى .. ذلك لأن جهد الادارة نحو جعل العامل يؤدى عمله انما يؤدى الى جعله يعيش فى غربة عن عمله ، بما انه لا يملك وسائل الانتاج وانتاج عمله . ويفتقر الى كل فرصة للابتكار والتعبير عن الذات نتيجة لرتابة وتكرار العمل الذى يؤديه ، مما يجعل عمله يفقد معناه .

ولا يترك له الا قدر ضئيل من التحكم فى وقت عمله وفى المكان الذى ينجز

---

(1) A. Landsberger, Parsons Theory of Organization, in M. Black. The Social Theories of T. Parsons, Prentice Hall Inc. Cornell University, 1961, pp. 214 - 220.

(2) P. Selznick, Foundations of the Theory of Organization, American Sociological Review, No. 1, pp. 25 - 35.

(3) P. Selznick, A theory of organization commitments, in : R. Merton, Reader in Bureaucracy, op. cit., p. 195.

(4) P. Selznick, An approach to A theory of Bureaucracy, in ; L. Coser, & Rosenberg, ed The Sociological Theory, The Macmillan Comp. New York, 1955, p. 478.

فيه هذا العمل . وهكذا ينتهى اتزيونى الى القول بأن الاغتراب والصراع أمران لا مفر منهما فى كل التنظيمات (١) .

ومن الجدير بالذكر أن وجهات النظر السـابقة التى أسهم بها علماء الاجتماع فى دراسة التنظيمات قد لقيت عناية واهتمام زملائهم من الباحثين المهتمين بالتأريخ للنظرية السسيولوجية ، ومحاولات تصنيفها أو الكشف عن أسسها وتحليل عناصرها . فمن ناحية نجد كل من مارش وسيمون يصنفان هـذه الوجهات للنظر ويقسـمانها الى وجهات النظر التى تكون ما يعرف بالنموذج الكلاسيكى وأبرزها أسهامات ماكس فيبر ، والى وجهات النظر التى تكون ما يعرف بالنموذج الحـديث وأهمها اسـهامات بندكس وسيلزنيك وبار سونز وجولدنر وميرتون وغيرهم (٢) . بينما يذهب اتزيونى من ناحية أخرى الى أن وجهات النظر السابقة يمكن تقسيمها الى ما يلى :

(أ) النظرية الكلاسيكية ، وتمثـل وجهـات النظـر والتى كانت تهتم بالبحث عن كفاية وفعالية التنظيمات وتنظر الى العاملين باعتبارهم يسعون وراء الجزاءات المادية . وأن التنظيم يتسم بتقسـيم عمل محدد ، وبتدرج تميز للسلطة .

(ب) النظرية الحديثة ، وتمثل وجهات النظر التى كانت تهتم بدراسة العناصر الانفعالية وغير المعقولة داخل التنظيم ، والتى كشفت عن أهمية الصداقة وتجمعات المشاركين ، والقيادة والاتصال والمشاركة فى كفاية التنظيم .

(جـ) النظرية البنائية ، وتمثل وجهات النظر التى كانت تهتم بمحاولة التأليف بين قضايا النظريتين الكلاسيكية والحديثة (٣) .

ولكن يلاحظ على التصنيفات السابقة أولا أنها لم تأخذ فى اعتبارها الاطار النظرى العام الذى صدرت عنه وجهات النظر السابقة ، وما يساعد على صياغة تصنيف مناسب . ذلك أن هذه الوجهات للنظر فى دراسة التنظيمات كانت تصدر فى الواقع عن اتجاه نظرى واحد عرف فى علم الاجتماع بالاتجاه الوظيفى Functionalism فاذا كانت العلاقة بين وجهات نظر ميرتون وجولدنر وسيلزنيك وبارسونز فى دراسة التنظيمات وبين الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع لا يمكن الشك فيها ، ومن ثم التأكد منها وتقريرها . وأن العلاقة بين وجهات نظر ماكس فيبر فى هذه الدراسة وبين الاتجاه الوظيفى أيضا ليست فى حاجة الى ايضاح ، ذلك لأن هذا الاتجاه يمتد بجذوره الى

---

(١) A. Etzioni, Modern Organizations, Prentice-Hall Inc., New York, 1964, pp. 40 - 41.

(٢) J. March, & H. Simin, organization, John Wiley & Sons, Inc., New York, 1958, p. 7.

(٣) A. Etzioni, Modern Organization, op. cit., pp. 4 - 20.

كتابات ماكس فيبر ودوركايم (١) . غير أن العلاقة بين وجهات نظر الاتجاه البنائي وبخاصة اسهامات انزيوتى هى التى تحتاج الى ايضاح وتفسير ، ذلك لانه اذا كانت وجهـات نظر انزيوتى فى دراسـة التنظيم قد اهتمت اساسا ببعدى الصراع والاغتراب فانها بذلك لا تقوم بدراسة بعدى التكامل والثبات تلك التى يؤكد عليها ويهتم بها الاتجـاه الوظيفى كما هو معروف عنه . ولفهم العلاقة بين وجهـات نظر انزيوتى فى دراسة التنظيم وبين الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع ، يجدر بنا أن نلقى نظرة على نشأة هذا الاتجاه ومراحل تطوره .

فالواقع أن وجود تصور واحد مشترك يوجه البحوث السسيولوجية فى علم الاجتماع الذى تمتد بدايته الى أوجست كومت فى القرن التاسع عشر لم يتحقق الا بعد نهاية الثلاثينات وبداية الاربعينات فى القرن الحالى . عندما نشر تالكوت بارسونز كتابه عن بناء الفعل الاجتماعى (١٩٣٧) . ومن أن أظهرت مؤلفات بارسونز التالية حتى أخذت نظريته فى الانتشار فى أمريكا وأوربا بل ومختلف بلاد العالم ، باعتبارها بناء لنظرية فريدة فى علم الاجتماع . وذلك لانها تصور النسق الاجتماعى فى حالة ثبات ، وتنحو تجاه النزعة الارادية ودور الفرد ، وتجعل متطلبات المشروع الحر متطلبات مثالية على النحو الذى يجسد تصور السوق الحر واقتصاد دعه يعمل الذى وجد بارسونز أن مجتمعه عموما قد اختط من اجله . ومن هنا كان هذا التصور البارسونى للنسق يعكس ظروف المجتمع الذى ظهر فيه (٢). ولكن اضطرت هذه النظرية فيما بعد ، أن تدخل على بنائها بعض التغيرات عندما وجدت من الضرورى عليها أن تلاحق ظروف مجتمعها ، خاصة بعد أن وقعت أحداث اجتماعية هامة وتغيرات داخل هذا المجتمع وخارجه ، مع حلول الستينات من أهمها تضخم دور الخدمات العسكرية والثقافية فى الهيئة السياسية التى كانت تسهر على تنمية وازدهار دولة الرفاهية . ولما كانت الحاجات المتشابكة والمعقدة لهذه الدولة تختلف اختلافا جوهريا مع أسس وسلمات التصـور البارسونى للنسق الثابت . تأكدت الحاجة الى تصور نظرى جديد يوجه البحث السسيولوجى فى هذه المرحلة ، وازاء هذه الحاجة حدثت ردود فعل مختلفه ، تتراوح بين رد الفعل الثورى الذى يشير الى تيار النقد الموجه نحو كشف الصورة شبه الايديولوجية للاتجاه أو النظرية الوظيفية باعتباره يقدم تبريرا للاتجاه المحافظ الذى كان يميز هذه النظرية ، واخذ يوجهها نحو موضوعات الضبط الاجتماعى وعمليات التكيف مع الوضع القائم . ثم رد الفعل الثورى المضاد الذى حاول أصحابه تقديم سلسلة من التعديلات للمضامين الوظيفية فى تحليل الانساق الثابتة ، وما اعتقدوا أنه قد يفيد فى تحليل الانساق المتغيرة . فجاءت محاولاتهم هذه أقرب منهـا الى أى شيء آخر . ثم رد الفعل الثالث الذى حاول أصحابه صياغة نماذج نظرية جديدة ، وهذا ما حاوله جوفمان وجارفينكل وانزيوتى(٣)

(١) R. Fredricks, A Socialogy of Sociology, The Free Press. New York, 1970, p. 12.

(٢) A Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology, Heinman, New Delhi, 1971. pp. 341 - 351.

(٣) R. Freedrick, op. cit. pp. 35 - 38.

ومن هنا يمكن القول أنه اذا كان اتزيونى قد اهتم بموضوعات الصراع والاغتراب ، فانه اهتمام لا ينفصله عن الاطار النظرى العام للاتجاه الوظيفى ، وبالتغيرات التى حاول هذا الاتجاه ان يدخلها على بنائه استجابه للظروف الجديدة التى عمت المجتمع الغربى . وبناء على الملاحظة السابقة يمكن أن نقترح التصنيف التالى لوجهات نظر علم الاجتماع فى دراسة التنظيمات .

١ ـ اتجاه دراسة الوظائف الظاهرة للتنظيم ، ويضم اسهامات ماكس فيبر وغيره ممن حاولوا دراسة الوظائف الظاهرة للتنظيم والنتائج الموضوعية التى تسهم فى تكيف النسق تلك التى تعتبر نتائج مقصودة ومعترفا بها من جانب المشاركين فى النسق .

٢ ـ اتجاه دراسة الوظائف الكامنة للتنظيم ، ويضم اتجاهات العلاقات الانسانية فى الصناعة ونظرية الجماعات الصغيرة ، وكافة وجهات النظر التى اهتمت بدراسة الوظائف الكامنة والتى تعتبر نتائج غير متصورة وغير معترف بها ، والتى تنحصر فى الأساليب غير المقنعه والانماط التلقائية للسلوك(١) .

(جـ) الاتجاه البنائى ، ويشتمل على اضافات بارسونز واتزيونى وغيرهم من الباحثين الذى ينظرون الى التنظيم باعتباره نسقا اجتماعيا ثابتا او متغيرا ينطوى على مجموعة معتمدة ومتفاعله من العناصر البنائية .

ويلاحظ ثانيا على وجهات النظر السابقة فى دراسة التنظيم أنها لا تمثل كل ما يمكن أن ينطوى عليه علم الاجتماع من وجهات نظر . ذلك لأن الباحثون فى بلاد شرق اوروبا بدأوا يدركون حديثا الحاجة الى اجراء بحوث سسيولوجية حول التنظيمات ، بهدف فهم عمليات ادائها لوظائفها على أساس رشيد ووفقا للمصالح العامة والحيلولة دون اغترابها(٢) . ولم يجدوا مفرا من استعراض تصورات الباحثين فى بلاد غرب أوربا لظاهرة التنظيم ، واجراء فحوصا نقدية وتحليلا دقيقا لها فى ضوء وجهة النظر الماركسية اللينينية وحاولوا الكشف عن اخطائها المنهجية . وأوضحوا القضايا التى يمكن استخدامها فى بلورة الاشتراكية النظرية للتنظيم وفى مجال التطبيق(٣) .

وتتلخص أهم هذه القضايا فى النظر الى التنظيم باعتباره نسقا اجتماعيا ينطوى على أجزاء معتمدة فيما بينها ، وهو يجمع بين نسق اجتماعى وآخر

---

(١) R. Merton, Social Theory & Social Structure, The Free Press, pp. 55 - 61.

(٢) Mr. Hirszowicz, Problems of Organization, Sociological Abstracts, 1966, 14, 1, p. 53.

(٣) D. Gvishiani, Organization & Management, A Sociological Analysis of Western Theories, Progress Pub. Moscow, 1972, p.

فنى ، وفى الوقت نفسه يعتبر عنصرا بنائيا فى النسق الاجتماعى للمجتمع الأكبر ، ورغم أن التنظيم طابعه الكلى ، الا انه فى الوقت نفسه يعتبر بمثابة بناء أعلى قائم بذاته ويشتمل على عناصر بنائية عديدة أو أنساق فرعية ، تنحصر فى البناء الديموجرافى والبناء التنظيمى أو الرسمى ، الذى يشير الى العلاقات المنظمة والمحددة على أساس رسمى بين العاملين تلك التى توجه نشاطهم نحو هدف التنظيم ، فضلا عن البناء الاجتماعى غير الرسمى الذى يتمثل فى شبكة العلاقات القائمة تلقائيا بين العاملين وبين جماعاتهم(١)

واذا كانت القضية السابقة تشير الى امكانية الاستعانة بوجهات النظر المتعلقة باتجاه الجماعات الصغيرة فى دراسة التنظيم فى مثل هذه المجتمعات ، الا أن استخدام مثل وجهات النظر هذه لم يكن ينصرف عن تفسير البناء الخارجى لهذه الجماعات فى ضوء البناء الاقتصادى للمجتمع الأكبر(٢) مما يضفى على وجهات النظر هذه طابع الاثمار ويجعلها لهذا تتوسط بين الفرد من ناحية والبناء الاجتماعى من ناحية أخرى ولا يتوقف عليها عند حد التناول والتصنيف بطريقة شكلية على النحو الذى مال اليه علم النفس الاجتماعى الغربى(٣) .

ويلاحظ ثالث أن وجهات النظر الأخيرة فى دراسة التنظيم لم تكن منفصلة عن الاطار النظرى العام لهؤلاء الباحثين ، وانما تصدر عن ما يعرف بالاتجاه الماركسى فى علم الاجتماع Marxian وترتبط بالتطورات التى طرأت عليه عبر الزمن . فاذا كان الارتباط بين بعض وجهات النظر هذه وبين هذا الاتجاه ارتباطا واضحا وجليا لا يحتاج الى تفسير ، فان العلاقة بين وجهات النظر الأخرى التى أشارت بامكانية الاستعانة بنظرية الجماعات الصغيرة فى دراسة التنظيم ، وهى تمثل احدى فروع الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع ، العلاقة بين وجهات النظر هذه وبين الاتجاه الماركسى هى التى تحتاج الى تفسير وايضاح . فلقد اتخذت الماركسية اللينينية من المادية التاريخية نظرية سسيولوجية ومنهج فى تحليل ودراسة الواقع الاجتماعى(٤) وذلك عندما كانت هناك حاجة الى تحليل عوامل التغير والصراع داخلة . ولكن عندما احدثت أقاليم رئيسية فى بلاد شرق أوربا خلال النصف القرن الأخير ، تغيرات جوهرية فى الانساق الاجتماعية القديمة وأحلت محلها انساقا أخرى جديدة ، بدأت تظهر الحاجة الى تصور نظرى جديد يركز على الميكانيزمات التلقائية المؤدية الى الثبات والنظام الاجتماعى من أجل المحافظة على منجزاتها . تصور يؤكد القيم الاخلاقية والمعتقدات .. فاتجه

(١) L. Hakova, et. al., Social Structure of an Industrial Enterprise, schema of orientation, Sociological Abstract, 17, 7, 1969, p. 1303.

(٢) A. Cadet & B. Cathelat, Terminology of Soviet Sociology, Sociological Abstract, 1970, 18, 5. pp. 11 - 101.

(٣) E. A. Arabiology, et al, Sociology & Idèology, Sociological Abstract, 1970, pp. 991 - 993.

(٤) F. Konstantinov, & V. Kelle, Historical Materialism, Marxist Sociology, in : P. Holander, American & Soviet Sociology, edt. Prentice-Hall Inc. New Jersey, 1969, pp. 518 - 519.

علماء الاجتماع نحو التصور الوظيفى البارسونى (١) ، ولم يجدو غضاضة فى الاستعانة باتجاهاته ومنها الجماعات الصغيرة فى دراسة التنظيمات .

ولكن يبرز عنـد هذا الحد ملاحظة هامة يجدر الاشـارة اليها بصدد وجهات نظر علم الاجتماع فى دراسة التنظيم ، والاختلاف بين بعضها التى تصـدر عن الاتجاه الوظيفى ، والبعض الآخـر التى تصدر عن الاتجاه الماركسى ، من حيث النظرية والمنهج والتحليل . فالواقع أن الاختلافات بين المجموعتين من وجهات النظر من حيث النظرية ، لا يحتاج الى شرح وتفصيل . وانما يكفى الاشارة الى انه بينما تتسم المجموعة الأولى بالنظرة الجزئية التى لا تهتم الا تنظيمات فردية ، فان المجموعة الثانية تتسم بالنظرة الشاملة التى تتسع لتشمل تنظيم المجتمع فى جملته وفقا للأهداف التى تحددها الخطط الموضوعة على المدى الطويل (٢) .

وتضع تحليلاتها للجماعات الصغيرة فى سياق البناء الاجتماعى الاكبر . اما الاختلاف بين المجموعتين من وجهات النظر من حيث التحليل فيتضح اذا علمنا أن المجموعة الاولى ، قد تجرى تحليلاتها على مستويات ثلاثة هى الفرد ، أو الجماعة ، أو التنظيم (٣) . اما المجموعة الثانية ، فانهـا لاتجرى تحليلاتها على مسـتوى دون الآخر ، وانمـا تحرص على ربط تحليلاتها على احدى هذه المستويات بمستوى البناء الاجتماعى الشامل للمجتمع الاكبر .

ثانيا : تطبيقات النظرية السسيولوجية فى المجال العسكرى :

اقصد بتطبيقات النظرية السسيولوجية للتنظيم فى المجال العسكرى تلك المحاولات التى بذلها بعض الباحثين السسيولوجيين للاستفادة من وجهات النظر التى تناولناها سلفا لاجراء بحوثهم فى المجال العسكرى ويهمنا هنا ان نقدم بعض الامثلة على هذه المحاولات مرتبة وفق سنوات نشرها حتى يتوافر لدينا الاساس الذى يمكن أن ندير بناء عليهاالمناقشةونطرح بعضالقضايا ونثير بعض الملاحظات .

١ — ففى العرض الذى يقدمه جينكنز Jenkins فى عام (١٩٤٧) (٤) لبحوث القيـادة فى المجـالات الصناعية والحـكومية والهيئات المهنيـة والعلمية والدراسية ، نجده يركز على بحوث القيادة فى المجالات العسكرية. ويستعرض المؤلفات التى وضعها الكتاب العسكرين عن القيادة . وذهب الى انها اعتمدت على اراء شـخصية وتأملات ولم تستند الى الشـواهد الامبيريقية ، ومن اهم هذه المؤلفات كتاب اجيتون Ageton الذى يضـع

---

(١) A. Gouldner, The Coming Crises of Western Sociology, op. cit. p. 455 - 458.

(٢) D. Gvisluani, Oganization & Management, op. cit. p. 77.

(٣) R. Scott, The Theory of Organizations, In : Hand Book of the Modern Sociology, edited by Faris; R., Rand McNally & Comp., Chicago, 1964. p. 489.

(٤) W.O., Jenkins, Review of Leadership Studies with Particular reference to Military Problems, Psychological Bulletin, Vol. 44, 1947, pp. 54 - 75.

عدة خصائص او سمات للقيادة تلك التى يحصرها فى القدرة على التحكم فى النفس ، والتكتيك والشرف ، واتباع الاوامر والالتزام بالواجبات والاخلاص.

ويرى انها جوهرية فى عملية القيادة . ثم يشير الى الطـرق المستخدمة فى اختيار الضباط او قادة الفرق فى جيش الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والمانيا ويوضح الطابع الذاتى لهذه الطرق . وتناول بعد ذلك بالتحليل بعض البحوث التى اهتمت بالقيادة العسكرية ، ومنها بحوث جماعية هارفارد التى اهتمت بموضوع خصائص القيادة ، ثم تلك التى درست العلاقة بين القيادة والروح المعنـوية فى جيش الولايات المتحـدة ، والتى استعانت بمقاييس لدراسة الروح المعنوية طبقت على بعض الفرق العسكرية والتى اجريت بعض المقارنات بين مستوى الروح المعنوية لهذه الفرق ودرست العلاقة بينها وبين خصائص قادتها . كما درست العلاقة بين الروح المعنوية فى بحوث أخرى ، وبين اساليب القيادة .

وينتهى جينكز من هذا العرض الى بعض الملاحظات اهمها :

(ا) ان القيادة تعد امرا نسبيا للموقف موضوع الدراسة .

(ب) يمتاز القادة على اعضاء جماعتهم بتمتعهم بالمعرفة والقدرة الفنية فى المجال الذى تتخصص فيه جماعاتهم .

(ج) يشترك القادة مع اعضاء جماعاتهم فى خصائص معينــة اهمهــا الاهتمامات والخلفية الاجتماعية .

(د) ان تفوق القادة على اعضاء جماعاتهم فى خصائص العمر والتعـليم والخلفية الاقتصادية والاجتماعية والبنية فى حاجة الى تأكيــد من جـانب البحوث المستقبلة .

٢ ــ وضحت الاجزاء الاربعة لمؤلف ستوفر Stouffer وزملاؤه عن الجندى الامريكى American Soldier فى عام (١٩٤٩) مجموعة من نتائج البحوث التى اجريت على مختلف الفرق العسكرية لجيش الولايات المتحدة ، وتناولت عدة موضوعات اهمها :

(أ) التوافق مع الحياة العسكرية .

(ب) الحراك الاجتماعى داخل الجيش .

(ج) الرضا عن العمل .

(د) الاتجاهات نحو القيادة واساليب الضبط الاجتماعى .

(هـ) اتجاهات الروح المعنوية والعوامل المتصلة بها .

وكانت دراسة هذه الموضوعات تتم بالمقارنة بين الفئات المختلفة العاملة في وحدات الجيش ، وهم الجنود والمتطوعين وضباط الصف والضباط ، حتى يمكن الوقوف على الاختلافات بين هذه الفئات فيما يتعلق باتجاهاتهم نحـــو نظم الجيش وبخاصة السلطة ، ونحو أساليب الضبط ، وطبيعة العمل ، وغيرها وفيما يتعلق باثر خصالهم او خصائصهم التعليمية ، والعمرية ، والمهنية ، والزواجية ،على كل من هذه الاتجاهات،وعلى روحهم المعنوية(١).

٣ — ويستعين كل من كرتش وكرتشفيلد في كتابهما « نظرية علم النفس الاجتماعي ومشاكلها » في (١٩٤٨) ، بدراسة اجريت على كتيبتين من كتائب القوات الجوية لجيش الولايات المتحدة ، في تحديد معايير الروح المعنوية العالية والمنخفضة ، وكانت الاداة المستخدمة في هذه الدراسة هي اختبار سوسيومتري ، وذهبا الى أن معايير الروح المعنوية العالية كما انتهت اليه هذه الدراسة تتمثل في زيادة معدل التفضيل بين اعضاء الجماعة وقلة اتجاهات النبذ ، وتعدد الجماعات الفرعية التي تنقسم اليها الجماعة ، ونقص اتجاهات الاختيار لأفراد من خارج الجماعة . وان عكس هذا الوضع يمثل معايير الروح المعنوية المنخفضة (٢) .

٤ — واجرى باحث آخر مجهول الشخصية دراسة عن التنظيم غير الرسمي في الجيش(٣) ، بهدف تحديد الأهمية الوظيفية للجماعات غير الرسمية فيجيش الولايات المتحدة الأمريكية . وبالرغم من أنه يشير الى ضرورة تقديم وصف للتنظيم الرسمي حتى يتوافر لدينا خلفية ضرورية لمناقشة موضوع الجماعات غير الرسمية ، الا أنه هو نفسه لم يقم بوصف التنظيم الرسمي للجماعات التي أجرى عليها دراسته . وانما بدأ على الفور بتحديد الجماعة غـــير الرسمية في أنها تلك الجماعة الاجتماعية الارادية ، التي تظهر استجابة لظروف الحياة التي يفرضها التنظيم العسكري الرسمي ، وتتكون من كل أعضاء الوحدة الرسمية ، وتجمع بين الأفراد الذين يعيشون معا ويبيتون في مسكنات واحدة ،ويتناولون طعامهم معا ،ويقضون فترات التدريب والتمرينات الرياضية معا ويقضون أوقات الترفيه والعمـــل معـــا . بمعنـــى أن تكرار الاتصالات الشخصية الذي يساعد على أن يعرف الافراد كل منهما الآخر في مدة بسيطة ، يعد امرا جوهريا في تكون الجماعة غير الرسمية . وتمتاز هذه الجماعة بالدوام وانها تحافظ على كيانها رغم زيادة درجة التغير في عضويتها الناشئة عند نقل بعض الأعضاء الى وحدات أخرى أو اضافة اعضاء جدد اليها . كما انها تكون مجموعة من الاتجاهات المشتركة بين اعضائها تجاه ظروف حياتهم المشتركة ، تعبر عنها العبارات التالية :

— أي ضابط صف يوقع عقابا على أحد الجنود لاي ذنب وان كان خطيرا، يعتبر غير مرغوب فيه من جانب الجماعة .

---

(١) Stouffer. et al., The American Soldier, 1949.

(٢) D. Krech & R. Crutch field, Theory & Problems of Social Psychology, Mc Graw-Hill Pub., Inc., 1949, pp. 405 - 407.

(٣) Anonymous, Informal Social Organization in the army.

ـــ اذا كانت هناك امتيازات لأحد الأشخاص فيجب أن ينظر اليها زملاؤه الآخرون على انها مقدسة،ومن‌ثم يجب عليهم‌أن يبذلوا ماقى وسعهم لحمايتها

ـــ ان محاولة التمييز بين افراد الوحدة على اساس الرتب عملية غير شرعية ، ويجب أن يلقى أصحابها كل مذمة ونبذ .

ـــ ان اى محاولة لتجاوز مستوى الاداء فى العمـــل تعد عمليـــة غير مرغوب فيها .

ـــ ان التعاون بين أعضاء الجماعة أمر ضرورى لأداء العمل . ونمى الى جانب هذه المعايير مجموعة من عادات السلوك تتعلق باستخدام الآلات فى أداء العمل ، وكيفية التصرف فى المنتج النهائى منه . وصاحب هذه المعايير والعادات مجموعة من قواعد الجزاء لمواجهة كل سلوك يخرج على هـــذه المعايير ، تتدرج بين التعبير عن عدم الرضا واطلاق التسميات والتهـكم والعزلة وسحب الامتيازات ، ورفض تناول الوجبـــات مع صـــاحب هذا السلوك .

كما تكون الى جانب هذه الاتجاهات أو معايير السلوك ، نسق للمكانة الاجتماعية أو بناء للقيادة يبادر فيه اشخاص معنيين باقتراح الحـــلول لكل ما يواجه الجماعة من مشكلات والتوسط فى العلاقات بين زملائه،والتعبير عن راى الجماعة فيما يتعلق بالموضوعات الاساسية فى العمل ، لدى الادارة العليا ، والدفاع عن مصالح الجماعة ضد السلطة الخارجية ، وقد يكون هذا القائد غير الرسمى هو قائد الجماعة أو ضابطها الرسمى ، وقد يكون غير ذلك ، والمهم أن يكون هناك نوع من التنسيق بينهما ، والا حـــدث التوتر ، ونشأ الصراع بينهما .

واذا كان لأوجه النشاط السابقة للجماعة غير الرسمية دور ، فانه ينحصر فى انه اما أن يكون مكملا للترتيبات الرسمية أو معوقا لها . اذ يمكن عـــن طريق هـــذه الأوجه للنشاط ظهور ما يعـــرف بروح الجماعة ، تلك التى تجعل أعضاءها يشعرون بالفخر عندما تقوم جماعتهم بتحقيق الواجبـــات بطريقة مناسبة . وعندما تحول الظروف دون تكون هذه الاوجه للنشـاط ، وروح الجماعة يحدث نوعا من الفراغ التنظيمى ، ويسير العمل ببطء ويعترف المؤلف بعد ذلك ان هـــذا التحليل لم يمكنه من التوصل الى تعميمـــات معينة ، بقدر ما يشير الى الاهمية الوظيفية للجماعة غير الرسمية فى وحدات الجيش ، تلك الأهمية التى تحتاج جهودا مستقبلة لبيان درجتها .

٥ ـــ ويحاول شارلس بيج فى دراسته عن الوجه الآخر للبيروقراطية ، أن يوضح طبيعة ووظيفة البناء الاجتماعى غير الرسمى فى تنظيم عسكرى (١) .

(1) C. H. Page, Bureaucracy's other face, in P. Rose, The Study of Society, edt., Random House, New York, 1967, pp. 258 - 268.

وكان بيج في هذه الدراسة يعتمد على اسلوب الملاحظة بالمشاركة . فلقد افاد من تخصصه في علم الاجتماع وفي نفس الوقت من شغله لوظيفة ضابط في البحرية ، واخذ يدون ملاحظاته لمدة وصلت الى اربع سنوات . ويبدأ بيج دراسته بتحديد ملامح البناء الرسمي لوحدة البحريةالتي درسها ، بانها تعتبر مثلا على البناء الاجتماعي المنظم بطريقة رشيدة والذى تتداخل فيه الادوار وتتشابك وظيفيا من اجل انجاز مهمة محددة . ثم أشار الى أن كل الدراسات التي سارت في اتجاه ماكس فيبر ، قد أغفلت جانبا له اهميته ودلالته في التنظيم رغم انه جانب حيوى كذلك في التحليل الوظيفي ، ونعنى به البناء الاجتماعي غير الرسمي . وهو بناء يتكون من مجموعة من القواعد والجماعات وانساق السلوك غير الرسمية لانها على خلاف عناصر البناء الرسمي ، غير مسجلة في وثائق التنظيم ، وتنشأ تلقائيا ويحافظ عليها الافراد في نشاطهم وتستمر مع الزمن . بحيث يمكن أن تميز في هذا البناء تقاليد خاصة به ، وجماعاته الفرعية ــ الثلل أو الضاغطة ــ وانساق المكانة، والقيم والنظم ، واساليب الاتصال . والواقع أن هذا البناء يعجز الشخص الخارجي على التنظيم ادراكه ، لانه يستتر وراء حجاب ويتسم بالقداسة التي تحميه من كل محاولة لكشفه أو اظهاره للعين ، وأن من يخاطر بهذه المحاولة أو بمحاولة تغير هذا البناء أو اعاقته عن قيامه بوظائفه يحتمل أن يلحقه ضررا .

ولا يرجع هذا الوضع الى خوف الاعضاء من كشف هذا البناء ، وانما يرد الى وظيفة هذا البناء نفسه التي تتمثل في توفير قناة للتحايل علىالقواعد المحددة رسميا وعلى طرق انجاز العمل ، من خلال الاستعانة ببعض الاجراءات غير القانونية للتغلب على المشاكل العملية التي لا يتوافر لها حلولا كافية داخل اطار البناء الرسمي . ويمتد هذا البناء غير الرسمي لتنظيم البحرية رأسيا من القاعدة الى قمة الهرم الرسمي لهذا التنظيم وافقيا على طول كافة فروع هذا التنظيم . كما يمتاز بالتلقائية ويشجعها . وينطوى هذا البناء على بناء للمكانة والدور الاجتماعي يضم مجموعة من الاتجاهات ويشير الى وجود انماط للجذب والنبذ والى انماط القيادة الطبيعية يمكن الكشف عنها باستخدام الطريقة السسيوجرافية وعموما أن البناء غير الرسمي يشتمل على العناصر التي تحدد صورة الجماعة الاولية ، وينمو داخله صور الصداقة والثلل ، وتظهر علاقاتالحب والكره والثوابوالعقاب على مستوى العلاقات التلقائية الودية .

٦ ــ وفي عام ١٩٥٣ نشر جروس E. Gross دراسة عن النتائج الوظيفية للضوابط الاولية في تنظيمات العمل الرسمية (١) . وأخذ ضمن عينة دراسته هذه ، العاملين في احدى محطات الرادار بموقع للدفاع الجوى الامريكي . وكان الهدف من دراسته هذه الاجابة على سؤال مؤداه هل للضوابط الاولية وظيفة داخل التنظيمات الاجتماعية ؟ والى أى حد تمكن

(1) E. Gross, Some Functional Consequences of Primary Controls in Formal Work Organizations, American Sociological Review, Vol. 18, No. 4, 1953, pp. 368 - 378.

هذه الضوابط تلك التنظيمات من تحقيق اهدافها ؟ . ولقد انتهت هـذه الدراسة الى ان الجماعات الاولية تقوم بوظائف الاتصال والضبط الاجتماعي او بكل ما تعجز الترتيبات الرسمية عن انجازه .

٧ — وفي دراسة اخرى لجروس عام ١٩٥٤ ، موضوعها الوظائف الاولية للجماعة الصغيرة ، اجراها على ضباط وجنود احدى القواعـد الجوية الامريكية ، بهدف توضـيح دور الجماعات الاوليـة في تحقيق الحاجـات الاجتماعية لاعضائها وفي تحقيق التماسك الاجتماعي في الجماعات الرسمية. استخدم فيها ثلاثة مقاييس لدراسة التماسك ، الاول يشير الى التكامل والثاني يتناول تكرار التفاعل والثالث يختص بتحديد الروح المعنوية للجماعة. أوضح بعض المواقف الاجتماعية التي يمكن من خلالها الكشف عن الجماعات الاولية غير الرسمية (١) .

٨ — وفي عـام ١٩٥٥ اجرى ميداليـا Medalia وميلر Miller دراسة للقيادة الانسانية وعلاقتها بالروح المعنوية والكفاية في جماعات بعض الفرق العسكرية باحدى قواعد الطيران الامريكي . وانتهت الى ان الكفاية في العمل تعد محصلة لموقف العمل كله بما فيه القيادة التي تهتم بالعلاقات الانسانية والروح المعنوية للجماعة ، والخبرة في العمل (٢) .

٩ — وركز فيدلر Fiedler في عدد من بحوثه على دراسة اثر الحدود الاجتماعية التي يضعها القائد بينه وبين اتباعه أعضاء الجماعة ، في كفاية هذه الجماعة او ما أطلق عليه بالمسافة الاجتماعية للقائد . واستخدم عددا من اساليب البحث ، اهمها ما حدده بمقياس التماثل المسلم به او المفتـرض والمقياس السسيومتري . وكان من بين المجموعات التي درسها ، بعض فرق القاذفات وفرق الدبابات وانتهى من دراسته هذه الى أن القادة الذين يضعون مسافات اجتماعية وسيكولوجية بينهم وبين اعضاء جماعـاتهم ، يعتبرون أكثر كفاءة من القادة الذين يميلون نحو العلاقات الشخصية المتبادلة والوثيقة سيكولوجيا مع هؤلاء الاتباع (٣) .

١٠ — وفي بحث آخر درس فيدلر مقدرة القائد على الاسهام في اداء عمل الجماعات المتماسكة وغير المتماسكة . واجراه على بعض الفرق العسكرية المتباينة بينها فرق المدرعات العسكرية ، وفرق القاذفات والاساطيل الجوية. وحدد مقدرة القائد على الاسهام في اداء الجماعة في امكانه الاتصال باعضاء جماعته وفي رغبتهم في قبول توجيهاته . وحدد الجماعة المتماسكة في تلك

(1) E. Gross, Primary Functions of the small group American Journal of sociology, Vol. LX, No. 1; 1954, pp. 24.

(2) N. Medalia, & D. Miller, Human Relations leadership and the association of Morale & effeciency in work groups, A controlled study with small military units, social Forces, pp. 55.

(3) F. Fiedler, The leaders Psychological Distance and group effectiveness in : cartwright & Zander, group Dynamics, op. cit. pp. 587 - 605.

الجماعة التى يشعر اعضاؤها بالانجذاب نحوها ، والتى تخلو من مظاهر التوتر بين اعضائها . وانتهى من هذا البحث الى أن القائد ترقى كفاية جماعته عندما تكون الجماعة متماسكة . وأن القائد فى الجماعة غير المتماسكة لا يمارس تأثيرا عليها فى اتجاه ينعكس على كفاية جماعته (١) .

ثالثا : ملاحظات على تطبيقات نظرية التنظيم فى المجال العسكرى .

يلاحظ اولا أن التطبيقات المشار اليها سلفا ليست الا مجرد امثلة توافرت تحت ايدينا على المحاولات العديدة لاجراء بحوث ودراسات فى المجال العسكرى فى ضوء افكار وآراء ووجهات نظر علم الاجتماع فى دراسة التنظيم.

ويلاحظ ثانيا انه حتى هذه الامثلة القليلة لا تمثل كل وجهات النظر لعلم الاجتماع فى دراسة التنظيم ، وانما تمثل فقط وجهات النظر الموجهة بالاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع . لانه لم يتوافر تحت ايدينا الامثلة التى يمكن الاستشهاد بها على وجهات النظر الموجهة بالاتجاه الماركسى فى علم الاجتماع كما أشرنا اليها سلفا .

ويلاحظ ثالثا أن الاتجاه الغالب على هذه المحاولات يجعلها تنصرف نحو الاهتمام بموضوعات معينة مرتبطة بالتنظيم العسكرى دون غيرها من موضوعات أخرى . فلقد كان الاتجاه الغالب يميل الى دراسة تلك العناصر التنظيمية التى تقع تحت مقولة التنظيم غير الرسمى ، وهذا يتضح من دراسات شارل بينج وادوارد جروس .

وحتى الدراسات التى تناولت بعض عناصر التنظيم الرسمى ومنها عنصر السلطة أو القيادة ، فانها كانت تهتم بالجانب السلوكى والاجتماعى له . وهذا يتضح من محاولة جينكنز فى دراسته للقيادة وخصائصها واختيارها وعلاقاتها بالروح المعنوية ، وكذلك دراسات فيدلر واهتمامه بالمسافة السيكولوجية للقائد واثرها على كفاية جماعته ، ودراسة ميداليا وميلر للقيادة الانسانية واثرها على الروح المعنوية وكفاية الجماعة ،ودراسة ستوفر لاتجاهات العامل بنحو السلطة والضبط وغيرها . وليس غريبا أن تغفل هذه البحوث والدراسات معالجة موضوع التنظيم الرسمى ، بالرغم من أن هذا الموضوع ونعنى به ملامح التنظيم الرسمى للجيش كان من أهم ما أثار اهتمام ماكس فيبر وهو أول من وضع نظرية منظمة عن التنظيم(٥). ذلك لانه اعتقد عندما كان ضابطا فى الجيش الالمانى ، الذى كان يمثل تنظيما عسكريا ضخما يدار بطريقة آمره ويتحرك الافراد داخله وفق أوامر وتعليمات صارمة ومحددة سلفا ومفروضة عليهم ، اعتقد أن هذا الاسلوب فى التنظيم يمكن أن ينجح فى كل المجالات الاخرى (٢) .

---

(1) F. Fiedler, Leaders Contributions To Task Performance in Cohesive & Un-Cohesive Group, Journal of and normal & social psychology, Vol. 67, Vol ; 1963, pp. 83 - 87. Vol. 67, No. : 1. pp. 83 - 87.

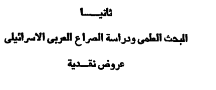
(٢) V. Thompson, Modern Organization op. cit. p. 10.

(٢) دكتور عبد الكريم درويش ودكتوره ليلى تكلا ، أصول الادارة العامة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ ، ص ١٨٩ .

واذا كان هناك من يسوق بعض التبريرات لعدم الاهتمام بدراسة ملامح التنظيم الرسمي للجيش من جانب هذه الدراسات ويحصرها في أن دراسة مثل هذه الملامح قد يترتب عليها تناول بعض الجوانب التى قد تدخل ضمن الاسرار العسكرية . الا اننا نرى انه كان فى الامكان تناول موضوع التنظيم الرسمى دون الاشارة الى تلك الجوانب التى يغلب عليها طابع الأسرار العسكرية.

رابعا : ويلاحظ أن اهتمام هذه الدراسات بالتنظيم غير الرسمى ، جعلها تسرف فى تحليل هذا التنظيم ، دون أن تدرك أهمية معالجة الاعتماد الممكن والمتبادل بينه وبين عناصر التنظيم الرسمى .

خامسا : ويلاحظ أن هذه الدراسات فى اهتمامها بجوانب التنظيم الرسمى كانت قد قصرت تحليلاتها على علاقات التكامل والتماسك بين الفئات العاملة فى الوحدات العسكرية ، وهكذا توقفت تحليلات هذه الدراسات عند المستوى الكومتى او الاستاتيكى ، ولم يتجاوزه الى المستوى الدينامى الذى ينصرف الاهتمام فيه الى تحليل علاقات العداء والتنافس والصراع بين هذه الفئات وما يساعد على فهم مشاكل الشد والتوتر واثرها على أداء هذه الوحدات العسكرية لمهامها على الوجه الافضل .



ثانيـــــا

البحث العلمى ودراسة الصراع العربى الاسرائيلى

عروض نقـــدية



فى المجتمع الاسرائيلى

تأليف : د. أسعد رزوق

محاولة أولية لدراسة التناقض والتكامل من زاوية علماء الاجتماع فى اسرائيل وخارجها

القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٩

عرض وتحليل

د. هــدى مجــاهد

ترجع اهمية هذا المؤلف الى كونه احدى المؤلفات التى تناولت المجتمـع الاسرائيلى بالدراسة من وجهة نظر سيوسيولوجية وسياسية وممثلة لوجهة نظر علماء الاجتماع فى اسرائيل مع تقديمها فى اطار يعكس رأى عالم من علماء الاجتماع العرب . ومن هنا تبدو اهمية الموازنة بين وجهتى النظـر اللذان يمثلان طرفى الصراع العربى الاسرائيلى — وقد ادرك الباحث هذه الصعوبة منذ البداية من حيث امكانية التزامه الموضوعية التى تعتبر احدى الدعائم الاساسية فى أى دراسة علمية ، وقد حاول جاهداً أن يجنبمشاعره العاطفية وتناول المجتمع الاسرائيلى كواقع قائم له ابعاده ومعطياته .

والهدف الاساسى لهذه الدراسة هو فهم المجتمع الاسرائيلى ومعـرفة احواله وتركيبه وبناؤه الداخلى مع عدم اغفال التناقضات البارزة فيه ، والخروج بصورة لهذا المجتمع لا تكون وليدة الرغبات والتمنيات القومية ولكنها تكون مرآة صادقة لواقعه وابعاده .

وقد اعتمد الباحث فى دراسته لهذا المجتمع على المراجـع والمصـادر الاجنبية المترجمة عن اللغة العبرية بالاضافة الى الدراسات الاسرائيليـة الاجتماعية التى تناولت المجتمع الاسرائيلى من حيث تركيبه واتجـاهاته ومفاهيمه الرئيسية ، مع عقد المقارنات بين هذه المصادر لتجنب التحيز بقدر الامكان .

اما عن المنهج المستخدم فى هذه الدراسة فهو الاعتماد على بعض الاقوال الوصفية والعبارات التقريرية عن المجتمع الاسرائيلى مع محاولة ارجاعها الى اطار المعطيات الراهنة والمعلومات الثابتة من اجل التحقـق من صحتها والتأكد من صدقها بالنسبة للواقع الاسرائيلى . وقد أورد الباحث فى هـذا الشأن اربع مقولات رئيسية اعتبرها بمثابة منطلقات للدراسة وهى :

١ — ان اسرائيل هى مجتمع من المهاجرين اليهود .

٢ — أن الحياة السياسية فى المجتمع الاسرائيلى تتركز فى نظام الحزب الواحد .

٣ — ما هية الاساس العقائدى أو الايديولوجى الذى ينطلق منه الاتجاه المعروف بالصهيونية العالمية .

٤ — ان اسرائيل هى مجتمع مازال يبحث عن هويته القومية .

وقد اقتصر الباحث فى تناوله للدراسة على المنطلقين الاول والثانى مع عدم اغفال البعد الصهيونى بالنسبة لظاهرة المجتمع الاسرائيلى ، بل حاول التوقف عند المقومات والخصائص الصهيونية كلما اتيحت له الفرصة وخاصة فى ضوء الوضع الذى نشأ داخل المجتمع الاسرائيلى عقب حرب الايام الستة .

وتقع هذه الدراسة فى مائة وخمسة وثلاثون صفحة قسمها الباحث الى ثلاث أبواب رئيسية تناول القسم الاول علماء الاجتماع الصهيونى امام التكامل والتناقض فى اسرائيل والقسم الثانى عن مجتمع المهاجرين اليهود والقسم الثالث فى المقومات الصهيونية للمجتمع السياسى .

ويعتبر القسم الاول من الكتاب ممثلا لثلاثة نماذج من اعمال علماء الاجتماع فى اسرائيل من حيث موقفهم من دراسة مجتمعهم ومنهجهم فى الدراسة وفهمهم له . وقد اوضح الباحث ان هناك شبه أجماع لدى العلماء والباحثين فى اسرائيل على التركيز على عملية التغير الاجتماعى وفقا لواقعتين لعبتا دورا هاما ورئيسيا فى دفع عملية التغير فى كل من القيم والمؤسسات والتركيب السكانى والتوزيع المهنى وغيرها من المؤثرات الاجتماعية ذات الدلالة بالنسبة للتغير . وتتعلق الواقعة الاولى بانشاء الدولة وقيامها وتتعلق الاخرى بابعاد الهجرة اليهودية الجماعية التى اعقبت اعلان الدولة . ورغم اتفاق النماذج الثلاثة الممثلة لاعمال علماء الاجتماع الاسرائيلى على أهمية التغير الاجتماعى كمدخل للدراسة ، الا أن طريقة تناول هذا التغير الاجتماعى قد اختلف فى النماذج الثلاثة من حيث الجوانب التى ارتكز عليها .

فنجد النموذج الاول فى دراسات ايزنشتات عن تطور المجتمع الاسرائيلى، الذى حدده باربعة مراحل رئيسية شهدها المستوطن اليهودى بفلسطين (اليشوف) ، وانتهى من هذه المراحل الاربعة الى وجود مسائل كبرى تشغل بال المجتمع الاسرائيلى المتطور وتتضمن فى نظره :

١ — المسألة المتعلقة بطبيعة التهود .

٢ — المسألة المتصلة بالعصرية والتحديث .

٣ — مشكلة العلاقة مع البيئة الجغرافية فى اطار الشرق الاوسط .

ووفقا لوجهة نظر ايزنشتات أن عملية التحول والانتقال من اليشوف الى مرحلة الدولة قد حمل فى طياته مشكلات رئيسية مثل مشكلة الانتقال من نظام تعددى يتصف بالطوعية ويقوم على اللامركزية الى مركز موحد للسلطة

السياسية والمسئولية الاقتصادية ، ومشكلة الاندماج المتكامل لذلك الخليط اللامتجانس من المهاجرين اليهود ، ومشكلة الحيوية بمعنى صياغة جماعية ومميزة مع معطيات الواقع المجتمعى وتطلعاته .

هذه المشكلات كما يراها ايزنشتات تعد مشكلات رئيسية لتطور المجتمع الاسرائيلى فى ظل الكيان السياسى .

والنموذج الثانى الذى اعتمد عليه الباحث فى فهم المجتمع الاسرائيلى كان متمثلا فى اعمال يهوذا ماتراس فى كتابه عن « التغير الاجتماعى فى اسرائيل » . ومفهوم ماتراس للتغير يختلف عن ايزنشتات بل أنه قد وجه كثير من النقد لفكرته عن تطور المجتمع الاسرائيلى . وقد اعتمد ماتراس على مفاهيم اساسية فى تناوله موضوع التغير وهذه المفاهيم : الدور ، النظام الاجتماعى ، مستوى التنظيم الاجتماعى وحاول تطبيق هذه المفاهيم النظرية فى اطار التغير الاجتماعى فى المجتمع الاسرائيلى . وينظر ماتراس للتغير فى اسرائيل على أنه تغير فى البناء الاجتماعى للسكان اليهود فى البلاد مستندا على معطيات ديموجرافية مع دراسة السكان من خلال علاقتهم بالبيئة .

وانتهى ماتراس الى أن أهم التغيرات التى حدثت منذ قيام اسرائيل فى بناء المؤسسات السياسية القائمة تنحصر فى :

١ — انتقال جانب كبير من الوظائف الاجتماعية والاقتصادية والدينية من أيدى الجماعات والمنظمات الطوعية ، الى الوزارات والادارات التابعة لحكومة اسرائيل . ويعتبر هذا الانتقال من الخطوات الهامة فى التغير الاسرائيلى .

٢ — العلمنة ، وهذا ما يحدث بنوع خاص من جيل الى جيل بين سكان اليهود الشرقيين ، والاتجاه العلمانى يمثل اهمية كبرى فى استقطاب التأييد الشعبى لصالح احد الطرفين فى النزاع بين انصار الدولة العلمانية ودعامة الدولة الدينية فى اسرائيل .

٣ — حلول التناقضات النابعة عن المصلحة مكان التناقضات العقائدية او الفروقات العقائدية بين الاحزاب السياسية الصهيونية فى اسرائيل .

أما النموذج الثالث الذى اعتمد عليه فى توضيح ابعاد المجتمع الاسرائيلى فكان ممثلا لوجهة نظر « يوسف بن دافيد » فى مقاله عن التغير الاجتماعى أم فزوقات اثنية .والذى يلتقى فيه مع كل من أيزنشتات وماتراس فى التركيز على مفهوم التغير الاجتماعى ، والعزوف الصهيونى المدروس عن التركيز على الفروقات الاثنية الصارخة . فنراه يركز على التقليل من هذه الفروقات الاثنية والثقافية متعمدا حيث يوضح أن العامل الثقافى لا يعد وكونه عاملا ثانويا يمارس عمله على صعيد الظاهرة الاعم من التغير الاجتماعى ، وان دراسة جماعات ذات خلفيات ثقافية متباينة لابد وان يكون مسبوقا بتحليل عملية التغير الاجتماعى الآخذة فى السير والتطور ، وان مثل هذا التحليل

يعتبر عامل « المنشأ الاثنى » بمثابة عامل واحد فى تكوين السلوك الـــذى ينشأ كرد فعل لذلك التغير ، وان التغير الذى حدث هو نتيجة الهجرة الى اسرائيل .

واستكمالا لتوضيح صورة المجتمع الاسرائيلى من وجهة نظر الاسرائيليين فقد عرض لنموذج آخر من التفكير الصهيونى وغير الاسرائيلى متمثـــلا فى اعمال « ادوين صموئيل » من واقع دراسة له عن بنية المجتمع الاسرائيلى». وقد ركز ادوين فى هذه الدراسة على فكرة التكامـــل القـــومى فى المجتمع الاسرائيلى حيث ميز بين احد عشر شكلا من اشكال التكامل القومى .وهذه الاشكال المختلفة فى الواقع دعاية للمجتمع ومحاولة اعطاء نتائج ممهـــدة لخدمة اغراض الصهيونية والاسرائيلية ولا تعكس حقيقة المجتمع الاسرائيلى من حيث تناقضاته الداخلية التى يزخر بها بل تعطى ملامح الصورة المشرقة للمجتمع .

وانهى الباحث القسم الاول من الكتاب — بعد رسم صورة هذا المجتمع من واقع اعمال علماء الاجتماع الاسرائيليين ، بتصوره عن هـــذا المجتمع فركز على جوانب التناقض الصارخة فى المجتمع والتى صورها الاسرائيليون على انها ممثلة للتكامل الاجتماعى والقومى ، ومبرزا اهمية الفروق الاثنية بين مختلف الفئات المؤلفة للمجتمع ويرى الباحث أن هناك تفاوتا واضحا بين الصورة الواقعية للمجتمع والصورة المثالية التى اتضحت من البحوث والدراسات الاسرائيلية.وان هذا التفاوت يطمس معالم وخصائص هامة ينفرد بها هذا المجتمع من أجل تبرير الوجود الاسرائيلى والتشديد المصطنع على الجذور المجتمعية التى تمتد الى فترة ما قبل قيام اسرائيل .

اما القسم الثانى من الكتاب فهو الذى عالج فيه المقـــولة الاولى التى اتخذها محورا وهدفا للدراسة وهى التى تتعلق بمجتمع المهاجرين اليهود. فالهجرة فى المفهوم الاسرائيلى تؤدى وظيفة هامة من وظائف الامن واداة ضرورية للتوسع والنمو ، وهى منذ قيام اسرائيل اتخذت طابعا مصـــيريا بالنسبة للوجود الصهيونى فوق ارض فلسطين . وقد ركز البـــاحث على معالجة الهجرة من منظور ديموجرافى واعتمد على تقسيم ماتراس فى دراسته عن التطور السكانى واخذ بالمراحل السبعة لها منذ عام ١٩٤٨ — ١٩٦٧ . وقد تناول الباحث كل مرحلة منها من حيث تعيين الخصائص البارزة والعامة لها ، وارتفاع معدلات الهجرة وانخفاضها وربطهـــا بالابعـــاد الاجتماعية والسياسية فى كل من المجتمع الاسرائيلى والمجتمع الدولى ، ودور الاجهزة والسلطات الاسرائيلية فيها . كما أوضح الباحث نوعيات المهاجرين والآثار المترتبة على الهجرة فى المجتمع الاسرائيلى من حيث تأهيل المناطق غـــير المستوطنة وازدياد عدد المستوطنات ، وتركيب الهجرة اليهودية من حيث الاصول المنحدرة منها والخلفيات الثقافية والمشكلات المرتبطة بهذا التركيب.

كما عالج فى هذا القسم فكرة التمييز بين فئات المهاجرين التى تبلورت فى وجود اسرائيل الغربية واسرائيل الشرقية والتى تعرف احيانا باسرائيل الاولى والثانية ، ومن الخصائص التى يتميز بها كل منهما من حيث الدين،

والخلفية الثقافية التى ينحدرون منها ، والاختلاف بينهما من حيث الهوية ، واضطهاد الاولى للثانية والاستئثار بمقاليد الحكم والسياسة ، رغم تفوق اسرائيل الشرقية من حيث القوة العددية .

فاذا كانت اسرائيل الثانية تعانى الحرمان والتمييز على يدى اسرائيل الأوربية ، فما هو المغزى من القوة العددية لليهود الشرقيين ، والمستقبل الذى يحمل فى طياته زيادة مطردة تصل وفقا للتوقعات الى ٧٠٪ من السكان عام ١٩٧٥ . وقد تفاوت الراى فى هذه النقطة من قائل بان ظهور الاحزاب القائمة على دعم مصالح اليهود الشرقيين سيشكل خطرا على النظام السياسى الاسرائيلى الى رأى آخر يوضح أن سر الهوة الفاصلة بين عناصر السكان الغربيين والشرقيين سوف يبقى مسألة وجود بالنسبة لدولة اسرائيل وان ظاهرة الازدواج فى المجتمع الاسرائيلى وحل مشكلة الاثنولوجية الداخلية قد يساهم فى احلال السلام بين اسرائيل والدول العربية . ولكن هذه الحجة تحاول اختزال النزاع العربى الاسرائيلى الى مجرد خلافات ثقافية ، وتتعامى عن شعب فلسطين او الطرف الاصيل فى النزاع .

ولكن رغم العوامل الداخلية القائمة فى المجتمع الاسرائيلى والتى تؤدى الى تفككه داخليا ، توجد عوامل أخرى تعمل على تماسكه وتكامله ، اذ مهما اشتدت حدة التناقضات الاثنولوجية ، هناك من العوامل المؤدية الى تماسك اطراف المجتمع ومن اهمها الخطر الخارجي الذى تحاول اسرائيل التهويل من الخطر العربى . فالحروب التى خاضتها اسرائيل تعتبر الى حد كبير قد حققت من تكامل مختلف الفئات والقطاعات السكانية ، وان هذه الظاهرة قد لعبت دورا رئيسيا فى تحقيق التماسك والتخفيف من حدة التناقضات الداخلية .

اما القسم الثالث والاخير من الكتاب فقد عالج فيه المجتمع الاسرائيلى الدائر فى فلك الصهيونية فتناول الحركة الصهيونية ، والمشكلات التى تواجه عملية الهجرة اليهودية الى المجتمع الاسرائيلى والمناقشات التى شهدتها المنظمة العمالية والحكومية الاسرائيلية خلال الفترة اللاحقة بحرب الايام الستة . وقد أوضح الباحث أن المقومات التى يستند اليها المجتمع الاسرائيلى وثيقة الصلة بموضوع الاحزاب القائمة فى الدولة والتى تسعى للتحالف والائتلاف تحت راية التوسع والسيطرة وانتهى هذا القسم ببعض النتائج التى تعكس الجانب السياسى والحزبى فى اسرائيل .

والباحث فى تناوله بالدراسة للمجتمع الاسرائيلى قد حقق نجاحا الى حد كبير من حيث الموضوعية التى عالج بها البيانات والمعلومات المتصلة بالمجتمع ، فقد عرضها بقدر كبير من الحيادية العلمية وحاول ابراز تحيز علماء الاجتماع الاسرائيليين من حيث قدرتهم على اخفاء الحقائق التى تصور حقيقة هذا المجتمع والتركيز على جوانب التكامل الاجتماعى أو « الملكة » كما يسموها والتى تتضمن عملية تجميع اليهود وتوطينهم فى البلاد المحتلة والتعبئة السياسية والاجتماعية التى تلقى على عاتق الحكومة وحدها وتثبيت

الاشكال والصيغ المجتمعية التى تتلاءم مع طبيعة النظام ، وتخدم اغراض الدولة واهدافها البعيدة ، كما تعمل على تحقيق عمليات استيعاب المهاجرين الجدد وادماجهم فى جسر المجتمع تحت الشعار الصهيونى القائل بتذويب الفروقات الاثنية والثقافية بين اليهود الذين استوطنوا فى البلاد وصهرها فى بوتقة اسرائيلية واحدة . وقد وفق الباحث فى تحديد الجوانب المختلفة للتناقض فى داخل هذا المجتمع ، ومن هنا كانت وجهتى النظر الاسرائيلية والعربية عاملا هاما فى توضيح كثير من جوانب هذا المجتمع ذو الطبيعة المتميزة .

ولعل الموضوع الذى برز فى عنوان الدراسة قد اهتم بالتكامل الاجتماعى والتناقض فى هذا المجتمع. والتكامل الاجتماعى بوجهة النظر السوسيولوجية لا يمكن دراسته من خلال الاعتماد على بعد واحد كمحك فى هذا الحكم ، ذلك لان التكامل الاجتماعى يعتبر عملية معقدة وتتم من خلال مستويات عديدة تبدأ من الجماعة الصغيرة حتى تصل الى مستوى المجتمع ككل . واصبح الاتجاه الحديث فى علم الاجتماع الآن يتجه نحو التمييز بين انماط مختلفة من التكامل بدلا من اعتبارها مفهوما ذا بعد واحد . وفى هـذه الدراسـة برز استخدام هذا المفهوم على مستوى المجتمع ككل على اساس تحليل الوقائع والظواهر الهامة فى الوقت الذى لم يغفل فيه الباحث معالجة بعض مستويات التكامل الأخرى من حيث الاتساق بين الخلفيات الثقافية المختلفة والمعايير السلوكية للافراد ، والاتساق بين المستويات الثقافية المختلفة وهما ما يعرفا بالتكامل المعيارى والتكامل الثقافى .

نظرة على الخطر
دراسة عن الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية

تأليف : حاتم صادق

القاهرة : دار المعارف بمصر ١٩٦٧

عرض وتحليل

نادية سـالم

تعتبر دراسة اسرائيل دراسة شاملة وموضوعية ضرورة ملحة تفرضها الظروف التى يمر بها الوطن لذا يجب أن تخضع مثل هذه الدراسة لأمانة البحث العلمى وأن تبتعد عن اية محاولات للتقليل من قدرة العدو أو المبالغة فيها والعمل الذى نعرض له من أوائل الكتب تناولت الجوانب الهامة فى سياسة العدو من خلال نظرة شاملة وأمينة فهو محاولة لدراسةالاستراتيجية السياسية لاسرائيل من خلال دراسة اسس واصول الاستراتيجيةالاسرائيلية وتطبيقها العملى المتمثل فى تطور السياسةالخارجيةالاسرائيلية نظرا لتحكمها الى حد بعيد فى تشكيل العقلية الاسرائيلية وتحديد نوعية القوى الداخليـة التى ترسم وتخطط للاستراتيجية السياسية . ولقد جاء تناول الكتـاب للنكسة العربية فى يونيه ١٩٦٧ باعتبارها نتيجة لمواجهة عربية اسرائيلية ومحصلة للعمل الاسرائيلى خلال عشرين عاما الذى قام على فهم عميـق للظروف الدولية والعربية السائدة فى كل فترة زمنية وعلى ادراك سـليم للعوامل الاستراتيجية التى تحكم التحرك الاسرائيلى .

وحاول الكتاب أن يمد ببصره الى المستقبل ليبدأ محاولة فى اسـتكشاف احتمالات تطور الردع الاسرائيلى من ردع تقليدى الى ردع نووى والصورة المحتملة للأوضاع فى الشرق الاوسط على ضوء هذا الاحتمال .

ويقع الكتاب فى خمسة أبواب تضم تسعة فصول الباب الاول عن « وقفة عند النكسة » ويحلل الظروف التى أحاطت بالنكسة والمقدمات التى مهدت لها والنتائج التى يمكن أن تترتب عليها . والباب الثانى عن « تطور الحركة الصهيونية والعلاقات الاجتماعية فى اسرائيل » فيناقش تطـور اليهودية والصهيونية والمجتمع الاسرائيلى والباب الثالث عن « أسـس وأصـول السياسة الخارجية الاسرائيلية ويعرض للعوامل المؤثرة فى الاستراتيجية الاسرائيلية والأهداف القومية والمبادىء التى تحكم السياسـة الخارجيـة الاسرائيلية .

ويناقش الباب الرابع مراحل تطور السياسة الخـارجية الاسرائيليـة وتطور علاقات اسرائيل مع القوى الدولية والباب الخامس يعرض للتطور الذرى فى اسرائيل .

ويتناول المؤلف فى الباب الذى خصصه للنكسة الظروف الدولية السائدة

قبل تصاعد المواجهة العربية الاسرائيلية وبعد الحرب من تغير للتيـــادات السياسية فى كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وتزايد نتائج النزاع الصينى السوفيتى وقد جاءت هذه التطورات فى مرحلة تميزت العـــلاقات الدولية خلالها باستحالة الوصول الى نقطة المواجهة الشاملة بين المعسكرين الشرقى والغربى وتدعمت خلال هذه الفترة الاتجاهات التى سادت غرب أوربا للخروج من النفوذ الأمريكى وخلق كيان أوربى متميز وفى مجـــال العالم الثالث تميزت تلك الفترة بانشغال هذه الدول فى مشكلاتها الداخلية التى خلقتها لها ضربات دول الاستعمار الجديد ووضح ضعف كتلة عـــدم الانحياز وكان أبرز ما اتسم به الصراع الدولى فى الشرق الاوسط أنه كان يتم من خلال تعامل كلا من أمريكا والاتحاد السوفيتى مع أحدى القوى فى منطقة الدول العربية التقدمية أو الدول العربية الرجعية واسرائيل وفى تلك الفترة كانت التجهيزات والاعداد العسكرى على أشده فى اسرائيل مستغلة شحنات السلاح الأمريكى المعلن عنها والغير معلن فى تدعيم قدراتهـــا العسكرية وفى التدريب على خطة هجومية وضعت بأعتراف من تناولوا حرب الايام الستة فى كتبهم قبل وقوع الحرب بأعوام .

واتخذ الاتحاد السوفيتى موقفا مؤيدا للجمهورية العربية المتحدة منذ بدء تطور الأزمة ورغم كل ما قيل عن موقف الاتحاد السوفيتى أثناء العمليات العسكرية من خذلانه للعرب وعدم وقوفه معهم موقفا مماثلا لموقف الولايات المتحدة من اسرائيل فانه لم يكن فى مقـــدوره أن يتصرف على نحـــو مغاير خاصة أن علاقته بالجمهورية العربية المتحدة هى **صداقة نضال** فى حين أن علاقة اسرائيل بالولايات المتحدة **خضوع وتبعية** وفارق ضخم بينهما بالاضافة الى وجود قصور فى جانب القيادة السياسية فى مصر فى تفهـــم الاوضـــاع والعقلية الاسرائيلية بجانب أن القيادات العسكرية كان تقديراتها على الرؤية الواضحة - متأثرة بأعتبارين .

١ — شعورها بأن الأمكانيات المصرية فى القوات المسلحة اكبر من أن نفكر اسرائيل فى تحديها .

٢ — احساسها بأن الأمكانيات الاسرائيلية اضعف مما هى عليه .

ثم تعرض لمواقف الدول العربية المختلفة وما بعد مؤتمر الخرطوم ليصل الى أن المواجهة العربية الاسرائيلية التى بدأت منذ ١٤ مايو ١٩٦٧ جاءت نتيجة متوقعة من قبل للتعارض بين استمرار المد التحررى فى المنطقـــة العربية ومحاولات النفوذ الأجنبى وكشف العدوان عن اســـتحالة التعايش العربى الاسرائيلى وتناقض المصير بين وجود كل منهمـــا واستمرار التحيز الأمريكى لاسرائيل .

وفى الباب الثانى الذى خصصه المؤلف عن تطـــور الحركة الصـــهيونية والقوى الاجتماعية فى اسرائيل يتكلم المؤلف عن تطور اليهودية والصهيونية خاصة وان تاريخ اليهودية ونشأة الصهيونية وتطورها وضح الاساليبالتى اتبعتها الحركة الصهيونية فى تحقيق اهدافها وهى الاســـاليب التى مازالت

تتبعها اسرائيل حتى اليوم فى مجال علاقاتها الدولية بعد ان تكيفهـا وفق الظروف الدولية المتطورة .

ثم يتعرض المؤلف للقوى الاجتماعية فى اسرائيل حيث توصل من خـلال دراسته لتوزيع الدخل ومرونة التحرك الاجتماعى الى ان المهـاجرين من الشرق الأوسط لا يرتقون الى مراكز الطبقة المتوسطة او العليا فى الدخـل ولكنهم يظلون فى مراكز الدخول المنخفضة فى حين يرتفع الدخل للمهاجرين الاوربيين بدرجة كبيرة وذلك فأن الاوربيين دون اليهود الشرقيين يتميزون بمرونة التحرك الاجتماعى وتظهر هذه الفوارق ايضا فى التعليم فالفارق كبير ومستمر بين المهاجرين ككل وبين المستوطنين القدامى الا ان الأنفصال البارز والخطير يقع بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين وذلك نتيجـة مرونة التحرك الاجتماعى بالنسبة للغربيين الذين يرتقون بسرعة الى أعلى مراكز الطبقة المتوسطة حيث يندمجون مع المستوطنين القدامى فى حين يكاد مهاجرو الشرق الأوسط الا يرتقون على الأطلاق .

وفى الباب الثالث يعرض المؤلف الاسس واصول السياسة الخـارجية الاسرائيلية من خلال عرض العوامل المؤثرة فى الاستراتيجية الاسرائيليـة والاهداف القومية والمبادىء التى تحكم السياسة الخارجية لاسرائيل فيتكلم المؤلف عن العوامل المتصلة بالجغرافية السياسية للدولة (الموقع — الموارد — القوة البشرية) والمشكلات الكبرى التى واجهها ونوعية الحكم القائم فيها والاهداف القومية والمبادىء التى تحكم السياسة الخارجية لاسرائيل وابرز الوسائل التى تلجأ اليها السياسة الخارجية الاسرائيلية فى تنفيذ اهدافهـا ومبادئها كالأهتمام بنوعية الدبلوماسية وتدعيم علاقات الأحزاب الاسرائيلية بنظائرها فى الخارج واستغلال اسرائيل لاجهزة الصهيونية العالمية فى خدمة سياستها الخارجية والدعاية العلمية والزيارات المتبادلة والمؤتمرات ومحاولة خلق ثقل ادبى وتاريخى للدولة .

وفى الباب الرابع الذى خصصه المؤلف عن تطور السياسة الخارجية الاسرائيلية يتناول السياسة الخارجية لاسرائيل من حيث مراحـل تطورها وتطور علاقاتها مع اهم الدول الكبرى ويقسم مراحل التطور فى السـياسة الخارجية الاسرائيلية الى اربعة مراحل .

١ — من قيام الدول حتى عام ١٩٥٢ وهى الفترة التى تبلورت فيها اسس علاقات اسرائيل مع الدول الغربية ومع الدول الكبرى بصفة عامة .

٢ — من ١٩٥٢ حتى ١٩٥٧ وتبدأ بقيام الثورة فى مصر واتخاذها لمواقف لا تتفق مع المخططات الغربية للدفاع عن الشرق الاوسط والتى تشهد تأثر موقف اسرائيل نتيجة احتدام الحرب الباردة بين المعسكرين والتى انعكست على المنطقة العربية وانتهت بلجوء اسرائيل الى العدوان كمحاولة لتغيير التوازن السياسى والعسكرى لصالحها .

٣ — من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٤ وهى الفترة التى رغم استمرار حدة الصراع الدولى وآثاره على اسرائيل شهدت تطورا كبيرا فى علاقاتاسرائيل مع دول

العالم الثالث وخاصة اثر فتح خليج العقبة وتزايد عدد الـدول المعترفة باسرائيل .

٤ ـ من ١٩٦٤ حتى الآن وهى الفترة التى تولى فيها ليفى أشكول خلفا لبن جوريون وبدأت حدة الصراع الدولى فى الهبوط وحاولت اسرائيل خلالها استغلال ذلك لصالحها وتنتهى بالظروف الحاليــة التى اعقبت عــدوان يونيو ١٩٦٧ .

ويخصص المؤلف الباب الاخير من الكتاب لمعــالجة التطــور الذرى فى اسرائيل ويرى أن اتخاذ اسرائيل قرار انتاج الاسلحة الذرية سوف يأتى من تلك اللحظة التى تشعر فيها بخطر جدى يتهدد أمنهــا القــومى وان كان امتلاك اسرائيل للســلاح الذرى لن ينهى مشكلة الأمن بالنسبة لهــا . فاسرائيل لو انتجت السلاح الذرى فانها سوف تمتلك ردعا هائلا ولكن لفترة لان الدول العربية ستسعى مهما كانت التضحياتللحصول على ســلاح مماثل .

ويختتم المؤلف كتابه بأن المطلوب من العرب فى مواجهتهم الكبيرة والشاملة مع الوجود الاسرائيلى هو أن يحقق « الكم » العــربى باســتمرار متزايد وبالاستفادة القصوى من قدراته القيمة « كيفا » عربيا قادرا على التصرف بحرية وفعالية .

ولابد من الاعتراف بجدية هذه المعالجة وعلميتها خاصة وان الدراسات العلمية التى تعرضت لهذا الموضوع حتى وقت صدور هذا المؤلف تعتبــر نادرة ، بالاضافة الى ذلك فان هذا الكتاب يكشف عن فهم الكاتب الواضح لكثير من التفاصيل الدقيقة لأبعاد النزاع العربى الاسرائيلى ووعيه خاصة بالأبعاد السياسية لهذا النزاع .

ورغم ان هذا المؤلف هو الكتاب الأول لمؤلفه الا انه يلفت النظر ببساطة أسلوبه وعلميته بحيث استطاع أن يعبر عن افكار معقدة بأسلوب ســهل يجمع بذلك بين موضوعية الباحث العلمى وبساطة الصحفى .

ولكن هذا لا ينفى ان لنا على الكتاب عدة ملاحظات نقدية يبرز فىمقدمتها أن الباحث لم يذكر المراجع التى اعتمد عليها فى بحثه .

وكذلك فان الباحث رغم تبنيه للمنهج التحليلى فى الدراسة الا انه اغفل الطرق المنهجية الحديثة فى التعرف على الظواهر والاتجاهات الســياسية ومناهج التطور السياسية والتى تتيح معرفة أكثر بالظاهرة محل الدراسة ففى معالجته للاتجاهات السياسية داخل اسرائيل اعتمد على الانطباعات العامة دون استخدام المقاييس المعروفة للاتجاهات السياسية .

وعرض الكاتب فى مؤلفه للقوى الاجتماعية داخل اسرائيل وللحــراك الاجتماعى ،الا أن تناولهللتكوين الطبقى للمجتمع ومدىالارتباط بينالقوى الاقتصادية المختلفة داخل المجتمع باتجاهاتها السياســية لم يكن على نفس الدرجة من العرض والاهتمام . ولكن هذه الملاحظات لا تنفى أهمية وجدية هذا المؤلف .

فى مواجهة اسرائيل

تأليف : د. اسماعيل صبرى عبد الله

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩

عرض وتحليل

عصام المليجى

ظهر هذا الكتاب بعد فترة من احداث يونيو سنة ١٩٦٧ ، وما صاحبها من ردود أفعـال تراوحت بين الدعوة للاستسلام للامبرياليـة الامريكية باعتبارها مصـدر الأمن الوحيـد فى عالمنا ، والتخلى عن أفـكار الوحدة والاشتراكية والحرية ، وبين الدعوة للمغامرة بأى شىء فلن تكون النتائج بأسوأ مما تحقق . وفى ظل هـذه النزعات حاول مؤلف الكتاب أن يتقدم بمجموعة من الأفكار الهادئة التى تبحث المشكلة وتحللها تحليلا علميا بقصد الوصول الى طريقة لمواجهة الظاهرة الاسرائيلية الامبريالية فى فلسطين والوطن العربى .

ففى تحليله للمخطط الصهيونى يشرح فكرة قيام اسرائيل على اساس الاستعمار الاستيطانى الأوربى . فحيث كان الاضطهاد الأوربى لليهود فى أوجه قبل الثورة الفرنسية هاجر هؤلاء منها ثم كانت الثورة البرجوازية التى نجحت فى ايقاف هذا الاضطهاد فى غرب أوربا ، بينما تأخر وصولها الى شرق أوربا حيث يتجمع اغلب اليهود ، فواصل هؤلاء الهجرة منهـا . وكانت الهجرة قبل قيام الحركة الصهيونية تتجه الى العـالم الجديد والى استراليا ونيوزيلندا . وعندما قامت هذه الحركة حاولت تغيير اتجاه هذه الهجرة ليكون لليهود دولة تقتطع من أراضى الامبراطورية العثمانية المنهارة لم يكن مكانها بالضرورة فلسطين . فقد حاول هرتزل اقامتها فى شبه جزيرة سيناء . المهم فى الأمر أن الحركة الصهيونية كانت تهدف الى اقامة دولة من اليهود الذين ينتمون بأفكارهم الى أوربا فلم يكن يهود الشرق موضع اهتمام هذه الحركة . وهم على كل حال لم يشرعوا فى الهجرة الى اسرائيل الا بعد اقامتها ونتيجة للسياسـات الخاطئة التى مارستها الحكومات العربية .

وليس بصحيح ما يدعيــه الصهيونيون من أن يهود أوربا كلهم من أصل عبرانى فقد اختلطت دماؤهم بدماء الشعوب التى عاشوا بينها . ودخل اليهودية كثير من الأوربيين فليس هناك عنصر بشرى نقى من كل اختلاط.

فاذا ما تتبعنا المخطط الصهيونى فى تطوره نجد أنه قد مارس التوسع فمنذ قيام الحركة الصهيونية واستقرارها على اختيار فلسطين لاقامة الدولة اليهودية سعت الى جذب يهود شرق أوربا وبالذات روسيا القيصرية للهجرة

اليها . وبدات الهجرة بالفعل دون سند شرعي في تملك الاراضي بها وانشأت الكيبوتزات . وبعدها نجحت في الحصول على وعد من انجلترا باقامة وطن قومي لليهود . ثم سعت الى طرد اهل فلسطين العرب منهـا أولا عن طريق الدعوة الى تقسيمها والحيلولة دون نجاح اى حل يقوم على تعايش العرب مع اليهود في دولة واحدة . وهو ما يفسر ترحيبها بقرار التقسيم الذى صدر عن الجمعية العامة للامم المتحدة سنة ١٩٤٧ والذى لم تحترم منه الا ما كان في صالحها بينما سارعت قوات الهاجاناه الى احتلال كثير من الاراضي المخصصة للعرب بموجب القرار . ثم هي تحافظ على جو التوتر بينها وبين الدول العربية المحيطة بها حتى تتاح لها فرصة العدوان من حين لآخر كسبا للمزيد من الأرض (اعلان ضم سـيناء سنة ١٩٥٦ ، وحرب يونيو سنة ١٩٦٧) .

ومنطق التوسع يتلاءم مع أهداف الحركة الصهيونية التى تسعى الى تجميع يهود العالم في دولة واحدة ويبدو هـذا مستحيلا اذا اقتصرت على حدود فلسطين فهى لا تكفى لاستيعاب ١٠ مليون يهودى تسعى ليكونوا تعداد دولتهم .

وكان لابـد للحركة الصـهيونية من ايديولوجية تساعدها على تحقيق اهدافها . وتجد الايديولوجية الصـهيونية دعامتها الأولى في العنصرية . فأفكار هرتزل تقوم على اعتبار اليهود عنصرا بشريا متميزا .

ومما ساعد في تدعيم العنصرية الصهيونية ظهـور النازية في بعض بلدان أوربا الغربية باتجاهاتها العنصرية المعادية للسامية ، وما قامت به من اضطهاد جسيم لليهود . كل هذا تم في أوربا . أما في البلدان العربية ، فلم تكن النظرة لليهودية باعتبارها قومية ، ولكن باعتبارها دينا سماويا . ومن ثم كانت النظرة الى اليهود نظرة تسامح .

وحين يحاول الصهيونيون المداراة على ثغراتهم العنصرية فانهم يتحدثون عن القومية اليهودية فيدعون أن اليهود يشكلون قوميـة متميزة . وهى الأخرى دعوى لا أساس لها .

وكما ان فكرة القومية اليهودية لا تستقيم فكذلك فكرة القومية الاسرائيلية فالصراع الحاد بين اليهود الشرقيين والغربيين بتفوقهم وتمثيلهم للحضارة الأوربية ، وتعدد اللغات التى يتحدث بها المهاجرون الى اسرائيل يحول دون قيام قومية اسرائيلية متميزة .

أما اسـتغلال الدين اليهودى فهـو يمثل الدعامة الثانية من دعامات الايديولوجية الصهيونية . أما ثالث الدعامات التى تستند اليها الصهيونية فهو التفوق الأوربى . فالصهيونة تقدم اسرائيل الى الغرب باعتبارها ممثلة الحضارة الأوربية في مواجهة العرب ، ولذا فهى تحظى بتأييد العنـاصر اليمينية بل وحتى العنـاصر التى لا توصف بالرجعية وانمـا ترسبت في أذهانها أفكار عن التفوق الأوربى .

واذا كان فهمنا للايديولوجية الصهيونية هو الخطوة الاولى فى سبيل رسم خطة لمقاومتها ، فان علينا ، وبنفس القدر من الاهتمام ، أن ندرك الارتباط العضوى القائم بين اسرائيل والاستعمار حتى تكتمل الصورة ويتضح السبيل .

تلك كانت الصورة التى رسمها الكاتب للفكر الصهيونى وأهدافه والمصالح المتبادلة بين الصهيونية والاستعمار العالمى ، صورة كان من الضرورى توضيحها توضيحا كافيا لينتقل بعدها الى وضع تصوره الخاص لاستراتيجية عربية للنضال . وقد وفق الكاتب تماما فى تقديمه للفكر الصهيونى ، فهو قد عالجه علاجا شاملا أحاط بكل أطراف الموضوع ، وأغفل النظريات الجزئية التى تصور الصهيونية من جانب واحد وتغفل باقى جوانب الموضوع ومن ثم فهى تصل فى حلولها المقترحة الى نتائج قاصرة لا تساعد على حسن مواجهة الخطر الصهيونى بما يربطه من روابط وثيقة مع الاستعمار ، وأن كان له ذاتيته الخاصة وأطماعه التوسعية .

وكنقطة بداية يؤكد الكاتب حتمية المواجهة بيننا وبين اسرائيل ، فلاسلام معها ولا تعايش ، وكيف يكون التعايش وقد اتضح لنا مما سبق كيف أنها كيان توسعى بطبعه . أن علينا أن نحدد هدفا لنضالنا ينبغى أن يكون **(تصفية وضع اسرائيل كقاعدة صهيونية استعمارية فى قلب الوطن العربى)** وهو ما يعنى انتفاء الرغبة فى ابادة يهود فلسطين ، بل كل ما يعنيه هو الا يكون وجود اليهود فيها فرصة للادعاء بوجود وطن بها لكل يهود العالم ، والايكون هذا الوجود تجسيدا لارتباط بالغرب الاستعمارى وأن يقبل هؤلاء التسليم بحقوق شعب فلسطين فى أرضه ووطنه واستقلاله .

فاذا ما حددنا هدفنا فان علينا أن نعلم أنه يتطلب عملا يضم عناصر كثيرة منها العمل العسكرى فى صورة المقاومة الشعبية وتقوية الجيوش النظامية العربية .

كما علينا أن ندخل فى حسابنا الصراع ضد الاستعمار العالمى وأن نتفهم حركة علاقات القوى الدولية وموقف الرأى العام العالمى . فى ظل كل ذلك علينا أن نحدد عناصر الاستراتيجية العربية . ويأتى فى مقدمة هذه العناصر دور الشعب الفلسطينى نفسه فهو صاحب الحق الأول .

وعلى الدول العربية أن تتمسك بعدم الاعتراف باسرائيل وعدم قبول التعامل معها ، فالاعتراف بها معناه انهاء القضيةالعربية برمتها ،أما التعامل فلن يكون الا على حساب حقوق العرب المسلوبة ، ولن يعنى هذا نهاية الصراع مع اسرائيل ، فهى توسعية بطبيعتها ولن تحترم — كما لم تحترم من قبل أى اتفاقية مع الدول العربية .

اذا كان هذا هو ما يجب أن يكون عليه موقفنا تجاه اسرائيل ، فان الهدف لن يتحقق ما لم تسع الى مقاومة الاستعمار عن طريق القضاء على المصالح الامبريالية ونفوذها فى الوطن العربى .

كل هذا لا يجب أن يلهينا عن أهمية التنمية الشاملة للوطن العربي اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا . فصراعنا مع اسرائيل صراع حضاري في أساسه ؛ ولن نتمكن من مواجهتها ولو عسكريا ما لم نحقق مستوى حضاريا متقدما . ثم علينا أن ندعم وحدتنا العربية ليس فقط عن طريق الاشكال الدستورية ، وانما عن طريق التكامل الاقتصادي وتوحيد برامج التعليم وشبكات المواصلات ومشروعات التنمية المشتركة وكل مايرسي دعائم واقعية للتوحيد ، ويرى الكاتب — بحق — أن الطريق الاشتراكي هو الطريق الوحيد لتنمية الوطن العربي . فلن يتاح لنا ما اتيح للدول الرأسمالية التي سبقت الى التنمية من نهب لثروات الشعوب وانهاك لقوى مواطنيها .

وبعد لقد كان هذا عرضا سريعا لأفكار المؤلف . ويهمنا هنا أن نذكر بأن هذا الكتاب قد صدر سنة ١٩٦٩ أى سابقا لأحداث أكتوبر سنة ١٩٧٣ بحوالى الأربع سنين ولعل مراجعة عامة لأحداث هذا الشهر تقدم لنا معيارا صادقا على مدى توفيق الكاتب في آرائه وأفكاره .

لقد عرض الكاتب وجهة نظره في أسلوب مقاومة اسرائيل ، ولعل كثيرا من أفكاره قد اثبتت نجاحها . فدخول الجيوش العربية النظامية الحرب اتاح لها تحريك القضية مرة اخرى على النطاق العالمي ، وأعاد الى الأذهان حقيقة وجود شعب فلسطيني تدعو الأفكار الآن الى أن يتجسد في كيان وأن تكون له حكومة موحدة تعبر عنه وتمثله في المحافل الدولية . وتوحيد جهود الدول العربية وموقفها تجاه تزويد دول العالم بالبترول حرك التناقضات بين المصالح الاسرائيلية والمصالح الأوربية الغربية بل والمصالح الأمريكية نفسها بل أن الحرب عرت المواقف الأمريكية تجاه القضية العربية حتى أمام أصدقائها التقليديين في العالم العربي .

واثمرت صلاتنا واعلامنا في دول العالم الثالث ، فتخلت كثير من دولها عن عدم اكتراثها بقضيتنا وسارعت الى نصرتنا ، ويكفي مثالا لهذا موقف دول أفريقيا من اسرائيل . وشككت الحرب في قدرة اسرائيل على حماية المصالح الاستعمارية في المنطقة وهو ما يمكن ايضا أن يكون له أثره في حركة الهجرة اليها . فقد انكشفت كثير من دعاوى اسرائيل التي تستند اليها لتبرير توسعها المستمر . وكان من الطبيعي أن يقف المعسكر الاشتراكي سندا لنا في نضالنا . يبقى علينا أن نستمر في توحيد جهودنا ، وأن نستثمر التناقض الذي ظهر بين المصالح الاستعمارية واسرائيل الى أقصى درجاته ؛ ثم علينا ، وقد اتضحت حقيقة دور اسرائيل في حماية المصالح الامبريالية أن نسعى الى تصفية هذه المصالح بالكامل . ثم أن مساندة الثورة الفلسطينية ورفع الوصاية عنها لترفع صوتها وتؤكد حقيقة وجود الشعب الفلسطيني الذي اهدر حقه في وطنه تمثل واحدة من أهم الانجازات التي يجب تحقيقها لنعيد وضع القضية في اطارها الصحيح بعيداً على التزييف الاسرائيلي للحقائق .

دولة اسرائيل ، خصائص التطور السياسى والاقتصادى
تأليف الكاتبة السوفيتية : جالينا نيكيتينا

القاهرة : دار الهلال ، ١٩٦٩

مقدمه بقلم أحمد بهاء الدين

عرض وتحليل

مصطفى كمال احمد

هذا الكتاب يحوى تحليلا وافيـــا للصراع العربى الاسرائيلى من وجهة نظر العقيدة الماركسيةالسوفيتية ، ويبرز دور الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، سـواء فى قرارات مؤتمراته ووثائقة النظرية وســـواء فى المواقف العملية لزعمائه . والكتاب فى تسعة أبواب عدا التقديم والخاتمة . يمهد فى باب أول بمعلومات أساسية عن انشاء دولة اسرائيل ، ثم يستغرق بحث تطورها السياسى ثلاثة أبواب ومثلها لتطورها الاقتصادى يفرد بينهما عن الهجرة بأعتبارها الهدف الاستراتيجى الاول الذى يدعم الكيان الصهيونى ، والباب الاخـــير يحال الايديولوجية الصـــهيونية ، ثـم ختـــام عـــن أحـداث حرب يونيو ١٩٦٧ .

(١) التمهيـــــد :

قبل بدء أبواب الكتاب نجد تمهيدين : أحدهما مقدمة بقلم الاستاذ أحمد بهاء الدين ينوه بأنه كتاب تحليلى نادر ثم يشير الى عاهات حتمية لازمت مولد اسرائيل فأنها قامت على العنصرية ـــ ولدت بقوة السلاح ـــ ثم هى محتاجة دائما الى الغذاء الخارجى لذا فقوى اسرائيل طبيعية بل مبعثها المنشطات أو يصل الى نتيجة بأنها غير قابلة للاستمرار وأن التحدى أمامنا أكبر من اسرائيل . منذ البدء أما التمهيد الثانى فهو تقديم المؤلفة نفسها ، تبدؤه بأن تســـم المؤلفات « البورجوازية » فى علمى التاريـــخ والاجتماع بعدم الموضوعية فى بحث موضـوع اسرائيل ما عدا القليل منها فقط . وهذه حقيقة مؤسفة لعبت فيها الصهيونية وأهواء السياسة والمواريث القومية الدور الاكبر . ثم تنتقل مؤلفة الكتاب لتفند النظريات القائلة بتعاقب التراث اليهودى فى أجيال الأمة اليهودية والتى يستخدمها حكام اسرائيل لتبرير دعاوى اغتصابهم لحقوق العرب ، فتقرر أنه لا أساس البتة لهذه النظريات كما أن جوهرها يتسم بطابع قومى متعصب ، فالأمة اليهودية فى اسرائيل تشكلت حديثا « ولا يمكن أن يدور الحديث الا عن التعاقب الدينى المحدد والتعاقب اللغوى الى حد ما » . ثم تقدم معلومات تاريخية موجزة عن

اليهود تنهيها باشارة الى فكر هرتزل من القومية الصهيونية المعاصرة كما نشير الى أن بــدء استيطان مجموعات من متعصبى « أنصار صهيون » لأجزاء من فلسطين بدأت منذ ثمانينات القرن التاسع عشر .

(ب) التطورات التى ادت الى اعلان قيام دولة اسرائيل :

يقدم البــاب الأول ببعض التفصيل معلومات انشــاء دولة اسرائيل ، والمسئولية فيها تقع على عاتق الاستعمار : فالاستعمار البريطانى فى غروبه يصدر وعد بلفور مكافأة لمساعدة الصهاينة له فى الحرب ، ويرثه الاستعمار الامريكى ـــ بعد فترة منافسة وتضارب بينهما ـــ فى الدور الخبيث متطلعا الى بترول الشرق الأوســط والمصالح الاستعمارية فيه فيدعم اسرائيل كقاعدة دائمة تحمى هذه المصالح . ومنذ قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين (نوفمبر ١٩٤٧) الى دولتين عربية ويهودية تلعب امريكا الدور البارز فى هذه المنطقة . والمعلومات التى يقدمها الكتاب عن انشاء اسرائيل ليس فيها جديد علينا نحن كعرب فقد حفرتها فى ذاكراتنا بأدق تفاصيلها مطارق المعاناة والالم .

(جـ) التطور السياسى لدولة اسرائيل :

تناول الكتاب بحث الجانب السياسى لاسرائيل فى ابواب ثلاثة : نظام الحكم وصول حزب الماباى الى الحكم ـــ السياسة الخارجية .

أولا ـــ نظام الحكم فى اسرائيل : أول معلومة تقدمها المؤلفة عنه هى أن اسرائيل دستوريا «جمهورية بورجوازية» وتقصد أنها تتبع نظام الديمقراطية الغربية . رئيس الجمهورية هو « قائد شكلى للدولة » ولا يوجد دستور مكتوب مثل التقاليــد البريطانية والنظام الســياسى الاسرائيلى يقوم على فصل السلطات : التشريع يقوم به « الكنيست » (البرلمان الاسرائيلى) يتكون من ١٢٠ عضو يصوتون طبقا للقوائم الحزبية وينتخبون كل ٤ سنوات ـــ والحكومة هى السلطة التنفيذية يشكلها زعيم حزب الأغلبية ومسئوليتها جماعية امام البرلمان ـــ أمام القضاء فينقسم الى دينى ومدنى وتنظر محكمة العدل العليا فى قضايا كبار موظفى الدولة . وتؤكد الكاتبة أن السلطة مركزة فى ممثلى البورجوازية الذين يشتغلون الكادحين ويمنعون اصدار دستور يضمن حقوقهم .

اما عن الطبقات فقادة اسرائيل ينادون بمجتمع العاملين المتجانس ، وترد المؤلفه من تقرير الحزب الشــيوعى الاسرائيلى يؤكد وجود الاستقطاب الاجتماعى ، دون أن تقدم تفصيلا رقميا حول هذه الحقيقة .

واحزاب اسرائيل اتساقا مع المنهج الماركسى « تعكس توزيع القوى الطبقية » . وبعد التأكيد على أن جميع الاحزاب الصهيونية متقاربة الاهداف ـــ باستثناء الحزب الشيوعى ـــ يقدم الكتاب نبذة عن كل حزب بالترتيب: الشيوعى ـــ المابام ـــ أحدوت ـــ الماباى راق ـــ الليبرالى ـــ التقدمى ـــ

المستقلون – (ليبرال – حيروت) – الأحزاب الدينية (ذات تأثير لايتناسب مع عددها) – الأحزاب العربية (طبعا بدون أى تأثير وتتحد مع الماباى) . ثم بعد الأحزاب تختم بسطور عن « الهستدروت » (اتحاد عمال اسرائيل) ذو الوظيفة النقابية وهو كمنظمة اجتماعية كبيرة لها تأثير ضخم فى الحياة السياسية الاسرائيلية .

وهذا الجزء يقدم ملامح الحكم فى عناصره المعروفه ، ولكن عرض الأحزاب يؤخذ عليه عدم ادماجها فى عدد محدود من الاتجاهات يتم فى اطارها تقديم المعلومات الأساسية عنها فبهذا يسهل فهم التطورات السياسية فى اسرائيل .

ثانيا : وصول حزب الماباى الى الحكم :

تولى سلطات الحكومة فى اسرائيل « مجلس الدولة المؤقت » الذى أعلن بموافقة واشنطن قبل اعلان الدولة نفسها بشهر . وانتخب أول كنيست اسرائيلى فى فبراير ١٩٤٩ وحتى سنة ١٩٦٦ كان الموجود هو الكنيست السادس . وظل الماباى هو أقوى أحزاب اسرائيل منذ انشائها حتى الآن فتولى زعمائه تشكيل الحكومات الائتلافية المتوالية .

وتصل الدراسة الى أن حصيلة حكم الماباى هو « تحالف رجعى ضد مصالح الجماهير » . وسياسة الماباى المتطرفة تتجانس تماما مع الطبيعة العدوانية للكيان الصهيونى المصطنع تجانسا يخلط بين كليهما كسبب ونتيجة . ونظام اسرائيل نظريا ودستوريا هو تعدد الأحزاب ولكنه يظهر فى التطبيق نظام حزب واحد ، وهذه هى الحالة الشائعة فى تلك الأمم التى تدين الدولة بتأسيسها أو استقلالها لزعماء أحد الأحزاب فيها .

ثالثا : السياسة الخارجية :

تفاصيل السياسة الخارجية الاسرائيلية تدور حول محور هو أنها جزء من النظام الاستعمارى الغربى ، وهى قاعدة دائمة له ضد التحرر العربى ولضمان المصالح الغربية ، وهى كذلك ضد ما يسمونه «بالخطر الشيوعى» على البلاد العربية ومن هنا تنهال على اسرائيل مساعدات غربية غير محددة ، بدأتها بريطانيا وفرنسا وتوجتاها باشتراكهما مع اسرائيل فى العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، ثم بدأ دور ألمانيا باتفاقية التعويضات ثم العلاقات الدبلوماسية معها بضغط من أمريكا . وطوال هذه الفترة أمريكا تنافق بمحاولة أرضاء الطرفين ودورها فى مساندة اسرائيل ينكشف تدريجيا حتى يفتضح تماما مع عدوان سنة ١٩٦٧ أما الاتحاد السوفيتى فيقف على النقيض مساندا للحق العربى ويتزايد تضامنه مع العرب منذ منتصف الخمسينات .

(د) التطور الاقتصادى لدولة اسرائيل :

الأبواب الثلاثة التى تعرض لتحليل اقتصاد اسرائيل تتناول بالترتيب : مراحل تطوره — السمات العامة للاقتصاد الاسرائيلى — التمويل الأجنبى .

وقد قدم الكتاب دراســـة تحليلية وافية للاقتصـــاد الاسرائيلى حافلة بالبيانات والأرقام ، ولكن يعترى طريقه العرض عيب هام يقلل من الافادة الموضوعية للنتائج والحقائق التى يثبتها وهو توحيد فترات المقارنة من حيث الظروف أو عدد السنوات واستخدام عدد كبير من السنوات كسنوات أساس ثم الخلط فى بعض المواضع بين النسب المئوية والأرقام الحقيقة عند التعبير عن حقيقة واحدة وهذا يقلل من فاعلية ووضوح الحقائق التى تعبر عنها الاحصاءات ويعرضها للنقد والتشكيك . وهناك حقيقتان تحكمان الاقتصاد الاسرائيلى :

١ — انه اقتصاد يقوم أساسا على التمويل الأجنبى وينهار تماما بدونه .

٢ — انه لا فاصل بين الدفاع والاقتصاد ، فالتطور الاقتصادى يحدد تبعا لأهداف دعم القوة العسكرية الاسرائيلية .

(هـ)هجرة اليهود الى اسرائيل :

يمكن تركيز الخطوط العريضة لهذا الموضوع فى :

١ — هدف هجرة يهود العالم الى دولة اسرائيل هو استراتيجية قومية للدولة يمثل لها مشكلة سياسية حادة ، وجوهر سياستها فيها أن الهجرة الجماعية الكبيرة أهم دعائم الأمن للدولة الصهيونية .

٢ — تاريخ هجرة اليهود الى فلسطين بدأ سنة ١٨٨٢ ومع ثلاثينات القرن الحالى كان قد وصل الى فلسطين خمسة أنواع كبيرة (مجموعها ١٢٠ الف شخص حتى ســـنة ١٩٣٠) الدافع لهجرتهـــا هو الهرب من الاضطهاد وليس استجابة للفكرة الصهيونية ويؤكد ذلك أن اليهود المهاجرين الى امريكا فى نفس الفترة ٢٧ ضعف من لمن هاجروا الى فلسطين .

٣ — بدأت اسرائيل سنة ١٩٥٢ سياسة اختيار المهاجرين فركزت على الشباب وعناصر قوى الانتاج ورأس المال .

٤ — يوجد برنامج اسرائيلى ذو مراحل لاستيعاب المهاجرين فور وصولهم باشراكهم الفعلى فى حياة البلاد بعد اعداد عقائدى وعسكرى . والواقع أن المهاجرين يصدمون بواقع يختلف عن تصورهم ويواجهون الوانا عديدة من التفرقة ، لذا وجدت هجرة عكسية (نزوح من اسرائيل) ذات معدل ثابت تضاعف فى بعض السنوات .

٥ — تمويل الهجرة يتم بطريقتين : الضرائب الداخلية ، ثم التبرعات الخارجية وهى طبعا من أمريكا التى استخدموها أيضا له آثاره ما سموه بالمسألة اليهودية فى « الاتحاد السوفيتى » ونجح الضغط فى اجتذاب أفواج من يهود روسيا الى اسرائيل .

(و) الصهيونية أيديولوجية قومية « بورجوازية » :

يتناول هذا الباب بحث العقيدة الصهيونية : نظريا ، تنظيميا .

١ — الأسس النظرية للصهيونية الحديثة (بعد قيام اسرائيل) تقوم على نفس مبادىء الصهيونية القديمة :

حقيقة معاداة السامية فى كل البلاد وكل العصور — وجود أمة يهودية « عالمية » واحدة تعانى منذ الأزل من الطرد والتشرد — الحل الصهيونى « للمشكلة اليهودية » هو الحصول على الأرض .

ويحدد الكتاب الوجــه الخطير « والرجعى » للنظرية الصهيونية هو « الأمة اليهودية الموحدة » كما يؤكد أنه لا أســاس لنظرية شعب الله المختار . ورغم الارتباط الوثيق فى العصر الحديث بين الصهيونية واليهودية الا أن الصهيونية لا يعنى أبدا معاداة السامية .

٢ — الشكل التنظيمى للعقيدة الصــهيونية هو « المنظمة الصهيونية العالميــة » وهى ذات نوعين فى نيويورك وتل أبيب وهى فى وضـــع الأمر بالنسبة لحكومة اسرائيل حيث وقعت بينهما اتفاقية سنة ١٩٥٤ . وأهمية هذه المنظمة أنها قناة تدفق الأموال على اسرائيل والجهاز الذى يخطط وينفذ الهجوم الأيديولوجى على يهــود العالم لحملهم الى الهجرة الى اسرائيل وخاصة الشباب منهم .

(ز)خاتمة الكتاب : تطورات عدوان يونيو ١٩٦٧ :

وهى تلك الأحداث التى عشناها يوما بيوم ولا يقدم الكتاب جديدا فيها والأفكار التى يبرزها فى عرضه .

١ — العدوان مبيت ويشـــهد بذلك التمهيد لـــه بالاعتداء على الحدود العربية وتصريحات زعماء اسرائيل أنفسهم .

٢ — أمريكا : متواطئة مع اسرائيل فى العدوان وأمدتها بكل الأسلحة والأموال اللازمة له .

٣ — روسيا : كررت تحذيراتها لاسرائيل وكان موقفها واضحا فى مساندة العرب وقطعت علاقاتها مع اسرائيل بعد العدوان .

٤ — تحدي اسرائيل السافر للمجتمع الدولي بخرقها جميع قرارات الأمم المتحدة ، وذلك بعملها على ضم الأراضي العربية التي احتلتها ، واجراءاتها غير الشرعية لضم مدينة القدس .

ملاحظات ختامية عن الكتاب :

الكتاب فيه مجهود علمي ضخم ويغطي موضوعه بشمول وتمكن ، وفيه كذلك توازن دقيق بين اجزائه ، الا أنه قد شابه بعض التكرار والحشو .
ولا يمكن انهاء عرض مرجع « سوفيتي » عن دولة اسرائيل وهي التحدي المصيري الذي يواجهنا نحن العــرب الا باثبات ملاحظة هامة مبناها **أن هناك فرقا بين الموقف السوفيتي والموقف العربي** ذلك ان منطلق السوفيت هو العقيدة الماركسية لذا فكل نقدهم للصهيونية ينحصر في انها «ايديولوجية قومية » وانها « تيار بورجوازي يرفض حل المشكلة اليهودية في اطار النضال الطبقي للبروليناريا » . وعن الصهيونية « هم في حقيقة الأمر قوميون ورجعيون » وزعمائهم « اصلاحيون » ثم يركز الموقف الماركسي السوفيتي جدا على ان « الصهيونية ارتباطها وثيق بالامبريالية الأمريكية » . ولايتجاوز هذا الموقف الى رفض وجود دولةاسرائيل من اساسه وهو الموقف العربي .
لقد أقترب « أرنولدتوينبي » حتى تطابق رأيه مع موقفنا عندما حكم على دولة اسرائيل بأنها « خطأ تاريخي » وانها « وضع باطل محكوم عليه بالاندثار » .

نمو الاقتصاد الاسرائيلي

دراسات فى تطور الدخل القومى ومكوناته

تأليف عثمان محمد عثمان

القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧٢

عرض وتحليل

عمر سيد الأهل

تضم الدراســـة خمسة فصـــول وكما يقول الكاتب فى المقدمة « فانها دراسة ذات طابع وصـــفى تحليلى ينصب اساســا على تطور الاقتصاد الاسرائيلى فى الســـنوات العشرين الماضـــية وليس على توقع حركته فى المستقبل » . « فذلك يحتاج بالضرورة الى ادوات تحليل مختلفة ، واكثر تعقيدا ، وهى ليست محل اهتمامنا فى هذه الدراســة » ولعلنا من البداية نلاحظ أن موضوع الفصل الخامس وهو « الاقتصاد الاسرائيلى : الأهداف المتعارضة وتوقعات المستقبل » يتعارض مع تحفظ كاتبنا فى المقدمة من عدم تعرضه لتوقع حركة الاقتصاد الاسرائيلى فى المستقبل . وربما كان من الافضل لو جاء عنوان الفصل الخامس معبرا عن توضيح محتوى هذا الفصل وهو ما سيأتى حين الكلام عنه .

يبدأ الفصل الأول ــ وهو تمهيدى ــ للتعريف بأهم المتغيرات التى تظهر فى الحسابات القومية فى اسرائيل ، وطرق تقدير بعض الكميات الاجمالية ومصادرها والاختلافات بينها والمشاكل الهامة التى تظهر عنـــد استخدام بيانات الحســـابات القوميـــة كمؤشرات للنمـــو الاقتصــــادى وتطور الدخل القومى .

والفصل الثانى بعنوان « موارد الاقتصاد الاسرائيلى : الناتج القومى من فائض الاستيراد » يتناول تطور الاقتصاد الاسرائيلى من زاوية معدل النمو السنوى من الناتج القومى ، وفى هـــذا الفصل يوضح لنا الكاتب ما يعتبره الاقتصاديون من أبرز سمات الاقتصاد الاسرائيلى ، وهو تضاعف الناتج القومى بالأسعار الثابتة ــ حوال ٥ مرات ــ ما بين سنة ١٩٥٠ ، ١٩٦٩ ، وأيضا تضاعف نصيب الفرد من الناتج حوالى ٣ مرات فى هذه الفترة . وفى هذا الفصل يوضح الكاتب أهمية « فائض الاستيراد » بالنسبة لنمو الاقتصـــاد الاسرائيلى حيث انه يمثـــل مواردا اضافية الى اجمالى الموارد المتاحة للاستخدام فى الاقتصاد الاسرائيلى اذ زادت الموارد المتاحة فى الاقتصاد الاسرائيلى بحوالى ٣٧٠٪ من سنة ١٩٥٠ بالأسعار الثابتة (بمعدل سنوى ٨٪ فى المتوسط) وقد تمكن الاقتصاد الاسرائيلى عن طريق

هذه الزيادة أن يحقق جهدا استثماريا كثيفا يعتبر العامل الرئيسى وراء النمو الاقتصادى السريع وذلك دون أن يضغط على مستويات الاستهلاك الخاص والحكومى . على أننا كنا نود لو أن الكاتب بين لنا العوامل والأسباب التى أدت الى هذا النمو الممتاز فى الناتج ، وهو أمر لا أعتقد أنه يخــرج عن نطاق دراسته حيث أنه فى موضع آخر من الدراسة ، وفى نفس الفصل (ص ٥٦ ، ٥٧) حين تعرض لهبوط النشاط الاقتصادى وتوقف النمو السريع منذ النصف الثانى لعام ١٩٦٥ أوضح أسباب ذلك بأنه كان بعد مرحلة من التوسع الاقتصادى والنمو السريع فى النــاتج القومى ، وأنها بدأت مع انخفاض الهجرة الى اسرائيل وانخفاض الطلب الفعلى وبالتالى انخفاض النشاط الاقتصادى وانتشار البطالة . ثم مع بداية النصف الثانى من سنة ١٩٦٧ أدت الحرب وزيادة الانفاق الى تحريك عملية النشاط الاقتصادى وبالتالى الخروج من حالة الركود الاقتصادى .

وفى الفصل الثالث وهو بعنوان «استخدامات الموارد : الانفاق القومى» يعرض الكاتب لزيادة أوجه الانفاق المختلفة نتيجــة زيادة الموارد المتاحة للاقتصاد الاسرائيلى ويقسم الكاتب أوجه الانفاق القومى الى :

١ ــ الاستهلاك الخاص .

٢ ــ الانفاق الحكومى .

٣ ــ الانفاق على التكوين الرأسمالى .

وبالنسبة للاستهلاك الخاص فقد زاد بمعدل مرتفع نتيجة زيادة الدخول الفردية ، كما زاد فى نفس الوقت ايضا هذا القطاع اذ أصبح الميل الحدى للادخار أكبر من الميل المتوسط فى الستينات . وتشير هذه الظاهرة الى زيادة مستوى الدخل الفردى من ناحية واعادة توزيع الدخل لصالح الدخول غير الأجرية .

كذلك زاد الانفاق الحكومى حيث بلغت نسبته الى الموارد من ٢٠ ــ ٢٥٪ منذ حرب يونيو ١٩٦٧ . وثمة عاملان يفسران ارتفاع نسبة الانفاق الحكومى هما ارتفاع نصيب الخدمات الحكومية فى الناتج والعمالة وارتفاع النفقات الحربية حيث بلغت الأخيرة فى النصف الأول من الستينات حوالى ٣٠٪ من اجمالى النفقات الحكومية وبالاضافة الى كثير من النفقات على بعض الأنشطة التى يقوم بها الجيش مثل الانشطة التعليمية والانفاق على تطوير بعض الصناعات التى تخدم الأغراض الحربية ، والتى لو أضيفت الى النفقات الحربية لارتفعت نسبة الانفاق الحربى الى اجمالى النفقات الحكومية عما هى عليه كثيرا .

أما الانفاق على التكوين الرأسمالى « الاستثمارات » فانه يعتبر العنصر الأهم فى عملية النمو الاقتصادى وقد وضعت السياسة الاقتصادية نصب عينيها تحقيق برنامج استثمارى عال واتخذت من الأدوات والوســائل ما يساعد على ذلك . ومرة أخرى تظهر احدى الخصائص الهامة فى الاقتصاد

الاسرائيلى ، وهى ارتفاع الاهمية النسبية للتراكم الراسمالى ، اذ يبلغ اجمالى الاستثمارات المنفذة سنويا حوالى ٢٧ — ٣٠٪ من اجمالى الناتج القومى فى المتوسط . وهذه النسبة تضع اسرائيل فى مقدمة الدول جميعا من حيث كثافة الاستثمارات .

واذا اخذنا النتائج السـالفة الذكر وهى ارتفاع الاستهلاك الحكومى والخاص وارتفاع الادخار وارتفاع الجهد الاستثمارى لابد أن نتساءل عن كيفية تمويل هذه الاستثمارات خصوصا أن الادخار لا يغطى الفجوة بين الاستهلاك والاستثمار .. وهنا يظهر لنا — مرة أخرى — أهمية فائض الاستيراد ، حيث انه كان مصدرا اساسيا لتمويل عملية التراكم الرأسمالى بالاضافة الى أنه مول جانبا من الاستهلاك . فاذا كان « فائض الاستيراد » من الكبر بحيث أمكن للاقتصـاد الاسرائيلى تمويل الاستثمار وجانب من الاستهلاك ، فان الارتباط بين هذا الفائض ، وبين المستوى الضخم من الاستثمار ومن ثم المعـدل العالى للنمو الاقتصـادى يلح فى أن نطرح عدة تساؤلات :

١ — ما هى احتمالات تدفق هذا الحجم من الموارد الاضافية فى المستقبل؟ وما هى تأثيرات انقطاعه أو النقص فيه على نمو الاقتصاد الاسرائيلى ؟

٢ — ما هو العبء الذى يرتبه اعتماد الاقتصاد الاسرائيلى على فائض الاستيراد ؟

٣ — ما هى تأثيرات العجز المستمر فى ميزان المدفوعات الاسرائيلى طوال السنوات العشرين الماضية على حركة هذا الاقتصاد وبصفة خاصة على تخصيص الموارد ومستوى الأسعار ؟

كل هذه موضوعات تحتاج الى مناقشات ودراسات مستفيضة يشترك فيها متخصصون آخرون مع رجال الاقتصاد .

ويتعرض الكتاب فى الفصـل الرابع وهو بعنوان « بنيان الاقتصـاد الاسرائيلى : تولد الدخل القومى » لبحث آثار النمو الاقتصادى المرتفع على بنيان الاقتصاد الاسرائيلى . فبين أن عملية النمو السريع والمرتفع لم تتضمن تغيرا حقيقيا فى البنيانالاقتصادىوذلك بالنسبة للقطاعاتالاجمالية (القطاعات السلعية ، قطاعات الخدمات) فقد تزايدت بدرجة طفيفة أهمية قطاع الصناعة بينما انخفضت اهمية قطاع الزراعة فى توليد الدخل كما تزايدت اهمية قطاع الحكومة ضمن قطاعات الخدمات .

وتعتبر مشكلة زيادة الطلب المحلى ونقص المياه من اهم المشكلات التى تقابل الزراعة الاسرائيلية ، ولقد كان من المهم أن يوضح الكتاب الانفاق على توفير المياه ونسبته الى اجمالى الانفاق على قطاع الزراعة حتى يمكن تحديد حجم هذه المشكلة ، خصوصا لارتباطها بقضايا سياسية هامة .

اما بالنسبة للصناعة فان هناك حقيقة هامة ادت الى تطور النشاط

الصناعى وهى الهجرة الى اسرائيل ، فقــد ساعدت الهجرة على توفير عنصرى الانتاج ، والعمل الماهر ، ورأس المال الذى جلبه المهاجرون أنفسهم. أو الذى شجعت خبرتهم على توفيره من خلال ميزانية التنمية . ولايستطيع احد أن يشكك فى صحة النتيجة السابقة ، غير أن لنا تحفظا بشأن رأس المال الذى يجلبه المهاجرون معهم وقيمته فى تحقيق معدلات عالية للنمو فى اسرائيل . فمن المعروف أن المهاجرين الجدد القادمين لاسرائيل عقب حرب ١٩٦٧ من بلدان اشتراكية(١) بولندا تشيكوسلوفاكيا ، الاتحاد السوفيتى . وهى بلدان لا تسمح بنمو رأس المال الخاص ، ومن باب أولى فهى لاتسمح بتحويل رأس المال خارج حدودها مع هؤلاء المهاجرين ، ومن ثم يتضاءل أهمية هذا العامل ويبقى احتمال توفر عنصر العمل الماهر وهو مايستلزم دراسة حجم وتركيب هذه الهجرات فى الفترة موضع الدراسة .

كذلك الحال بالنسبة لقطاع التشييد الذى يمثل حوالى ٨٪ من اجمالى الناتج ، اذ يرتبط هذا القطاع ــ وبصفة خاصة ــ المبانى السكنية بحجم الهجرة واتجاهاتها ، كما أنه يلعب دورا رئيسيا فى تحريك النشاط الاقتصادى فى اسرائيل .

وبالنسبة لقطاع الخدمات يبلغ اجمالى الدخل المتولد من الخدمات أكثر من ٥٠٪ من صافى الناتج . ويعتبر التركيز على الخدمات فى اسرائيل وبصفة خاصة الخدمات الحكومية أعلى من أى دولة أخرى أيا كان مستوى نصيب الفرد من الدخل فى هذه الدول .

فاذا انتقلنا الى الانتاجية مقاسة بالزيادة فى الناتج التى ترد الى تنظيم العملية الانتاجية والكفاءة فى استخدام عناصر الانتاج (العمل ورأس المال) فيرى باتنكين أنه خلال العقد الأول من قيام اسرائيل يمكن تفسير أكثر من ٣٠٪ من الزيادة فى الناتج بالكفاءة فى استخدام عوامل الانتاج . ولعل ذلك يعود ــ الى حد كبير ــ الى زيادة رأس المال لكل مشتغل اذ بلغت ٧ر٦٪ سنويا مقارنة بنسبة قدرها ١ر٥٪ فى المانيا الغربية ٢ر٦٪ فى كندا واقل من ٥ر٪ فى الولايات المتحدة . ولاشــك أن ذلك يعكس زيــادة الجهد الاستثمارى فى اسرائيل بسبب تدفق رؤوس الأموال من الخارج .

وفى الفصل الخامس ــ والأخير ــ وهو بعنوان « الاقتصاد الاسرائيلى : الأهداف المتعارضة وتوقعات المستقبل » ركز الكتاب على التناقض القائم بين سعى اسرائيل الى المحافظة على انجاز نمو مستمر وعال ، وتقليــل اعتمادها على رؤوس الأموال الأجنبية . ويبرز هــذا التناقض صريحا ، بمقارنة ما استهدفته خطة اللجنة الوزارية فى اسرائيل للفترة ٦٨ ــ ٧١ وما تحقق بالفعل فى هــذه الفترة اذ أشارت الخطــة صراحة الى ضرورة عدم الاعتماد المستمر والمتزايد على فائض الاستيراد واتخاذ السياسات اللازمة لتخفيض تدفق رؤوس الأموال من خلال عجز ميزان المدفوعات .

---

(١) الهجرة اليهودية ، والياس سعد ، ص ٩٢ ــ أنظر ايضا جريدة الاهرام ٢ مارس ١٩٦٦ .

فقد زاد الاستثمار بنسبة ٤٤٪ سـنة ١٩٦٨ ، ٢٥٪ سنة ١٩٦٩ وهى معدلات تفوق بكثير النسبة التى توقعتها الخطة ، كذلك فان عجز ميزان المدفوعات تزايد بحدة وبلغ سـنة ١٩٦٩ حـوالى ٩٠٠ مليون دولار أى ضعف ما كان عليه سنة ١٩٦٦ واستمر فى التزايد سنة ١٩٧٠ ليصل الى ١٣٠٠ مليون دولار ، وبالنسبة للتجارة الخارجية فقد زادت الصادرات سنة ١٩٦٨ بنسبة ٢٠٪ وبنسبة ١٠٪ سنة ١٩٦٩ وهى نسب أعلى من المستهدفة فى الخطة . كما زادت الواردات السلعية بنسبة ٤٢٪ سنة ١٩٦٨ وزادت واردات الخدمات حوالى ١٠٪ وهى أعلى بكثير مما استهدفته الخطة (حوالى ٩٪) . وفيما يتعلق بالادخار المحلى فقد استهدفت خطة اللجنة الوزارية ان يبلغ الميل المتوسط للادخار حوالى ١٤٪ فى الفترة ٦٨ — ١٩٧١ ، وان يبلغ الميل الحدى للادخار حوالى ٢٤٪ فى نفس الفترة على ان الميل المتوسط لم يزد عن ٥٥٪ فى السنتين والميل الحدى حوالى ١٤٪ ويرجع ذلك الى تزايد الاستهلاك الخاص والحكومى بنسبة أعلى مما توقعته الخطة . ومن هذه الملاحظات والعلاقات بين مختلف الكميات الاقتصادية يصل الكاتب الى نتيجة وهى « أن الاقتصاد الاسرائيلى فى العشر سنوات القادمة لن يختلف فى حركته عن الفترة السابقة ، وسيظل فى نفس الوقت الذى يحقق فيه معدل نمو مرتفع نسبيا مضطرا الى الاعتماد على تدفق راس المال من الخارج » . ومع تسليمنا — بحذر — بالنتيجة التى توصل اليها الكاتب اعتمادا على بيانات السنوات العشرين الماضية ، الا أننا نود أن نؤكد على حقيقة هامة : فمع ان التنبؤ الاقتصادى يعتمد على استخدام النماذج الرياضية الاقتصـادية ، الا أنـه يصعب صياغة نموذج رياضى للاقتصاد الاسرائيلى لاعتماده فى كثير من حركته على متغيرات خارجة مثل حركة الهجـرة وتركيبها ومثل التحويلات الراسمالية الأجنبية . فالهجرة تخضع اولا وأخيرا لظروف ومتغيرات داخلية ودولية تلعب فيها السياسة دورا أكبر وأعظم بكثير مما يلعبه الاقتصاد . وينطبق نفس القول على التحويلات والمساعدات الأجنبية الممنوحة لاسرائيل اذ أن الاجابة على سؤال عن حجم ومدى استمرار هذا التدفق الرأسمالى لا يكون فى مقدور رجال الاقتصاد وكما يقول الكاتب « انما هى من اختصاصات غيرهم بالتأكيد وتخضع لاعتبارات لا يستطيع الاقتصاديون حسابها بينما هى صنعة غيرهم أيضـا » .

سياسة اسرائيل الخارجية فى افريقيا
تاليف : محمد على العوينى

القـــاهرة : ١٩٧٢

عـــرض وتحليــــل
نجوى الفـــوال

تزايدت الاهمية المعطاة للسياسية الخارجية فى عالمنا المعاصر ، نتيجة لاتساع نطاق التعامل والاتصال بين الدول ، واتساع مجالات العلاقات الدولية واعتماد هذه الدول فى بعض مواردها وفى امنها على هذه العلاقات .

والسياسية الخارجية هى التى تصنع وترسم هذه العلاقات فى اطار من المصلحة القومية لكل بلد وموازنتها بالمصالح القومية للدول الاخرى ، وهى بهذا التعريف اوسع مدلولا من الدبلوماسية التى تعـد فقط احـدى الادوات المستخدمة لتنفيذ هذه السياسة .

وفيما يتعلق باسرائيل فان السياسة الخارجية لها وزن وثقــل خاص ، حيث أن هذه الدولة قامت اساسا معتمدة على تأييد لدول العالم لها ، منذ أن كانت مجرد فكرة دعا اليها هرتزل فى المؤتمر الصهيونى فى « بال ســنة ١٨٩٧ » وحتى نال وايزمان وعدا بتنفيذها فى فلسطين من بلفور (١٩٦٧) ، وحتى قامت اسرائيل بتأييد من الدول الغربية بزعامة الولايات المتحدة فى مايو سنة ١٩٤٨ وما زالت السياسة الخارجية لاسرائيل تحتل مكانة خاصة لدى صانعى السياسة هناك حتى الآن ، وذلك لاعتمادها على الجاليات اليهودية المنتشرة فى جهات العالم ، ولاحاطة اى عمل عسكرى توسعى بغلاف يحميه من التأييد الدولى .

وقد ظهرت فىالفترة الاخيرة عدة دراسات تناولت الســياسة الخارجية لاسرائيل من عدة زوايا واحدث هذه الدراسات هى دراسة الاستاذ محمد على العوينى « سياسة اسرائيل الخارجية فى افريقيــا » وهى رســالة ماجستير فى العلوم السياسية تقدم بها فى عام ١٩٧١ ، ثم صدرت فى شكل كتاب عام ١٩٧٢ .. وعرضنا لهذه الدراسة سيكون من خلال الكتاب نظرا لان بعض اجزاء الرسالة مثل المواجهة العربية ، وبعض التحليلات الاكاديمية فضل الكاتب نشرها فى دراسة منفصلة .

والكتاب يتناول اساسا ثلاثة موضوعات رئيسية هى :

١ — مؤسسات السياسة الخارجية لاسرائيل ودورها فى افريقيا .
٢ — اهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية فى افريقيا .
٣ — وسائل السياسة الخارجية الاسرائيلية فى افريقيا .

ويشير الكاتب فى مقدمة الكتاب الى انه فضل استخدام المنهج التحليلى من بين عدة مناهج تستخدم فى دراسة السياسة الخارجية ، وان كانت هناك ملاحظة على استخدام الكاتب لهذا المنهج ، ففى بعض أجزاء الدراسة يغلب المنهج الوصفى على التحليل كما سنرى فى عرض الفصل الاول من الباب الثالث ، بالاضافة الى بعض عدم الترابط فى تحليل اجزاء أخرى ، سيرد ذكرها فى حينها .

ويسبق عرض الموضوعات الثلاثة الرئيسية السابق ذكرها مقدمة يتناول فيها الكاتب العوامل المؤثرة فى سياسة اسرائيل الخارجية ، وقد حددها فى أربعة هى : الوضع الجيوبوليتيكى ، المؤثرات الداخلية ، والمؤثرات الخارجية .. وهو بهذا يوضح الخلفين التى تحكم السياسة الخارجية الاسرائيلية بصفة عامة ، ثم فى أفريقيا بصفة خاصة ، الكاتب قد حدد أهمية هذه العوامل بالنسبة لافريقيا من حيث الدرجة ، فالوضع الجيوبوليتيكى يأتى فى المقدمة ، ثم العامل الاقتصادى ضمن المؤثرات الداخلية ، وبعد ذلك تأتى العوامل الأخرى وان كان هناك راى آخر يرى أن العامل الاقتصادى ظل مؤثرا على سياسة اسرائيل الخارجية مع أفريقيا وغالبا على العوامل السياسية ، خاصة فى الفترة التى خضعت فيها معظم دول القارة ، للاستعمار الأجنبى ، وحتى بعد الاستقلال بوقت طويل ، يمكن أن نعتبره ممتدا الى بداية السبعينات ، حيث بدأ نفوذ أفريقيا السياسى يتبلور فى صراع الشرق الأوسط ممثلا فى مشروع القرار الأفريقى الذى وافقت عليه الجمعية العامة فى ١٩٧١/١٢/١٤ ، وهنا بدأ التحول فى سياسة اسرائيل تجاه أفريقيا من استغلال النواحى الاقتصادية الى التعامل مع نظم اصبح لها ثقل سياسى .

ويتناول الكاتب فى الباب الاول موضوع مؤسسات السياسة الخارجية الاسرائيلية فيتناول فى ثلاثة فصول المؤسسات الثلاث الرئيسية وهى : مجلس الوزراء ، وزارة الخارجية ، والبرلمان .. ثم فى فصل رابع يتناول المؤسسات ذات التأثير الخفى وغير المباشر وهى : المؤسسة العسكرية ، الهستدروت ، ومؤسسات التعليم والتدريب .

ويتحدث عن دور وزارة الخارجية الاسرائيلية ، فهى تتولى تنفيذ الخطوط العامة التى يضعها مجلس الوزراء . وتمارس الدور فى أفريقيا عن طريق سبع ادارات ، منها ادارة متخصصة للعمل مع أفريقيا بصفة مباشرة وهى الادارة الافريقية ، ثم ادارات وظيفية تدخل أفريقيا ضمن اختصاصها العام مثل ادارة الاعلام والتعاون الدولى ، العلاقات الثقافية ، الزوار وغيرها ، وتقوم الوزارة بالاشراف على العلاقات الرسمية لاسرائيل مع الدول الافريقية ، كما تقوم بتوضيح سياسة اسرائيل امام الرأى العام الأفريقى ولدى الحكومات الأفريقية ، وتهتم أيضا بتوثيق التعاون معها فى كافة المجالات .

وأما عن البرلمان الاسرائيلى (الكنيست) فكما تسيطر الاحزاب على مجلس الوزراء تسيطر أيضا على الكنيست ، وغيرها من المؤسسات الأخرى فى اسرائيل .

وفيما يتعلق بالمؤسسات غير الرسمية والتى تعتبر بمثابة جماعات ضغط فان أخطرها هى المؤسسة العسكرية ، التى تمارس هذه المؤسسة دورها فى أفريقيا من خلال أجهزة متعددة .

وثانى المؤسسات غير الرسمية هو الهستدروث أو الاتحاد العام للعمال اليهود فى اسرائيل الذى نشأ فى فلسطين فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، ويحدد الكاتب دوره فى أفريقيا من خلال ادارة التعاون الدولى والعلاقات الدولية التابعة له . ويتلخص هذا الدور فى الاتصال بالنقابات العمالية الافريقية وارسال واستقبال الوفود العمالية من والى أفريقيا ، الاهتمام بالاتصال الشخصى مع زعماء الحركات العمالية الأفريقية والعمل على تشجيع هجرة اليهود من أفريقيا ، كذلك يمتد هذا الدور الى وجود مؤسسات يملكها الهستدروث وتشارك فى المقاولات الصناعية الاسرائيلية فى أفريقيا (شركة سوليل بونيه) ، كما انه يشارك فى ملكية بعض الشركات الأخرى مع الحكومة مثل شركة « زيم » للملاحة ، وشركة « العال » الجوية .

كما قام الهستدروت بانشاء المعهد الافرو آسيوى للدراسات العمالية والتعاون ووظيفته استقبال وتدريب الشباب الأفريقى .

وثالث هذه المؤسسات غير الرسمية هى معاهد التدريب والتعليم مثل « التخنيون » أو المعهد التكنولوجى فى حيفا ، ومعهد وايزمان للعلوم ، ومنظمة « الهداسا » وهى منظمة نسائية ، ومركز جبل الكرمل الدولى للتدريب والجامعة العبرية ، معهد الدراسات الأفريقية بحيفا .

أما الباب الثانى فيتناول أهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية فى أفريقيا . وأول هذه الأهداف كما جاءت فى الفصل الأول هو كسب الرأى العام الأفريقى . وثانى هذه الأهداف هو تدعيم النفوذ السياسى الاسرائيلى فى أفريقيا . ويوضح الكاتب أن هذا يتم على مستويين : — الأول هو الاتصال بالمؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية ، رسمية أو غير رسمية . والثانى هو تدعيم الصلة بالجالية اليهودية فى أفريقيا (تعدادها ٦٨٠ر٥٠١ شخص حتى عام ١٩٦٥) لخدمة قضايا الهجرة الى اسرائيل ، وجباية التبرعات ، والتوغل الاسرائيلى فى المؤسسات السياسية والاقتصادية للبلاد الافريقية .

والهدف الثالث من أهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية فى أفريقيا هو تدعيم مركز الاقتصاد الاسرائيلى .

ويحدد الكاتب فى الباب الثالث والأخير وسائل السياسة الخارجية الاسرائيلية التى تستخدمها فى تحقيق الأهداف السالفة الذكر فى أفريقيا ، وهى خمس وسائل : سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، عسكرية ، أعلامية ، ويسبق عرض هذه الوسائل عرضا للعوامل الافريقية التى مهدت لها من ميراث استعمارى وتخلف اقتصادى واجتماعى .

وفى الختام يعرض الكاتب لمدى فاعلية اسرائيل فى أفريقيا عنطريق عرض لقرارات المؤشرات الدولية الحكومية وغير الحكومية ومنظمة الوحدة الأفريقية ، الامم المتحدة . وهذا المقياس — قرارات المؤتمرات والمنظمات الدولية التى تشترك فيها الدول الأفريقية — ليس بدليل قاطع ولا كاف على تأييد أو عدم تأييد هذه الدول الفعلى لاسرائيل ، نظرا لان هذه القرارات قد تتخذ لمجاراة ظروف تحيط بها ، وتجبرها على اتخاذ خط معين قد يكون بعيدا عن الخط الفعلى الذى تتبناه الدولة ، ونستطيع ان نستثنى من هذا قرارات الأمم المتحدة — حيث أن لها بعض صفة الالزام ، ولهذا فان بعض الدول التى تتخذ قرارات تساند العرب فى المحافل الدولية ، تتخذ أحيانا مواقف معارضة لهم فى التصويت على قرارات الامم المتحدة .

وفى الفصل الثالث يحدد الكاتب الوسائل الاجتماعية والثقافية فيما يلى : الاتصال بالمؤسسات المختلفة ، الجاليات اليهودية ، الزيارات واستغلال الكوارث ، الاستفادة من وضع الجاليات العربية ، الاتفاقيات الثقافية والمنح الدراسية ، وفى النهاية يحدد الكاتب العوائق الاجتماعية التى تعترض هذه الوسائل مثل الشعور العنصرى لدى الاسرائيليين وكراهيتهم للزنوج ، ثم ميلهم الى الانعزالية داخل المجتمعات الأفريقية . وفى ختام الفصل يوضح الكاتب مدى مساهمة هذه الوسائل فى انجاح السياسة الاسرائيلية بهدفيها السياسى والاقتصادى .

والفصل الرابع يتناول الوسائل العسكرية وأولها التدريب العسكرى الذى يقدمه الخبراء الاسرائيليون للجيوش الأفريقية .

ويتحدث الكاتب فى الفصل الخامس عن الوسائل الاعلامية ، ويتناولها من جانبين : المنطق الدعائى الاسرائيلى فى أفريقيا . أما الجانب الثانى فهو وسائل الدعاية الاسرائيلية .

وفى ختام هذا الباب يتحدث الكاتب عن تحويل كل هذه الوسائل مجتمعة ، فيحدد مصادرها فيما يلى : المؤسسات الصهيونية الأمريكية ، تعويضات ألمانيا الغربية والتحويلات التى تقوم بها المؤسسات الصهيونية فى العالم ، القروض ، والاستثمارات الخاصة اليهودية فى الخارج ، ولهذا يحدد الكاتب هذه المصادر فى الولايات المتحدة وألمانيا الغربية والجاليات اليهودية .

وفى خاتمة الكتاب يتناول الكاتب مستقبل السياسة الخارجية الاسرائيلية فى أفريقيا على أساس مراعاة مدى كفاءة المؤسسات الاسرائيلية المعينة بأفريقيا ، وفاعلية الوسائل المتبعة لتحقيق الاهداف الموضوعية .

ثم يتناول الكاتب مدى فاعلية السياسة الخارجية الاسرائيلية فى أفريقيا ويرى أن هذه الفاعلية هو مدى نجاح اسرائيل فى تحقيق الأهداف التى رسمتها لنفسها ، وهو يرى أنها استطاعت تحقيق هذه الأهداف بل أن نجاحها وصل الى حد تأييد بعض الدول الأفريقية لحصولها على مكاسب اقليمية جديدة من الدول العربية كما حدث سنة ١٩٦٧ .

وأما عن مستقبل هذه السياسة فى أفريقيا فقد توقع الكاتب أن تجـد اسرائيل فى المستقبل استمرارا فى التأييد الأفريقى بوجودها وأمنها وخروجها من العزلة السياسية وتأييدها فى المجال الدولى ، حيث أن اسرائيل قـد بدأت فى وقت كان المجال مفتوحا أمامها دون اعتراض أو منافسة .

... وبعد .. فقد أثبتت الأيام خطأ النتيجة التى خرج بها الباحث من هذا البحث،فأن قطع كل الدول الافريقية — فيماعدا النظم العنصرية والمستعمرات لعلاقاتها مع اسرائيل قبل وبعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، هو دليل قاطع على أن هذه الدول لم تعد ترى فى اسرائيل نموذجا للدولة النامية بقـدر ما ترى فيها نموذجا للاستعمار الجديد ، وهذا يعنى أن اعتراض هذه الدول لم ينصب على الحصول على مكاسب من العدوان فقط وانما يتعدى ذلك الى حد التشكيك فى الوجود الاسرائيلى ذاته ومدى أحقيته .. وهذا يهدم أول الأهداف التى ذكرها هذا الكتاب والتى وضعتها اسرائيل أمـام عملهـا فى أفريقيا .

وأخيرا هناك ملاحظة على هذا الكتاب ، كما انها ملاحظة عامة عـلى الكتابات التى صدرت عن اسرائيل منذ نكسة ١٩٦٧ وهى .. أن الكاتب ذكر ايجابيات العمل الاسرائيلى فى أفريقيا ،ولم يشر الى سلبيات هذا العمل، التى تضافرت مع التحرك العربى الجاد فى كشف حقيقة هذه الدولة ، ويبدو أن اسرائيل كانت تقنعنا نحن بأنها الدولة النموذج .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذه الملاحظات ، فانه يجدر أن نسجل فى النهاية تقدير العمل الذى قام به الباحث وأن الكتاب يزخر بالمعلومات والحقـائق التى تشكل مسحا شاملا للسياسة الخارجية الاسرائيلية فى أفريقيا وهـو يشكل مرجعا رئيسيا لأى باحث فى مجال العلاقات الاسرائيلية الأفريقية .

العقل العربى(*)

تأليف : روفائيل بتاى

نيويورك : سنة ١٩٧٣

عـــرض وتحليـــل

الســـــيد يس

لعل هذا الكتاب الذى نعرض له ، يمثل اشمل دراسة فى الفكر الغربى عن ملامح ومكونات الشخصية القومية العربية . لقد سبق للغرب أن حرص حرصا شديدا على دراسة « الشرق » هذا العالم الغامض الزاخر بالرموز والأسرار ، وذلك فى فترة الغزو الاستعمارى ، حينما كان « العالم » يسبق « العلم » . ونعنى بذلك حين كانت رحلات المستكشفين والرحالة والعلماء الى البلاد المرشحة للاستعمار المنظم،وهى التمهيد الرئيسى للغزوالعسكرى، الذى كان ينزل على البلاد الآمنة كالصاعقة يدمر بناءها الاجتماعى التقليدى، ويمزق نسيج حضارتها القومية ، التى كانت فى كثير من الاحيان أكثر اصالة من حضارات الدول الغازية ذاتها ، كما يؤكد بيتر وورسلى فى كتابه «العالم الثالث »(١) . ولم يقنع الاستعمار الغربى بنهب الموارد الخصبة للبـــلاد المستعمرة ، ولكنه فى أحيان كثيرة عمد الى ما يطلق عليه « فرانز فانون »(٢) « **استعمار الشخصية** » . ونعنى بذلك تدمير الملامح الاصيلة للشـــخصية القومية وتشويهها ، واعادة صياغتها بما يتفق مع أهدافه واغراضه.ولعل المثل البارز على ذلك محاولات الاستعمار الفرنسى محو الشخصية العربية فى الجزائر ، والقضاء على اللغة العربية تماما ، وفرض اللغة الفرنســـية على المجتمع الجزائرى ، ادراكا منه بأن اللغة القومية عامل حيـــوى فى الاحساس بالهويه الوطنية ، وفى الترابط الاجتماعى والسياسى .

أن كتابنا الذى نعرض له ، يسير فى الواقع ـــ بالرغم من الذكاء الشديد للمؤلف وبراعته فى معالجة الموضوع ـــ فى ظل التقاليد الغربية المتعصبة التى تنظر نظرة استعلائية الى الشخصيات القومية فى البلاد النامية .

(*) **Raphael Patai, The Arab Mind, New York : Charles Sacribner's Sons, 1973, (376 pages).**

(١) انظر : وورسلى (بيتر) ، العالم الثالث ، ترجمة حسام الخطيب ، دمشـــق : منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومى ، ١٩٦٨ .

(٢) انظر : فانون (فرانز) ، سوسيولوجية ثورة ، ترجمة : ذوقان قرقوط ، بـــيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٠ .

ومؤلفه روفائيل باتاي فى موضع يسمح له تماما بمعالجة الموضوع هذه المعالجة البارعة القادرة على خداع القارىء العادى ، بفضل علامات الموضوعية الشكلية البارزة فى الكتاب . فهو مستشرق يهودى من أصل مجرى ، اتيح له أن يتتلمذ على يد المستشرق المجرى الشهير « جولد تسهير » فى بودابست حيث تعلم اللغات الشرقية وألم باللغة العربية ، ثم واصل دراسته فى جامعة برسلاو فى المانيا على المستشرق كارل برو كلمان. ثم هاجر عام ١٩٣٣ الى فلسطين ، حيث اكتشف انه — بالرغم من دراسته السابقة للعربية — لا يستطيع فهمها حين ينطقها اهلها ، ولا يستطيع الحديث بها . فالتحق بالجامعة العبرية بالقدس ، حيث عمق دراسته للغة العربية، بالاضافة الى تتلمذه على أستاذ فلسطينى من خريجى الأزهر ، ومن عائلات القدس المعروفة هو الشيخ احمد فخر الدين الكنانى الكاتب . وقام بتدريس اللغة العربية فى احدى المدارس بضواحى القدس ١٩٣٤ — ١٩٣٥ ، ثم حصل على درجة الدكتوراه الثانية فى الجامعة العبرية . وكانت أول دكتوراه تمنحها هذه الجامعة ، وتحول بعد ذلك للدراسات الانثروبولوجية ،وحصل على منحة من مؤسسة فورد عام ١٩٤٧ سافر بفضلها للولايات المتحدة الأمريكية وحاضر فى جامعات كولومبيا وبنسلفانيا عن « الشعوب والحضارة فى الشرق الاوسط » ثم شغل منصب الاستاذية فى الانثروبولوجيا فى عدد من الجامعات الأمريكية ، وجمع حصيلة بحوثه عن الشرق الأوسط فى كتاب صدر له عام ١٩٦٢ بعنوان : **« من النهر الذهبى الى الطريق الذهبى : المجتمع والحضارة والتغير فى الشرق الأوسط »**(١) .

المؤلف اذن ضليع فى اللغة العربية ، يظهر ذلك فى مراجعة العربيةالعديدة التى يستند اليها ، والتى تبرز فيها اسماء ابن خلدون والجبرتى ، بالاضافة الى العلماء الاجتماعيين العرب المحدثين كحامد عمار وأحمد أبو زيد . وهو بالاضافة الى ذلك متخصص تخصصادقيقا فى موضوعه ، وحتىفى أثناء أقامته فى الولايات المتحدة الامريكية كان يزور اسرائيل بانتظام ، يدرس ويراقب ويلاحظ .

ويظهر اتساع مجال بحثه وشموله فى الاستعراض السريع لموضوعات فصول الكتاب التى بلغت ستة عشر فصلا بالاضافة الى خاتمة وملاحق ثلاثة .

وقد انتهج المؤلف نهجا ذكيا ، فقد رسم خطته فى العرض على ضوء تعقب تطور العربى منذ الطفولة حتى يصل الى سن الشباب والرجولة ، مارا بذلك بعمليات التنشئة الاجتماعية الاساسية . ويبدأ بتحديد « وضع العرب فى العالم » . ثم يناقش الموضوعات الآتية بالترتيب : الجوانب الجمعية فى الشخصية ، الأساليب العربية فى تنشئة الأطفال ، تأثير اللغة العربية على الشخصية ، الاساس البدوى التحتى للشخصية العربية ، نسق القيم البدوى والمجتمع العربى المعاصر ، عالم الجنس ،

---

(١) اعتمدنا فى البيانات السابقة على المؤلف نفسه الذى صدر كتابه « بنبذة شخصية » عن تعليمه وخبراته ومؤلفاته (ص ١ — ٧ من الكتاب) .

المكونات الاسلامية للشخصية العربية ، أساليب التطرف والانفعالات ، والخيال والواقع ، الفن والموسيقى ، والآداب ، الازدواجية والهامشية والاتجاهات المتناقضة ، الوحدة والصراع ، حل الصراعات وداء «المؤتمرية» (عقد المؤتمرات لحل المشكلات) ، ومشكلة الجمود العربي ، واخيرا سيكولوجية التغريب (نسبة الى الغرب) . وبعد الخاتمة نجد ملاحق ثلاثة : الاول بعض البيانات الاحصائية عن المنطقة والسكان ، والثاني بعنوان : حكم المؤرخين : اشبنجلر وتوينبي ، حيث يورد بعض المقتطفات من كتاباتهما عن الشخصية العربية واخيرا : العالم العربي وأمريكا الاسبانية ، مقارنة .

ومن الطبيعي الا يتسع المجال امامنا للمناقشة التفصيلة للآراء المتعددة التي يسوقها المؤلف عن الشخصية العربية في هذا الكتاب المتعدد الجوانب، ولذلك نؤثر أن نناقش منهجه فذلك جدير بوضع الكتاب موضعه الصحيح في اطار المكتبة الغربية التي عنيت منذ زمن بدراسة العالم العربي وتحليله.

أن الكتاب — بحكم انه يعالج الشخصية العربية — يدخل في صميم مشكلة البحث في الشخصية القومية . ومن المعروف أن هذا المفهوم قد خضع لاجتهادات شتى من قبل العلماء الاجتماعيين ، حيث نجد مصطلحات متعددة تتصارع حول الانفراد بدراسة الظاهرة كل من زاويته . فهناك مصطلح **البناء الاساسي** الذي يرتبط اساسا بكاردنر ومصطلح « **الطابع الاجتماعي** » ، الذي يرتبط « باريك فروم » ، واخيرا مصطلح « **الشخصية المنوالية**» الذي تستخدمه جمهرة من الباحثين (1) .

والمؤلف على وعي تام بهذا التعدد ، وهو لذلك يعرض — في الفصل الثاني — لمحاولة كاردنر ، ولمفهوم الشخصية المنوالية . وهو ينحاز اخيرا لهذا المفهوم حين يعرف الشخصية القومية بأنها « **جماع الدوافع والسمات والمعتقدات التي تشترك فيها الاغلبية الساحقة لشعب له سمات قومية** ». غير أن محاولة المؤلف — بالرغم من فائدتها القصوى ، كمصدر ثمين جمع كل ما كتب عن الشخصية العربية ، وكمرجع يتضمن عددا من التحليلات التي تستحق التأمل — يعيبها ما يعيب كثير من دراسات الشخصية القومية ، وهو غياب اطار حضاري تتم المقارنة على أساسه .

ونعني بذلك النقد الصائب الذي سبق لعالم النفس الانجليزي المعروف « ايزنك » أن وجهه لدراسات الشخصية القومية ، حيث قرر أنه في غيبة مسوح حضارية مقارنة عن شعوب مختلفة ، يصبح الحديث عن الشخصية القومية لشعب ما لغوا .

ويبدو مصداق هذا النقد في حديث المؤلف عن تأثير اللغة العربية بسماتها المتميزة على سيكولوجية العرب . اذ يحاول المؤلف أن يوحي —

---

(1) راجع بصدد مفهوم الشخصية القومية ، نشأته ومصطلحاته المتعددة والانتقادات التي توجه له كتابنا : **الشخصية العربية : بين المفهوم الاسرائيلي والمفهوم العربي** ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الاهرام ، ١٩٧٤ ، الفصل الثاني .

كما فعل العلماء الاجتماعيون الاسرائيليون فى تفسيرهم للهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧ — أن للغة العربية تأثيراً سحرياً على العرب ، بحكم ميلهم للبلاغة والخطابة ، مما يجعلهم أسرى للانفعالات السياسية الحادة المنفية، وهذا يؤدى بهم الى ممارسة سلوك لا عقلانى فى علاقاتهم الدولية . وتتم هنا بطبيعة الحال اشارات ومقارنات صريحة أو خفية بحسب الاحوال بين « الانفعالية العربية » « والعقلانية » الاسرائيلية أو الغربية !

ولقد سبق لباحث أمريكى هو « بنيامين بيت هولاهمى » وهو بصدد حديثه عن مفهوم الشخصية القومية كما استخدم فى دراسة الصراع العربى الاسرائيلى أن تساءل : أليس من قبيل التحيز التركيز على دراسة لغة جانب واحد فى الصراع هو الجانب العربى ، ونسبة سمات محددة لها تربط بطريقة او بأخرى بتصاعد الصراع وحدته ، وتترك لغة الطرف الآخر الاسرائيلى وهى « العبرية » بدون أى دراسة (١) ؟

بعبارة أخرى من يدرينا أن اللغة العربية — فقط دون سائر اللغات — تنفرد بالسمات التى تنسب لها وهى : الغموض ، والتركيز المسرف على الدلالة النفسية للرموز اللغوية على حساب معانيها ، والتأكيد المسرف والمبالغة (٢) ؟ .

ولعل السؤال الاهم من ذلك : هل القضية الحاسمة هى اللغة العربية ام نوعية الجماعات السياسية والاجتماعية التى تستخدمها ؟ بعبارة أخرى ، هناك طرائق شتى فى استخدام اللغة العربية ، تتراوح بين أقصى الاساليب الانشائية العقيمة الخالية من أى مضمون حقيقى ، الى أقصى الدقة العلمية والقصد فى التعبير ؛ بما لا يفترق عن الاستخدامات الغربية للغة بأى حال من الاحوال . أن مثل هذه التعميمات الفضفاضة كثيرا ما تطالعنا بين تضاعيف الكتاب .

والحقيقة انه اذا كان هذا النقد الاساسى يمكن أن يضع حدودا للاحكام التى ساقها المؤلف ، نظرا لافتقارها الى اطار حضارى مقارن ، فلعل عدم تركيز المؤلف فى أغلب فصول الكتاب على البعد التاريخى الذى اثر تأثيرا حاسما على تشكيل الشخصية العربية تضعف كثيرا من احكامه . ذلك أن الدور الذى لعبه الاستعمار الغربى فى تعويق نضج الشخصية العربية ، بعد ما استيقظت من « بياتها الشتوى » الطويل فى عصور التخلف تحت آثار السيطرة العثمانية ، على وقع الصدام العاصف الذى تم بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر ، وظهور علامات التخلف واضحة بشمعة مقارنة بمؤشرات التقدم الاوربية . نقول بعد صحوة الشخصية العربية ، عهد الاستعمار

---

(١) انظر بهذا الصدد :

Beit-Hallahmi, Some psychological and cultural factors in the Arab-Israeli conflict, **Journal of Conflict Resolution**, v. XIV, No. 2, 268-280.

(٢) انظر بهذا الصدد :

Shouby, E., The influence of the Arabic language upon the psychology of the Arabs, **Middle East Journal**, 1951, (Summer), 284-302.

الغربى الى تعويق النمو الحضارى للعالم العربى ، وبذل جهودا مستميتة حتى لا يتحقق التكامل القومى فى المنطقة .

وحين حكمت عليه حركة التاريخ أن يقتلع من المنطقة لم يرض للشعوب العربية المناضلة أن تمارس حياتها فى سلام ، وأن تخوض معركة التنمية الشاملة كباقى الشعوب النامية ، ولكنه زرع كيانا استعماريا دخيـلا فى المنطقة هو « دولة اسرائيل » ، التى مارست ــ بصورة أكثر ضراوة وعنفا ــ الدور الاستعمارى الغربى فى المنطقة . وهل هناك من شك فى أن وجود اسرائيل قد عوق المسيرة الحضارية العربية عشرات السنين ؟ وبالرغم من ذلك كله ، فقراءة هذا الكتاب قراءة نقدية من شأنها أن تزيد من استبصار القارىء العربى بحدود التصور الغربى ــ الاسرائيلى للشخصية العربية ، وقد يدفعنا ذلك الى القيام ببحوثنا الوطنية لاستكشاف المعالم الاساسـية لشخصيتنا ، وتحديد المشكلات التى تقف دون تطورها ونموها .

الماركسية والدولة الصهيونية
(الوجــود والكيــــان)
تأليف : اديب ديمترى
بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٠
عــرض وتحليــل
عاطف فؤاد

هذا الكتاب : هدفا ومنهجا :

يستمد هذا المؤلف اهميته من جدية القضايا التى يثيرها ، واجتهـاده الشخصى فى محاولة القاء بعض الاضواء على عدد منها ، بشكل لا تنقصـه الدقة العلمية ، ولا يفتقد روح البحث او الموضوعية .

وقضايا هذا الكتاب رغم تعددها — من الممكن تكثيفهـا او اختزالها الى قضية محورية ، يدور من حولها هذا المؤلف ، وهذه القضـية تتلخص فى موقف البلدان والاحزاب الاشتراكية والماركسية من وجود اسرائيل وكيانها ومدى امكانية بناء سياسة الاحزاب والدول الاشتراكية على اساس الاعتراف بالامر الواقع انطلاقا من وجود اسرائيل كدولة صهيونية .

واذا كان هذا هو جوهر هذا الكتاب الا ان الكاتب يثير الى جانب ذلك عددا آخر من الاسئلة والقضايا ، ولعل فى مقدمتها تساؤله عن مدى امكانية وجود اسرائيل دون أن تعتمد على الصهيونية وعن مدى صحة القول بأن الدولة فى اسرائيل شىء وسياستها شىء آخر ؟ واخيرا يتساءل الكاتب :

هل هناك امل حقيقى — انطلاقا من الواقع المادى والايديولوجى للدولة القائمة — وحتى بكل جهود القـوى الديمقراطيـة بداخلهـا ، والصراع الاجتماعى ، فى أحداث تحولات حقيقية فى سياستها واتجاهاتها . ؟

ومنهج هذا الكتاب يعلن عن نفسه من محاولة الباحث معالجة قضـية الوجود الاسرائيلى ، ثم قضية الدولة الصهيونية ذاتها من حيث شرعيتها ، من الزاوية الماركسية ، فمنهج هذا الكتاب اذن هو المنهج المادى الجدلى .

فصـــول هــــذا الكتــــاب

والكتاب فى مجمله وبفصوله السبعة وبمقدمته وخاتمته محاولة جديرة بالاهتمام للاجابة عن التساؤلات والقضايا المثارة من قبل الكاتب . ولايعنينا من أمر هذه الفصول ، تفاصيلها بقدر ما يعنينا الخطوط العـامة والافكار الرئيسية التى من الممكن استخلاصها من بين طياتها .

والفصل الأول من هذا الكتاب يعنى بدراسة جذور المسألة اليهودية في محاولة لايجاد اجابة عن السبب في التقاء بعض احزاب اليسار واحـزاب اليمين العنصرى المتطرف فيما يتعلق بقضية الوجود الاسرائيلى .

ويرى الباحث أن الاشتراكية هى الكفيلة وحدها بالقاء الضـوء عـلى تاريخ المسألة اليهودية في كل عصورها منذ العصر العبـودى والدولـة الرومانية وكذلك الاقطاع والراسمالية .

والبعد الفكرى ـ كما يذهب الكاتب ـ هو البعد الحقيقى للقضية ، اذ اننا نستطيع من خلاله أن نصل الى جذور المسألة اليهودية .

وتحتل قضية الارض ـ أرض الميعاد ـ اهمية بالغة في التاريخ اليهودى، حيث تتخذ الايديولوجية الصهيونية من مفهـوم الارض منطلقا لهـا في كل دعواها ، واصبح الحنين للارض عند منظرى الصهيونية هو حنين اليهودى الى ذاته ، واصبح جزءا من هويته الدينية والقومية .

والملاحظ ان تزييف التاريخ يحتل ركنا اساسيا في المنطق الصـهيونى ، والدليل على ذلك تلك الدعاوى التى يروج لها المفكرون الصهيونيون منـذ أواخر القرن التاسع عشر ، ولعل من ابرز هـذه الدعـاوى التى تروج والقضايا ، قضية الارض ، ثم الشتات ، وقضايا اخرى كالقضيةالتى مؤداها أن الشعب اليهودى يمثل تعاقبا تاريخيا متصلا ، وأن الشعب اليهـودى يملك كل مقومات الوجود والبقاء القومى .

وتعد الدعاوى السابقة روافد تصب كلها في المفهوم العرقى العنصرى، الذى يؤكد ـ كما يدعون ـ انحدار اليهودى من عرق نقى يملك اصـالة وتفوقا وعبقرية قومية خاصة .

والفصل في تفاصيله بعد ذلك محاولة لدحض الدعاوى اليهودية كقضيتى الارض والشتات من خلال منظور ماركسى معتمدا في ذلك على المراجـع الماركسية ولاسيما مؤلف ماركس الشهير « المسألة اليهودية » (١٨٤٤).

ويرى الكاتب أن المنهج العلمى الذى يستند الى التفسير المادى للتاريخ بعكس المنهج المثالى قادر على أن يفسر لنـا ويعلل استمرار « المسـألة اليهودية لقضية مازالت قائمة عبر التاريخ البشرى منذ العالم القديم » .

ويذهب الكاتب في محاولته تفسير استمرارية « اليهودية » في التـاريخ انه اذا كان القصد هو اليهودية الفاضلة والانسانية فهذه استمرت بالفعل .. فقد عرفت طريقها الى المسيحية ثم الاسـلام . أما اليهودية القبلية والوحشية المغلقة .. فهذه استمرت ايضا لأن الطبقات الرجعية المستغلة لازالت تمارس استغلالها ، وحيث اصبحت اليهودية هى وجهها البـارز والمفضل بايديولوجيتها العنصرية ، ايديولوجية الكراهية والحرب .

والفصل الثانى من هذا المؤلف محاولة للتعرف على موقف الاشتراكية العلمية من الفكر الصهيونى . وموقف الاشتراكية العلمية كما يرى الباحث واضح وحاسم من قضية الصهيونية ، حيث تعتبرها حركة تمثل قمة الرجعية، بل اكثر اقسام البرجوازية اليهودية رجعية وتخلفا .

ويحاول كاتبنا بعد ذلك ان يعرض لطبيعة العلاقة القائمة بين اسرائيل من جهة والاتحاد السوفيتى من جهة اخـرى من واقـع اقوال المسئولين الاسرائيليين انفسهم ، ومن خلال المراجع والمؤلفات التى تناولت هـذا الموضـوع .

ويثير الكاتب بعد ذلك ثلاث قضايا هى : الاثنية اليهودية ، والابعـاد البيرجوازية للتحرر ، واخيرا طريق التحرر الجذرى من اليهودية الـذى يؤكد فيه من خلال اقوال ماركس نفسه — ان التحرر اليهودى فى معنـاه الاخير يقوم على تحرر الانسان من اليهودية . وان تحرير اليهود يعنى اذن تحرر الانسان ذاته ، تحرر البشرية كلها .

ويثير الكاتب فى الفصل الثالث من الكتاب عددا من القضـايا الهـامة تتعلق بالدولة الصهيونية ويحاول ايضـا أن يعيد طـرح قضية « الدولة الصهيونية » مؤكدا ان محاولات الصهيونية لحصر المشكلة واضـفاء صفة المحلية ، وانتزاع القضية ، كل هذا مآله الفشل تماما .

ويعزو الباحث الى المقاومة الفلسطينية الفضل فى انها قد صححت وضع القضية ، وأعادت طرحها بفهم ووعى جديد ، فقد تحولت من قضية اعـلام وحرب كلامية ، الى حرب تحرير وطنى ، واكدت — اى المقـاومة — أن قضايا التحرير الوطنى لا تحل الا بتضحيات الوطنيين على أرض الوطــن ذاته .

واذا كانت اسرائيل حاليا تعتمد على الاقنعة التى يتيحها لها الاعـلام الصهيونى ، فان الامر لم يكن كذلك أيام هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية فى النصف الاخير من القرن الماضى ، حيث انه لم يكن فى حاجة الى اقنعة بسبب ظهور الصهيونية فى ظروف عالمية مختلفة تماما عما هو حـادث فى الوقت الحاضر ولقد كان هرتزل واضحا صريحا ولم يحاول أن يخفـى ابعاد اطماعه فهى « المساحة من وادى النيل الى الفرات » .

والفصل الرابع من هذا الكتاب محاولة محمودة من الكاتب لتشخيص المجتمع الاسرائيلى وتحديد سماته ، بادئا بسمة الاستعمار الاستيطانى حتى سمة الدولة العسـكرية ، وما بينهمـا من سـمات اخـرى كالعنصرية والتوسعية ... الخ .

والاساس الاقتصادى — فيما يرى الباحث — مسئول مسئولية مباشرة عن هذه السمات ، حيث أن هذه السمات كامنة فيه تتبادل معه التأثير والتأثر .

ثم يحاول كاتبنا أن يفند الدعاوى التى تنهض على اسـاسها اسرائيـل

ولا سيما في تأكيدها بانها دولة اشتركية ، وخاصة في مناقشته لقضية الطبقات والصراع الطبقي ، والذي يرى أنه لا محل لانكار وجود هذا الصراع داخل المجتمع الاسرائيلي الذي حاول اغفاله كثير من علماء الاجتماع الصهيونيين مثل ايزانشدات . الا ان هناك دراسات جادة وموضوعية مثل دراسة علم الاجتماع الفرنسي سيرج جونار للطبقات الاجتماعية في اسرائيل تفند هذا الزعم وتؤكد حدة الصراع وتعطي صورة واقعية للطبقات وتوزيعها داخل اسرائيل والتي تنقسم الى ثلاث طبقات رئيسية هي الطبقة الوسطى والطبقة العاملة وطبقة المزارعين .

وينطلق الباحث في دراسته للبناء الطبقي للمجتمع الاسرائيلي منمسلمة اساسية ومؤداها ، اذا كان علم الاجتماع الماركسي ينطلق من قوانين عامة وكانت تحدد حركة الطبقات ومسارها الا أن المنهج الماركسي ينطلق من قاعدة أخرى اساسية هي الشق الآخر لعمومية الظواهر الاجتماعية وقوانينها ، وهذا الشق الآخر هو خصوصية الظاهرة الاجتماعية ، وتوقفها على الواقع الاقتصادي لمجتمع معين في واقع تاريخي وفكري معين .

اذا كان الفصل الرابع من هذا المؤلف قد حاول أن يقدم لنا صورة لطبيعة المجتمع الاسرائيلي والسمات التي يتميز بها ، فان الفصل الخامس — يقدم لنا مناقشة يرفض من خلالها الدعاوى اليهودية في وجود أمة يهودية خالدة وثابتة عبر التاريخ . ويرى الباحث ان الاحزاب الشيوعية والاشتراكية الثورية التقدمية ، ترفض فكرة امة يهودية عبر التاريخ او على نطاق العالم ، كما ترفض فكرة ان اسرائيل اليوم امتداد لاسرائيل القديمة .

ووفقا للمنهج الذي التزم به الكاتب في معالجة قضايا هذا الكتاب ، يذهب الى أن الماركسية لم تقف من فكرة القومية موقف الرفض أو العداء كما يرى البعض ، حيث أن المنهج الذي اتبع في معالجة هذه الفكرة الماركسية يفترق عن المنهج المثالي الغيبي .

فماركس عملا بمنهجه المادي التاريخي ، لم يكن ينظر الى القوميات باعتبارها ظاهرة مطلقة بل يضعها في اطارها التاريخي ، ويقيمها من زاوية مصلحة الثورة نفسها . وهو لم ير تناقضا بين مصلحة الثورة الاشتراكية البروليتارية ومصالح القوميات المضطهدة والشعوب المستذلة وقد رفض بحزم دعاوى الخياليين بأن « القومية والامة من الأوهام البائدة » .

ويرى الكاتب أن استخدام منهج التحليل التاريخي الطبقي للقومية ، له أهميته في فضح مزاعم الصهيونية واسرائيل القومية ، لأنه يحرمهما من التلاعب بالالفاظ والاشكال الاجتماعية وينزع اللافتات القومية الخاوية من المضمون الثوري .

واذا كانت الماركسية تعترف بوجود القوميات خلافا لما هو شائع فان تطبيق هذا المنهج — كما اشرنا — يجرد الصهيونية مما تتشدق به ، وذلك على الرغم من محاولات العلماء الصهيونيين ولاسيما علماء الاجتماع الذين

ينشطون محاولين اثبات الملامح القومية الجديدة للمجتمع الاسرائيلى فى أرض فلسطين كالبحث الذى نشره ايزانشدات استاذ علم الاجتماع بالجامعة العبرية بالقدس فى ١٩٦٧ عن الهوية الاسرائيلية ، ولكن كاتبنا يرى أن هذا لم يفضح ـــ من حيث لا يدرى حقيقة هذا المجتمع ـــ مجتمع المستوطنين ولا سيما فى تأكيده على أن الايديولوجية والبناء الفكرى والقيمى للمجتمع الاسرائيلى تقوم على أساس ايديولوجية الرواد ، وهو ما يعنى بالتحـــديد ايديولوجية المستوطن الأوربى المستعمر .

أما عن الفصل السادس من هذا الكتاب فهـــو محـــاولة لابراز موقف الاحزاب والدول الاشتراكية من قضية حق الامم فى تقرير مصيرها ، وهـــو المبدأ الذى يحتل مكانا بارزا فى النظرية اللينينية فيما يتعلق بقضايا التحرير فى مرحلة انهيار الرأسمالية .

ولكن الكاتب يشير فى هذا الى أن هناك تناقضا وقعت فيه بعض الاحزاب والشعوب الاشتراكية فيما يتعلق بقضية فلســـطين ، حيث انها فى الوقت الذى اعترفت فيه بحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة الى ديارهم أو التعويض . الا أن هذه الاحزاب وتلك الشعوب تتمســـك فى نفس الوقت بحق اسرائيل فى الوجود كدولة وفى البقاء والاستمرار ، ويتساءل المؤلف كيف يتأتى تأييد حق العرب الفلسطينيين فى تقرير المصير ، وفى نفس الوقت تكريس الوضع الذى خلق المشـــكلة نفسها ، والذى يحـــرم الفلسطينيين من تقرير المصير ؟ ؟

ويعنون الكاتب فصله السابع والاخير بعنوان الهدف والتكتيك ، ويشير فى أوله الى أن الكتابات والدراسات الماركسية المتعلقة بقضية فلســـطين خاصة بعد عدوان يونيو تزداد عمقا ودراسة ، ولكن يرى أن هذه الدراسات لازالت تقف عند حدود المعالجة الســـياسية لدور الامبرياليـــة العالميـــة والصهيونية العالمية فى تدبير العدوان ، ولا تحاول أن تخطو أبعد من ذلك الى كنه الدولة الصهيونية ، ووجودها الى صنع العدوان تلو العدوان .

ويفرد الباحث بعد ذلك جزءا من هذا الفصل يتحدث فيه عن الحـــزب الشيوعى الاسرائيلى ومحاولات الفلاحين والعمال والمثقفين الاسرائيليين من اجل تغيير السياسة الاسرائيلية القائمة الموالية للاستعمار .

ويثير كاتبنا سؤالا مؤداه : هل يمكن أن تقوم حكومة سلام وديموقراطية واستقلال وطنى فى اسرائيل وفى اطار الدولة الصهيونية القائمة ؟ ويجيب الكاتب عن هذا السؤال مؤكدا استحالة تحقيق هذا المطلب الا فى حـــالة واحدة هى اذا ابيد الشعور الفلسطينى المقهور أو تم استسلامه بلا شروط وتخلى عن وطنه الى غير رجعة .

ويؤكد الباحث فى نهاية هذا الفصل على ضرورة بذل الجهود المضاعفة لاحداث التحولات الضرورية فى الرأى العام العالمى من أجل تحقيق الضغوط الواجبة لزحزحة الامبريالية عن مواقعها ، وشل حركة المؤســـسة العسكرية الحاكمة فى اسرائيل والصهيونية العالمية ودحر مخططاتها .

وفى خاتمة هذا الكتاب يضع الكاتب المسألة اليهـودية بين الحلين الصهيونى والاشتراكى ، يرى أنه بالرغم من الاهتمام الكبير والمتزايد من جانب الدول الاشتراكية والاحزاب الشيوعية بقضية الشرق الاوسط الا انها لم تأخذ بعد ابعادها الحقيقية ، ولا يمكن أن تعالج بعيدا عن وجود الدولة ذاتها « الدولة اليهودية » .

وبناء على ذلك فان القوى الاشتراكية والثورية على نطاق العالم ستظل مغلولة اليد بازاء مصدر التوتر والعدوان ، محصورة داخل دائرة مغلقة لا تخرج منها ، طالما حصرت نفسها فى البحث عن الحلول السريعة والمباشرة لرد العدوان وازالة اثاره .

وينادى كاتبنا بضرورة طرح المسألة اليهـودية فى ارتباطهـا بالدولـة اليهودية اذا ما اريد احداث تحولات بعيدة فى موقف الرأى العام العالمى .

ويؤكد اخيرا انه من العبث انتظار التغيير من داخل اسرائيل ، وفى رأيه أن حل قضية الشرق الاوسط وبمعنى أدق مشكلة الفلسطينيين يمكن فى أن تتبنى القوى الديموقراطية العـالمية الحل الديموقراطى والانسانى معـا للقضية ، الحل الثورى الذى يشمل التراب الفلسطينى كله ويجمع الشعبين اليهودى والفلسطينى وانه ينبغى على الاحزاب والـدول الاشـتراكية والتقدمية أن تأخذ القضية ببديهيات وترفع الشعار على العالم ، الـذى طرحته المقاومة الفلسطينية ، هذا الشعار هو « فلسطين ديموقراطية » ، فلسطين الدولة العلمانية متعددة القوميات والاجناس وطن للجميع ، وذلك هو الطريق الوحيد الى السلام .

. . . .

وبعد ، فهذا المؤلف يمثل وجهة نظر محددة فى معالجة قضية بعينها ، بل أن هذا المؤلف يمثل منهجا واضحا يعلن عنه كتبه صراحة من أول عنوانه للكتاب حتى آخر كلمة فيه . وهو من الامور التى نحمدها للكاتب بصرف النظر عن اتفاقنا معه فى منهجه أو اختلافنا ، فالمنهج واضح والرؤية محددة ، وهى اولى سمات البحث العلمى الموضوعى الجاد .

والكتاب يمثل جهدا واضحا فى طرح الكثير من المسائل التى تمثل اخطر قضية تعيشها امتنا فى الوقت الحاضر ، ويتضح هذا الجهد فيما يتضح فى تلك التفاصيل الدقيقة والجزئيات التى اريد بها اكتمال الصورة واتمامها وليس التزيد منها بما لا يفيد أو ينفع .

واذا كان للكاتب ايديولوجيته الخاصة ومنهاجه المتميز ، فان ذلك لم يحجب عنه الرؤية الموضوعية لكثير من المسائل التى تمس موقف الاحزاب والدول الاشتراكية من اسرائيل ومن تصريحــه بان القـــوى الاشــتراكية والثورية على نطاق العالم مازالت مغلولة اليد ازاء التوتر والعــدوان ، محصورة داخل دائرة مغلقة لا تخرج منها ، حيث انها حصرت نفســـها فى البحث عن الحلول السريعة والمباشرة لرد العدوان وازالة آثاره .

ومن الامور التى ينبغى ان تذكر للكاتب مناداته بضرورة تبنى القـوى الديموقراطية العالمية للحل الديموقراطى والانسانى معا للقضية الفلسطينية، الحل الثورى الذى يشمل التراب الفلسطينى كله ويجمع الشعبين ، وانه من العبث انتظار التغيير من داخل اسرائيل .

الا ان الكاتب فى هذا لم يوضـح لنا اجرائيا كيفية تبنى القوى الديموقراطية العالمية للقضية الفلسطينية ، وما هى الاجراءات العملية ، وما هى رؤيته الخاصة لتحقيق هذا الامل ؟ .

واذا كان الباحث يعزو الى المقاومة الفلسطينية ويرجع اليها الفضل فى انها صححت وضع القضية ، وعادت طرحها بفهم ووعى جديد ، فان ذلك أمر لا شك فى صحته الا ان هناك جهودا اخرى للكثير من الدول العربية الثورية اثارت الانتباه وجددت الاهتمام بالقضية العربية ، بل ان هذه الدول عملت على اعادة الثقة فى القدرة العربية وبعدالة القضـية العربية واذا كانت المقاومة الفلسطينية تقوم بهذا الدور العظيم ، فانها بذلك تعمل فى معية واحدة مع الدول العربية الثورية التى تبنتها ودعمت قوتها ، هـذا فضلا عن الدول الاشتراكية وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى .

والكتاب فى مجمله جهد رائع ومحمود لكاتب ثورى يتوقع منـه الفكر العربى الكثير والكثير .

فى الأدب الصهيونى

تأليف غسان كنفانى

بيروت : دراسات فلسطينية ، مركز الأبحاث ، ١٩٦٧

عرض وتحليل

منى انيس

فى مستهل عرضنا لكتاب فى الأدب الصـــهيونى علينا أن نسجل التحية لروح الشهيد غسان كنفانى مؤلف هذا الكتاب ، الذى كانت حياته سلسلة متصلة فى النضال ضـــد المنطق الصهيونى المعادى للانســـان ولعلل هذا الكتاب بما يطرحه من هدف « القاء ضوء آخر على الشعار الصعب : اعرف عدوك » يعد بحق احد ثمار ذلك النضـال العظيم فى مواجهة عقل بربرى لم يستطيع أن يتصدى لهذا العقل الشريف بالمنطق أو الحجة فاستخدم أكثر الوسائل همجية ــ قنبلة موقوته ــ استطاعت فى الظلام أن تصيب جسد غسان بمقتل الا أنها فى ذات الوقت تعـــد تأكيد لكل تحليلات غسان عن الصهيونية فى ضحاها الفاشى المعادى للعقل والانسان .

أما عن الكتاب فهو فى الواقع يتناول قضيتين أساسيتين ، دور الأدب فى استيلاء الحركة الصهيونية والتمهيد لها ، ثم العصمة اليهودية فى مقابل اللاجداره العربية والكاتب فى تناوله لدور الأدب فى التمهيد للحركة الصهيونية ثم مواكبتها يوضح ذلك النضال المستميت الذى خاضه الأدب الصهيونى فى نشر الدعوى الصهيونية التى أدعت أن الدين والقومية شىء واحد وحاولت عن طريق الأدب ايجاد مبررات لهـــذه الدعوى ونشرها بين يهود العالم للحيلولة دون اندماجهم فى أوطانهم الأصلية توطئه لدعوة الهجرة الى أرض الميعاد . فلقد ظل الأدب الصهيونى ولفترة طويلة قبل مؤتمر بال ١٨٩٧ يقوم بدور الداعية والممهد للحركة الصهيونية . بل أن المؤلف يعتبر ذلك المؤتمر الصهيونى الأول تتويجا علينا لسلسله من الضغوط لعب فيها الأدب الصهيونى دورا أساسيا .

والآن فلنتناول بشىء من التفصيل تلك الدعاوى التى ساقها الأدب كمبرر للدعوى الصهيونية بأن اليهود قومية واحدة رغم اختلاف أوطانهم وردود المؤلف على تلك الدعاوى . أول دعوى تساق هى اللغة . فلكى تتحول الديانة اليهودية الى علاقة قومية كان لابد من الاستنجاد باللغة العبرية كاحتمال وحيد لرابطة كانت مفقودة فى جميع المجالات التى يشكل مجموعها ، عادة ،

مثل هذه الرابطة القومية . فاللغة هى الخيط الواهى الوحيد الذى يربط بين اليهود فى توزعهم على عرض العالم . ولعل فى أشهر تلك المحاولات من جانب مفكرى الصهيونية على جبهة اللغة عبارة احاد هاعام « آخر يهودى وأول عبرى » التى غدت شعار صهيونيا . والمؤلف فى رده على تلك الحجة يوضح أن العبرية كانت دائما لغة طقوس فحسب بل ان الكثير من اليهود لا يعرفون العبرية على الاطلاق وانما يرددون صلواتهم غيبا دون فهم معناها وحتى المفكرين اليهود الذين كانوا على علم بالعبرية لم يستخدموها فى كتابه مؤلفاتهم الفكرية وانما استخدموا لغة البلد الذى عاشوا فيه . والمؤلف يضرب لنا أمثلة عدة على هـذا ابتداء من يهودا بن هلقى الذى عاش فى الاندلس آبان الحكم العربى والف مؤلفه الضخم « الحجة والدليل فى نصرة الدين الذليل » حتى الشاعر الالمانى هزيك هاين .

ولكن الادب الصهيونى تغافل عن هذا كل وبدات اللغة العبرية رحلتها السياسية فأضحت « مفتاح الصندوق الذى يضم أغلى الكنوز » لأن « العهد القديم هو دواء الانسانية الانجع » وصاحب تحول اللغة هذا تحول حتمى فى صورة البطل اليهودى فبعد أن كان بطل دينى بمعنى التصرف والاستقامة تحول الى بطل سياسى لا يسـتطيع فى الوقت ذاتـه التخلص فى جذوره الاسطورية ؛ وهكذا بدأ ظهور بطل عبرى نسخه من أبطال العهـد القديم دونما الله او اقدار الأمر الذى جعله على حد قول المؤلف دونكشوتيا مضحكا يمثل القوة المطلقة والبياض المطلق .

ثم ينتقل الكاتب الى نقطة أخرى طالما استخدمها الأدب الصهيونى فى تبرير احساس اليهودى بالتميز والتعالى الا وهى نقطة اضطهاد اليهود . فيستعرض تاريخ الانتاج الفكرى اليهودى ليخرج بأن اكثر الانتاج اليهودى الأدبى الراقى تحقق فى فترات يمكن اعتبارها فترات انفراج بالنسبة لليهود مما يؤكد أن اليهود عاشـوا وابدعوا كل فى وطنه كأى مواطن آخر غير يهودى وبذلك يكشف المؤلف النقاب عن دعاوى الصهيونية بأنها ولدت كرد فعل للاضطهاد ليوضح انا انه على العكس تماما فان الفترات الانفراجية التى كان يمكن أن تكون مدخلا الى الاندماج كانت ترفض من قبل طبقة يهودية خاصة رفضا عنصريا وعرقيا خاصا ، فعلى الرغم من أن الاعمال الكلاسيكية الكبرى التى تشكل فى مجموعها التراث اليهودى (أعمال يهودا بن هلفى وموسى بن ميمون وسبينوزا على سبيل المثال لا الحصر) قد كتبت فى فترات انفراج مما يستوجب أن تكون دعوى الانفراج رسالة الصهيونية ما الا أن الصهيونية أخذت الموقف المعاكس لأغراض عنصرية واتخذت رفض الاندماج ودعوة التميز رسالة لها . وفى هـذا المجال يذكر لنا المؤلف أن المجلس الوطنى الفرنسى عام ١٧٩١ منح حقوقا غير مشروطة لليهود فى فرنسا ثم ما لبثت هذه البادرة أن شـاعت فى أوربا الغربية والوسطى الا أن هذه الحقوق جوبهت بالرفض فى تلك الطبقة الخاصـة من اليهود التى كانت حريصة على الدفع تجاة موقف عنصرى يهودى .

وحتى فى مواجهة الاضطهاد العنصرى لليهود نجد ان الصهيونية بدلا من

أن تطرح النضال فى سبيل المســـاواة والاندماج مسلكا تمسك بالمسطرة العنصرية من طرفها الآخر لتطرح الشعور بالتميز العنصرى حلا . مما يجعلها لا تختلف كثيرا عن النازيـــة بذلك تسقط تماما الدعوة التى طالما رددتها الصهيونية من خلال الادب بأن اسرائيل رد على الاضطهاد ويجد الكاتب الصهيونى نفسه على الدوام مطالبا فى نطاق تبرير اسرائيل بالوقوف فى مواقع عنصرية .

ثم يتناول الكاتب مســـألة آخرى هامة وهى العرق والدين فى الادب الصهيونى فيوضح فى خلال نماذج عدة لروايات صهيونية كيف لعب الادب دور هام فى استولاد العرق والدين اساسا الدعوة الصهيونية وبالطبع ان الحيز لن يتسع لعرض كل تلك الأمثلة الا انه يجدر بنا ان نشير بأيجاز الى مثل واحد هو رواية « دافيد الروى » لبنيامين دزرائيلى لما يحويه هذا المثل من تناقض فكاتب تلك الرواية هو نفسه رئيس وزراء بريطانيا الذى اعتلى كرسى رئاسة الوزراء مرتين فى العهد الفكتورى ورغم ما تعنيه حقيقة ان رئيس وزراء الامبراطورية التى لم تكن لتغرب عنها الشمس آنذاك يهودى ، من حقوق مواطنه تامة لليهود وظروف طبيعية تماما تسمح لهم بالاندماج ، الا اننا للعجب الشديد نجد بطلة دزرائيلى ترفض الاندماج وتتخذ العنصرية دينا وديدنا لتنادى بنفس منطق هتلر الكريه « ان كل شئ عرق .. ليس ثمة حقيقة آخرى » .

وفى نهاية تنـــاول المؤلف للقضـــية الاساسية الأولى — دور الادب فى استيلاد الحركة الصهيونية والتمهيد لها — يخلص الكاتب بحقيقة ان الأدب الصهيونى فى معظمه أدب دعائى محض بشر للحركة الصهيونية وواكبها دون ان يحرز قيمة فنية حقيقية لدرجة ان رواية هرتزل « الأرض الجديدة قديمة » استخدمت عام ٦٢ فى طبعة المانية لكتاب دعائى ونشر معها ٢٠٠ صورة عن اسرائيل وتاريخ اليهود بما فى ذلك الخطوط البيانية عن تطور حركة التصدير وتزايد السكان والجيش ومجلس النواب والصور الملونة للمدن فالرواية فى حقيقتها ليست الا قضية دعائية محصنة .

نأتى الى القضـــية الأساسية الثانية التى يتناولها المؤلف وهى العصمة اليهودية أمام اللاجدارة العربية واذا كان الكاتب قد اعتمد فى عرضه للقضية الأولى على التحليل والبحث فانه يعتمد أساسا فى تناوله لقضية العصمة اليهودية على النصوص الأدبية الصهيونية التى تكاد تقف بمفردها دونما حاجة لتفصيل فى الشرح دليلا على العنصرية الصهيونية فالبطل اليهودى معصوم ، يقوم بدور حضارى فى المنطقة « لا يريد الحرب ولا يؤيدها ولكن اذا ما أجبر على القتال قاتل كما لم يقاتل احد » بنى من طراز معجز يزيد من أعجازه كونه أداة غير الهية مما يجعله متناقضا مع أبسط مبادىء النماذج البشرية وأبسط مبادىء العمل الفنى . كما أن المبرر الوحيد طبعا لاغتصاب فلسطين هو عدم الجدارة العربية ففى لمح البصر يستطيع سبعة رجال نصف مسلحون فى سيارة شحن معطوبة غنموها من العرب أن يكتسحوا دونما أو امر بلده الجيه بالقرب من المجدل ويحتلوها دون أن يفقدوا رجلا

واحد . بل ان ليون أوريس يقرر ببســاطة متناهية فى قصــته الشهيرة اكسودس « لو كان عرب فلسطين قد أحبوا أرضهم لما كان بوسع أى كان طردهم .. لو كان طردهم منها ما بل الهرب منها دونماسـبب حقيقى » .

ثم يصل بنا المؤلف الى نهاية كتابه ليخلص فى الفصل الأخير « من جائزة نوبل الى عدوان ٥ حزيران (يونيو) » بأن منح جائزة نوبل لعجنون قبل سبعة شهور من حرب ٦٧ « خطيئة أخرى يرتكبها العالم المضلل نتيجة دق الدعاوى الصهيونية الذى ظل ايقاعه يضرب فوق عقل العالم أكثر من قرن » .

النزوح الثـانى

دراسة ميدانية تحليلية لنزوح ١٩٦٧ *

تاليف أميرة حبيبى

بيروت : دراسات فلسطينية ، مركز الأبحاث ، ١٩٧٠

عرض وتحليـل

محمـد هويـــدى

تعرضت الضفة الغربية للاردن لاحتلال اسرائيل فى يونيو ١٩٦٧ ، وقد ترتب على ذلك نزوح عدة آلاف من المواطنين الى الضفة الشرقية ، وقد أجريت هذه الدراسة لمعرفة العوامل الخفية التى ساهمت فى ذلك ، وقد قام بالدراسة فريق من دائرة علم الاجتماع فى الجامعة الامريكية ببيروت ، وكانت الباحثة أميرة حبيبى أحد أعضاء هذا الفريق وقد تقدمت برسالتها للماجستير والتى نعرضها هنا اعتمادا على هذه الدراسة .

وتهدف هذه الدراسة الى تأييد العوامل الآتية :

(أ) يكون الاعتداء العسكرى الاسرائيلى على الضفة الغربية للاردن فى يونيو ١٩٦٧ حالة نكبة .

(ب) استجاب سكان الضفة الغربية للأزمة بأحد مظهرين ، أما البقاء فى بيوتهم أو الهرب أثناء الكارثة أو بعدها .

(جـ) بعض الخصائص الموجودة فى البناء الاجتماعى للمجتمع العربى تؤدى الى الهروب أثناء الأزمة ، وهى :

١ ــ انماط العائلة العربية ، أهمية الولاء للعائلة ، تبعية كل المصالح لمصلحة العائلة ، والحفاظ على قيم العائلة بأى ثمن .

٢ ــ اعتبار خير العائلة اهم من مصالح الامة .

٣ ــ قابلية المجتمع العربى للايحاء .

والمقصود بالنكبة فى هذه الدراسة هو أنها « تمزيق النشاطات العادية للنظام الاجتماعى بواسطة قوى معينة تجعل النظام غير قادر على بلوغ أهدافه ذات القيمة الكبرى ، والمحافظة على حالة من الأوضاع مرغوب بها ، والتى بدورها تعود الى رد فعل معين عند النظام الممزق » .

وقد أجريت الدراسة في شهر سبتمبر ١٩٦٧ على مائة أسرة من النازحين المقيمين في مخيم « زيزياء » القريب من العاصمة الاردنية . وتقدم العاملون في البحث أنفسهم كفريق من الطلبة والأساتذة العرب الذين جاءوا ليتعرفوا على أوضاع النازحين وليؤمنوا لهم أية مساعدة اجتماعية وطبية لازمة ، وقد جمعت البيانات عن طريق المقابلة التي كان يقوم بها اثنان من الباحثين معا ، ولكن تسجيل الاجابات كان يتم بعد الانتهاء من المقابلة وبعيدا عن المفحوص.

تضمنت استمارة البحث خمسة واربعين سؤالا من النوع المفتوح ، قسمت الى الاجزاء التالية : ماضي العائلة ، الاقامة والأرض ، المهنة والدخل ، الروابط الاجتماعية ، ثقافة العائلة ، الحرب ، النزوح ، الوضع الراهن ، والموقف تجاه الازمة والمستقبل .

وقد عرضت النتائج طبقا للمراحل التي تمر بها النكبة وهي ثلاث : مرحلة ما قبل النكبة ومرحلة التأثير او الصدمة ومرحلة ما بعد النكبة .

ويتضح من استعراض النتائج الخاصة بمرحلة « ما قبل النكبة » ان معظم أفراد العينة يقعون في الطبقة الاجتماعية والاقتصادية الدنيا بكل ما تتميز به هذه الطبقة من زيادة حجم العائلة وانخفاض مستوى الدخل وارتفاع نسبة الأمية وانتشار المهن الزراعية وشبه الماهرة ، كما اتضح أيضا أن ٧٦٪ من أفراد العينة كانوا يقيمون في محافظة القدس . ومن ناحية الاستعداد للحرب فقد كان ٢٨٪ من الأفراد مستعدين استعدادا تاما بينما كان ٣٥٪ مستعدين جزئيا و ٣٧٪ كانوا غير مستعدين بتاتا .

أما عن مرحلة « التأثير او الصدمة » وهي التي احتلت الجزء الاكبر من النتائج فيتضح منها أن ٧٧٪ من الأفراد قد نزحوا خلال الأيام الثلاثة الأولى ، وأن ٥٨٪ من العائلات قد نزحت بكامل أفرادها .

ثم تعرض الباحثة لخبرة الحرب عند أفراد العينة من خلال ثلاث زوايا ، الزاوية الأولى هي « الاحتكاك بالاسرائيليين » حيث تبين أن ٤٨٪ قد احتكوا بالاسرائيليين سواء كان احتكاكا سلبيا أم حياديا ، والزاوية الثانية عن تجربتهم خلال الفترة ٥ — ١٠ يونيو ١٩٦٧ حيث تذكر الدراسة أن الناس في اليوم الاول كانوا في حالة سعادة وفرح لأنهم ظنوا « أن يوم العودة واستعادة الحق قد أتى » ولكن هذه الصورة قد تغيرت بسرعة نتيجة لانسحاب الجيش الأردني واقتراب الحرب منهم ثم وجود الاسرائيليين فعلا ، والملفت للنظر هنا أن النتائج الخاصة بهذا الجزء لم تعرض على شكل جداول احصائية على خلاف نتائج جميع أجزاء الدراسة كلها ، أما الزاوية الثالثة فكانت عن الأسباب المعطاة لمغادرة القرى او المدن ، وقد بينت النتائج أربعة أسباب رئيسية هي : العائلة (٣٥٪) وتتضمن الخطر على حياة أفراد العائلة والانضمام الى أفراد العائلة ، والخطر على العرض، السبب الثاني هو الخوف من الحرب (٣١٪) والثالث التصرف الجماعي اللاواع (٢٢٪) والسبب الأخير الاخراج بالقوة (١١٪) .

ثم تتحدث النتائج عن العوامل المؤثرة على اسـباب الهروب وهي : مستوى التعليم ، مدة الاقامة فى البلد ، ملكية الارض ، مكان الاقامة ، الخبرة السابقة ، ووقت النزوح ، ولكن الباحثة تذكر انها اعتبرت النتائج الخاصة بهذا الجزء غير وافية لاسباب ذكرتها .

اما عن المرحلة الاخيرة للنكبة وهي مرحلة ما بعد النكبة « فيتضح من النتائج أن أفراد العينة نادمين على النزوح ولديهم رغبة شديدة للعودة ، وأن كانوا فى نفس الوقت متشائمين من امكانية العودة بسبب عدم السماح لهم بذلك ، وبالرغم من ذلك فهم متفائلون من استعادة بلادهم عن طريق القتال » .

وتصل الباحثة فى النهاية الى أن الافتراضين الرئيسيين حول الهروب فى المجتمع العربى قد ثبت صحتهما فبنيان العائلة والقيم فى المجتمع العربى تساعد على الهروب ، كما أن المجتمع عرضة للرعب نتيجـة لبعض العوامل الكامنة فيه .

أن هذه الدراسة تلح وتؤكد على أن العائلة هي القوة الرئيسية التى سببت الهروب وأن أساليب الحياة والمثل العائليـة والشـخصية والقيم العربية قد أسهمت فى سلوك الهروب ، وبعبارة أخرى أن البناء الاجتماعى العربى هو السبب فى دفع المواطنين الى الهروب !! ولكن هل هذا صحيح تماما ؟ هل صحيح أن رد فعل الكثيرين من سكان الضفة الغربية — كما تقول الباحثة — هو فقدان السيطرة على النفس وبالتالى الهروب من منطقة الخطر؟ وأين دور اسرائيل فى احداث هذا السلوك واجبار المواطنين عليه سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ؟هل صحيح أن دورها يقتصر على ١١٪ فقط من أسباب الهروب ؟

اولا : من الناحية الاحصائية بالنسبة للجدول الوحيد فى متن الدراسة عن أسباب مغادرة القرى او المدن (ص ١٧٣) نجد أن الفرق بين النسبة المئوية الخاصة بالعائلة (٣٥٪) والنسبة المئوية الخاصة بالخوف من الحرب (٣١٪) ليس له دلالة احصائية ، بمعنى تساوى هاتين النسبتين ، بمعنى اننا لا نستطيع القول بأن العائلة هي السبب الأول لمغادرة القرى أو المدن .

ثانيا : نجد بعض الحقائق الخاصة بأداة البحث والعينة ، فى ص ١٩٤ تقول الباحثة : « لم نسأل سؤالا محددا عن أسباب النزوح عن الضفة الغربية .. وكان من الضرورى غالبا استنتاج الأسباب وتصنيفها تحت فئـات اختارها الكاتب (الباحث) » ، وكانت العينة « صغيرة الى درجة يصعب معها عزل العوامل المتداخلة التى ربما أثرت على تصرف الناس » .

ثالثا : هناك بعض الحقائق التى ذكرتها الباحثة تلفت النظر ، فالذين لجأوا من سكان الضفة الغربية هم ربع السكان فقط وليس « الكثيرين » ، وأن معظم افراد العينة من الطبقة الاجتماعية والاقتصادية الدنيا ، وان

العربى مرتبط بالتربة اكثر من اى شعب آخر ، فالأرض ليست مصدر معيشته فحسب بل انها الاساس لحياة عائلته وحضارته وتماثله بعادات اسلافه ، وانه لا يحيا بدون ارضــه ، ويخلق ابعاده عن ارضه « فراغا روحيا » لن يملأه اى تعويض مادى أو غير مادى (ص ٩٦) ثم نكتشف ان ٧٦٪ من أفراد العينة كانوا يقيمون قبل نزوحهم فى محافظة القدس ، وأن ٨٪ فقط ذكروا أن احد أسباب نزوحهم كان خوفهم على شرف العائلة النابع من الخطر على شرف نسائهم .

وتقول الباحثة فى ص ١٤٥ « يجب ان نلاحظ أن عددا كبيرا من المجيبين قد ترك الضفة الغربية بعد وقوع الاحتلال فقط خوفا من اعتقال القــوات الاسرائيلية لهم لأنهم خدموا فى الجيش الأردنى » .

ويقول تقرير المندوب العام للانروا قدمه الى الامم المتحدة فى ١٥ سبتمبر ١٩٦٧ : « فى قلقيلية وفى بعض القرى الامامية الصغيرة فى منطقة اللطرون والخليل تضررت أو تهدمت منازل عديدة أثناء القتال أو دمرت فيما بعد ، يتراوح مدى التخريب بين تدمير مالا يقل عن نصف المنازل فى قلقيلية الى التدمير الكامل الفعلى لبعض القرى الصغيرة » !!

لنرى ماذا فعل الاسرائيليون عند دخولهم قرى الضفة الغربية فى عــام ١٩٦٧ « وعندما دخل الاسرائيليون القرية هددوا بالمذياع « غادروا القرية ايها الجبناء والا فسنذكركم بما حدث فى فلســطين عام ١٩٤٨ » ، ولعلنا جميعا لا ننسى المجازر الاسرائيلية لقرى دير ياسين (١٩٤٨) وقبيــة وشقبه وبدرس (١٩٥٣) وكفر قاسم (١٩٥٦) والتوافيق (١٩٦٢) والسموع (١٩٦٦) . ويقول احد النازحين » .. دخلوا (الاسرائيليين) وأمرونا بمغادرة بيتنا والا فانهم سيطلقون الرصاص علينا ... لم ارغب ابدا فى ترك بيتى وأرضى لأنهما عزيزان على جدا » .

واخيرا فلنستمع الى احد النازحين يقول « حالما يسمحون لنا بالعودة سنعود ، حتى تحت الاحتلال الاسرائيلى ، وحتى بالمهانة وتحت الخطر على أعراضنا » (ص ٢٠٣) .

انه لما يثير الدهشة أن نصدق ــ نحن العــرب ــ تحت اســم العلم احدى الدعاوى الصهيونية الخطيرة ، والتى تقول للعالم أن الفلسطينيين فى عام ١٩٤٨ ــ قد تركوا ديارهم واراضيهم اختيارا وليس اجبارا ، وبالتالى فليس من حقهم المطالبة بالعودة . فاذا كنا وقعنا فى هذا الفخ الصهيونى فعلينا اذن أن نقبل ما تقوله هذه الدراسة من أن البناء الاجتماعى العربى والقيم العربية هى الاسباب الرئيسية للنزوح ، واذن فقد نجح الاحتلال الفكرى الصهيونى فى تحقيق احد أهدافه الاستراتيجية على العقل العربى » نحن لا ننكر بالطبع دور هذه العوامل فى النزوح ، ولكن اعتبارها العوامل الرئيسية هو ما نثير حوله التساؤل .

اننا عندما نتناول اى ظاهرة مرتبطة بالصراع العربى ــ الاسرائيلى فنحن لا نستطيع اهمال الاستراتيجية الصهيونية نحو فلســطين والعالم

العربى ، فهدفها الاول نحو فلسطين هو تفريغها من اى انسان عربى سواء بالترهيب أو الترغيب ، والا فأين يقطن الآلاف من اليهود القادمين باستمرار من الديًسبورا !! ومن سيصدق اذن انهم جاءوا الى أرض بلا شعب ليقيم عليها شعب بلا أرض .

ان المشتغلين بالبحث العلمى فى مجال العلوم الانسانية يعلمون أن اى ظاهرة انسانية يستطيع الباحث أن يراها حسب المنظار الذى يستخدمه فى الرؤية أو الدراسة ، وهذه احدى عيوب هذا المجال التى مازال الوقت بعيدا للتخلص منها ، كما أن الباحث عندما يبدأ بحثه بفروض معينة فانه غالبا ما يسير فى الطريق الذى يؤدى به الى اثبات صحة هذه الفروض ، ولعل ذلك هو ما حدث فى هذه الدراسة التى قامت بها الجامعة الامريكية ببيروت ـــ سواء عن قصد شعورى أو لا شعورى .

تجسيد الوهم

دراسة سيكولوجية للشخصية الاسرائيلية

تاليف قدرى حفنى

القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧٠

عرض وتحليل

سيد عبد العال

تكمن اهمية هذا الكتاب فى انه أول دراسة مصرية جادة ، لفهم الشخصية الاسرائيلية ، فى فترة نحن احوج مانكون فيها لفهم الطرف الثانى فى الصراع ، الذى بدأ منذ ربع قرن ونيف . والذى ليس هناك ما يدل على قرب انتهاءه او على الاقل يقل فى حدته ، كما يبدو ذلك من فهم دلالة يوم السادس من اكتوبر ١٩٧٣ ؛ أعنى الصراع العربى الاسرائيلى .

ولا تكمن اهمية هذا الكتاب فى أن مؤلفه قد حصل عن طريقه على جائزة الدولة التشجيعية فى علم النفس — لسنة ١٩٧٢ ، لانه كتاب أو « مبحث » فى الشخصية الاسرائيلية وكفى .. وانما تكمن — الاهمية القصوى فيه لانه يعد الركيزة الاولى والأساسية على الطريق نحو فهم أشمل للشخصية الاسرائيلية . فقد فتح به مؤلفه الطريق امام الباحثين العرب بعامة ، والمصريين بخاصة ، نحو دراسة الشخصية الاسرائيلية ، واضعا أقدامهم على طريق المنهج العلمى السليم لفهم الطابع القومى للشخصية الاسرائيلية .

فقد تعرض المؤلف فيما يزيد عن ثلث الكتاب للخطوات المنهجية الواجب اتباعها — من وجهة نظره والمزالق التى يمكن ان يتعرض لها الباحث ، فى هذا الموضوع الهام ، مبينا كيفية تجنبها وتخطيها وصولا الى فهم علم وشامل للقوانين العامة التى تحكم سلوك رجل الشارع الاسرائيلى بأعتبارها مفتاحا يلقى الضوء على فهم الطابع القومى للشخصية الاسرائيلية .

ويرى المؤلف ان مهمة المشتغلين بعلو الانسان ، علم الاجتماع وعلم النفس وعلم السياسة .. الخ هى تحقيق معرفة صحيحة بواقع الانسان الاسرائيلى ، فى محاولة جادة لخرق حواجز الجهل به . وهو يرى أن صحة المعرفة بهذا الواقع تتوقف على اتخاذ تلك المعرفة لمسارها الصحيح ، اى أن تكون معرفة بما حدث ، وتفسير له ، وتنبؤا بما سيحدث ، واستعدادا له . ذلك أن الدراسة الموضوعية لواقع « الانسان الاسرائيلى المعاصر » لا يمكن أن تكتمل الا فى ضوء تاريخ ذلك الواقع .

وهذا يعنى انه لابـد من نظرة شـاملة فى « الماضى » تكفل فهم أدق (للحاضر) حتى يمكن القاء نظرة استشفاف نحو « المستقبل » . وأن هذه العلاقة بين المتغيرات الثلاثة المطروحة (الماضى — الحاضر — المستقبل) يجب أن تكون متوازنة بحيث يتجنب الباحث مزالق الاستغراق فى فهم متغير واحد منها على حساب المتغيران الآخران . فدراسة الشخصية الاسرائيلية فى « الحاضر » استنادا الى « الماضى » لا يمكن تعميمها — بصفة قاطعة — على « المستقبل » . ذلك لأن الشخصية تعيش فى اطار ثقافى واجتماعى ، وهذا الاطار بما أنه متغير فان الشخصية الاسرائيلية ، شأنها فى هذا شأن الشخصية بوجه عام ، لا يمكن التنبؤ — تماما — بمستقبلها ولا بمستقبل المظاهر السلوكية التى تميزها .

على من اذن تقع مهمة تقديم التصور العلمى لمستقبل الواقع الاجتماعى الاسرائيلى ؟ . سؤال يطرحة المؤلف ليجيب عنه اجابة تحتاج الى عدد من علامات الاستفهام ، وهى أن هذه المسئولية ليست مسئولية المشتغلين بعلم النفس وحدهم ، وانما هى مهمة المشتغلين بالعلوم الانسانية جميعا . وعلامة الاستفهام التى نقترحها هى انه اذا لم يكن لعلم النفس القدرة على فهم القوانين التى تحكم السلوك فى الماضى والحاضر — والتنبؤ باحتمال السلوك فى المستقبل فأنى له أن يصبح علما ؟ . ويعود المؤلف فى فقرة تالية ليتفق مع علامة الاستفهام التى طرحناها ، فيقول ان الدراسة فى نهاية الأمر لا تعدو أن تكون الا « محاولة للتنبؤ » باحتمالات سلوك الانسان الاسرائيلى فى المستقبل ولكنها ليست محاولة للتنبؤ بمستقبل « اسرائيل ». وهذا ما حدى بالمؤلف لعدم التعرض للتجمعات البشرية الصغيرة التى يمتلىء بها المجتمع الاسرائيلى حتى لا يغرق فى تفاصيل — لا لزوم لها — تحجب الرؤيا عن الوصول الى مبدأ (العمومية) المطلوب لما نصل اليه من « تنبؤات » ممكنه لاحتمالات السلوك المتوقع فى المستقبل .

اذن يصبح هدف هذه الدراسة « محاولة تحقيق أكبر قدر من الفهم العلمى — الموضوعى — للشخصية الاسرائيلية — دون الدخول فى تفاصيل معقدة لمفهوم « الشخصية » على اعتبار أن ما يعنيه المؤلف هنا — وببساطة تامة — هو التوصـــل الى العوامل السيكولوجية الأساسية التى تحدد سلوك رجل الشارع — الاسرائيلى .

اذن هذه الدراسة تدخل ضـــمن نطاق الدراسات التى اصطلح على تسميتها « سيكولوجية الشعوب » أى على غرار الدراسات التى أجريت عن الطابع القومى للشخصية الألمـــانية ، أو الشخصية اليابانية أو الشخصية الروسية .. الخ . ولـــكن دراسة الطابع القومى لأى شخصية تحتـــاج الى تناول أفـــراد ممثلين لهـــذا المجتمع — موضع البحث — باجـــراء قياسات عن الاتجاهات والقيم والمعتقدات والعادات والتقاليـــد الخ هذه التفريعات ، والا خرجت الدراسة وكأنها مجرد تصورات نظرية . والواقع فان المؤلف لم يفته هذا ، وانما أشار اليه فى معرض حديثـــه عن المنهج الذى قرر استخدامه فى الدراسة فأشار الى ذلك مبينا الشروط التى اشترط اليها مصطلحا على تسميتها بالدراسة « عن قرب » موضحا أيضا أن هناك

فى مقابلها ما يعرف بالدراسة « عن بعد » — والتى تحكم الظروف الى الأخذ بها نظرا لعدم امكانية اجراء دراسة عن قرب للواقع الاسرائيلى .

اذن تقع هذه الدراسة فى كل تفاصيلها — ضمن مجموعة الدراسات « عن بعد » ، والتى يحدد المؤلف الاساليب المستخدمة فيهــا بأنهــا « اسلوب دراسة التاريخ — اسلوب دراسة العنصر البارز — اسلوب دراسة الانتاج الادبى — اسلوب تحليل المضمون الاتصالى — اسلوب دراسة المقتربين من المجتمع المدروس — اسلوب دراسة المنعزلين عنه — اسلوب دراسة التراث » . وفى كل اسلوب من هذه الاساليب يبين المؤلف عيوبه ومزاياه . ثم ينتهى المؤلف ، بعد هذا العرض الناقد لهذه الأساليب الى الاخذ باسلوب دراسة عملية التنشئة الاجتماعية كمدخل لفهم الشخصية الاسرائيلية . ذلك على اعتبار ان مصـــطلح « طابع الشخصية » يطلق للدلالة على ما يتوفر لدى الفرد من عادات وتقاليد وقيم وانماط سلوكية مكتسبة من البيئة المحيطة به ومن خلال عملية التنشئة الاجتماعية . وهكذا نجد ان نظرة فاحصة الى المجتمع فى علاقته بأفراده تكشف لنا عن حقيقة ان الفرد يخضع منذ مولده لتأثير عدد كبير من المنظمات الاجتماعية المتباينة الوظائف والتى تقوم جميعا بالاسهام فى تشكيل ما يسمى بالطابع القومى للشخصية وهـــذه المنظمات هى : الاسرة — المؤسسات التعليمية — المؤسسات الايديولوجية — المؤسسات الدينية — المؤسسات الاعلامية — والمؤسسات التشريعية . ويرى المؤلف أن هناك علاقة وثيقة بين التنشئة الاجتماعية والطابع القومى للشخصـــية ، بحيث يمكن استخدام اســـلوب دراسة التنشئة الاجتماعية كمفتاح لفهم الطابع القومى للشخصية .

وعلى هذا يعد الكتاب محاولة جريئة من باحث مصرى ، لدراسة المجتمع الاسرائيلى ، عن طريق فهم ودراســة عملية التنشئة الاجتماعية لهذا المجتمع « المصنوع » لا فالمؤلف يرى ان تحليل عملية — التنشئة الاجتماعية تهدف اساسا الى الوصول لاهم خصـــائص التكوين السيكولوجى لأبناء المجتمع اى مجتمع اذا كان من النوع المصنوع كالمجتمع الاسرائيلى ، اى المجتمع الذى يتم خلقه بعملية هى أشبه ما تكون باستنبات نبات معين فى دفيئة خاصة وفى مثل تلك الحالة يسهل على العالم المتخصص ان يرقب عن كثب عملية النمو خطوة بخطوة وبقدر من الدقة . وهذه العملية تكتسب اهمية خاصة فى المجتمعات « المصنوعة » لأن تلك المجتمعات تضم شتاتا من الأفراد المنتمين الى مجتمعات شتى تختلف بقدر يزيد أو يقل من حيث القيم والعادات والتقاليد والاتجاهات ، أى من حيث « التكوين السيكولوجى » وفى هذه الحالة لا يمكن صنع مجتمع من ذلك الشتات الا من خلال تخطيط وتوجيه ومتابعة لعمليات التنشئة الاجتماعية . ذلك اذن هو المبرر القوى الذى استند اليه المؤلف فى ولوج دراسة الشخصية الاسرائيلية عن طريق تحليل اساليب التنشئة الاجتماعية فى المجتمع الاسرائيلى .

ويتعرض المؤلف ، بعد ذلك ، لمحاذير وحـــدود دراسته . فالدراسة العربية فى هذا المجال نادرة بل نستطيع القول — معه — أنها معدومة . فقد أسفر بحثه ، وتنقيبه عن مصادر لدراسة هذا الموضوع ، عن عدم

وجود محاولة واحدة لفهم الشخصية الاسرائيليـة من خلال فهم عملية التنشئة الاجتماعية . وبذلك يعد هذا البحث منفردا بهذه الخاصية . هذا بالنسبة للمصادر العربية أما بالنسبة للمصادر الأجنبية فان الباحث يشير الى أن أغلبها كان من موضع أهتمام علماء النفس والاجتماع الأمريكيين من اليهود ، وهو ما يجعل احتمال التحيز للجـانب الاسرائيلى أمر لا يمكن استبعاده ، وهذا المنزلق حاول الباحث بأمانة علمية جادة — أن يبعد عنه قدر الامكان ، فى حدود الالتزام العلمى والقومى .

اذن نقطة البداية فى هذا البحث هى التوغل الى حد ما — فى التاريخ الاسرائيلى ، أو بعبارة أدق فى التاريخ اليهودى . فى الماضى لدرجة تكفل فهم الحاضر بحيث يمكن آنئذ فهم أو أستشفاف المستقبل . ولكن الرجوع هنا الى التاريخ باعتباره واقعا ماديا — أى مجرد الاحداث فى شتتها المبعثرة ؟ — أم باعتباره واقعا سيكولوجيا ؟ وللاجابة على هـذا السؤال المنهجى الهام يطرح المؤلف سؤلا آخر هو : هل أولئك الذين نواجههم اليوم فى صراعنا المصيرى مع اسرائيل هم امتداد مادى — أو سيكولوجى — لأولئك اليهود الذين حدثتنا عنهم الكتب السماوية ؟ ويرى المؤلف أن الاجابة عن هذا السؤال لو كانت بالايجاب فأن المدخل الاساسى للدراسة ينبغى أن يكون من خلال الكتب القديمة التى تعرضت لنشأة الديانة اليهودية أو التى صاحبت تلك النشأة كالتوراة أو التلمود وما الى ذلك . ويجيب المؤلف — بعد ذلك على هذا السؤال بالنفى ويؤكد على ضرورة البحث عن مدخل آخر غير هذا المدخل . بل ان المؤلف ينقد بشدة من سبقوه من الباحثين فى هذا الموضـــوع — والذين تعرضـــوا للتاريخ اليهودى ، وربطوا بين اليهودية والصهيونية بأنهم قدموا لاسرائيل — دون أن يفطنوا الى هذا — خدمة جليلة بتأكيدهم على ان لها ذلك التراث الطويل ، مهما كانت وجهة نظرهم فى مخازى ذلك التراث . وانتهى الباحث من ذلك العرض الناقد لموقف الباحثين السابقين الى القطع بأن الاسرائيليين المعاصرين وهم الذين يواجهوننا الآن فى مرحلة الصراع يضمون فى حدود وجودهم كمعاصرين عدة أجيال ما زال على قمتها من حيث السن على الأقل مجموعة من أولئك المهاجرين القدامى الذين قامت على اكتافهم دولة اسرائيل . وانتهـــى المؤلف الى القول بأن نقطة البداية فى الدراسة هى الخصائص السيكولوجية لأولئك الرواد . كيف تكونت ؟ وفى ظل أى ظروف ؟ كيف نمت وتطورت الى أن اجتمعت على ماهى عليـــه الآن ؟ وماهى صورة تفاعلها الحالى ومسارها المقبل ؟ .

ومن خلال هذا الحوار العلمى الممتع خلص المؤلف الى ان وضع يديه على خاصتين سيكولوجتين ميزتا المناخ الذى تمت فيه تنشئة ذلك الجيل من الرواد . الخاصية الأولى هى ما أطلق عليه المؤلف اسم « الشعور بالتمايز » أو بمعنى آخر الشعور بالاختلاف عن الآخرين ، والتى اتخذت لدى الصهاينة فى البداية شكل اعتناق فكرة النقاء العنصرى . والخاصية الثانية هى الشعور « بالاضطهاد » والاضطهاد هنا ليس باعتباره واقعا ماديا فحسب وانما باعتباره واقعا سيكولوجيا أى الشعور بالاضطهـــاد والاحساس به .

عنصر التمايز : ويستخدم المؤلف تعبير التمايز تاركا — عن عمد — استخدام تعبيرين آخرين هما « الامتياز » و « النقـاء العنصرى » ذلك على اعتبار أن التمايز لا يعنى دائما الامتياز كما هو الحال فى التمايز النازى — وهو يشير بذلك الى حقيقة سيكولوجية مؤداها أن هناك علاقة وثيقة تربط من الناحية السيكولوجية وخاصـة فى سيكولوجية الاعماق — بين الاحساس « بالدونية » والاحساس « بالتفــوق » ؛ بحيث يصـعب على المرء أن يحدد طبيعة تلك العلاقة وما اذا كانت علاقة سبب بنتيجة أم علاقة شكل بمضمون أم هى علاقة تتال وتتابع زمنى .

ويناقش المؤلف وهو يستعرض الدراسات والبحوث السابقة فكرة النقاء العنصرى للجنس اليهودى ، ذلك الادعاء الـذى فندته حتى الدراسـات الغربية ، مبينا كيف أن هناك أفكارا أخرى بدأت تحل محل النقاء العنصرى، منها مسألة التمايز العقلى والتمايز الجسمى والتمايز الانفعالى ، وكيف أن البحوث والدراسات فندت هذه الأفكار أيضا .

عنصر الاضطهاد : وفى المقابل لفـكرة النقاء العنصرى نبعت فكرة أن اليهود « يضطهدون » ويرى المؤلف أن رواج هذه الفكرة كان على أيدى الصهاينة أنفسهم ، والذين يلحون فى مناسبة وغير مناسبة على هذا المعنى. وفى ضوء حقيقة سيكولوجية معروفة ، وهى أن كل قضية ، أو فكرة ، تحمل نقيضها أو تحتوى عليه ، يفسر المؤلف هذا العنصر بأنه نتاج لفكرة أخرى مؤداها أن اليهود « سبب شرور العالم » . اذن البحث عن أصل عنصر الاضطهاد هنا ، وهل هو واقع مادى أو واقع سيكولوجى لن يهم كثيرا فى تناول هذه القضية ، وانما المهم هو أن نبحث فى أصل ومنشأ هذا التصور ، ودلالته السيكولوجية . فلم يخل فى الواقع تاريخ أى شعب ، أو أى أمة ، من فترة فى مسار التاريخ من الاضطهاد . ولكن لماذا لم يتحول فى أى أمة الى ذلك المظهر العنصرى كما تحول لدى اليهود ؟ يرى المؤلف أن عنصر الاضطهاد لدى اليهود توفرت له شروط ثلاثة يجملها فى البعد التاريخى (استمرار الاضطهاد عبر التاريخ) والبعد الجغرافى (أن كل اليهود مضطهدون مهما بعدت الشقة بينهم فى أى قطر) والبعد الثالث هو الفارق الكيفى (أن الاضطهاد الذى وقع على اليهود لا يعادله أى اضطهاد آخر) وهـذه الفكرة كانت تمثل الواقع السيكولوجى لمجموعة معينة من اليهود . ويتعرض — المؤلف لفكرة الاضطهاد كما جاءت على لسان الصهاينة — فى الفكر الصهيونى — ويميز بين أربع صور مر بها ذلك الفكر فى محاولته للتأكيد على فكرة الاضطهاد تاريخيا حتى ينتهى عند صورة الاضطهاد النازى فى أعنف صوره . وحتى الآن مايزال الفكر الصهيونى مركزا على عنصر الاضطهد حتى أصبح هذا العنصر ضمن المكونات السيكولوجية الأساسية فى عملية التنشئة الاجتماعية .

الحياة فى الجيتو : يتتبع المؤلف بعـد ذلك تاريخ ظهور أحيـاء اليهود المنعزلة « الجيتو » ، ويوضح كيف أن الحيـاة فى الجيتو قد أثرت على جيل الحالوتس ، وهو الجيـل الذى صنع اسرائيل لدرجـة القول بأن جيل الحالوتس هو الوريث الشرعى للحياة فى الجيتو » .

ثم يتساءل المؤلف بعـد ذلك عن أسباب هجرة جيل الحالوتس الى فلسطين ؟ وعما اذا كانت هناك — خصائص تميزهم عن غيرهم . ويوضح ردا عن هذا السؤال كيف أنجيل الحالوتس — وقد كانوا اقلية فى الجيتو — جيل متمرد بطبعة على الأوضاع القائمة . بما أنه جيل من الرواد . ثم يوضح ما يتميز به جيل الرواد بالنسبة لعنصرى التمايز والاضطهاد فيرى أن جيل الحالوتس اعاد صياغة هذين العنصرين فى صورة جديدة تتسق مع الظروف الجديدة واتجاهات الحالوتس المتمردة . فبدلا من التمايز عن طريق العزلة فى الجيتو او ارتداء الشارات المميزة لليهود ، اصبح التمايز فى صورة أخرى هى التمايز العقلى والدعوة الى التفوق والنبوغ لليهود . أما عن عنصر الاضطهاد فبدلا من صورته المألوفة عن الاستسلام ، اصبح الفرار هو الصورة الجديدة ... فرر من الجيتو ومن نظـام الحياة فى الجيتو ومن اى نظام آخـر وذلك باقامة نظام جـديد فى مكان جديد هو اسرائيل .

ويتعرض المؤلف بعد ذلك لعملية التنشئة الاجتماعية المسئولة عن خلق هذه المميزات السيكولوجية فى الأجيال « الطالعة » فى اسرائيل . فيرى ان « الاسرة » بالمعنى المتعارف عليه لا يمكن أن تؤدى دورها الفعال فى التنشئة الاجتماعية لسبب بسيط أن هذه الاسر قد نزحت الى اسرائيل من اقطار شتى وهى تحمل معها حضارات تلك الاقطار على اختلاف تراثها بمافيه من عادات وتقاليد وقيم وانماط سلوكية متباينة . اذن فالاسرة لن تتمكن من القيام بدورها فى عملية التنشـئة الاجتماعية بما يحقق أحلام ساسة اسرائيل ومؤسسيها فى خلق تكوين سيكولوجى اسرائيلى موحد . ومعنى ذلك أنه لم يكن هناك بد من قيام مؤسسات اخرى بهذا الدور يحددها المؤلف فى المؤسساتالتعليمية والعسكرية والدينية والايديولوجية . وهو يتناول هذه المؤسسات بالدراسة والعرض النقدى للبحوث والدراسات التى أجريت فى هذه المجالات موضحا كيف أنها جميعا تعمل على احياء عنصرى « التمايز » و « الاضطهاد » بشكل مخطط .

تبقى بعد هذا كلمة نود أن نقولها بأمانة هى أن هذا الكتاب — ولانقول كتيب لأنه تخطى حدود الكتيبات بمادته الغزيرة وتناوله العلمى الشـيق — يعد بحق منهلا لدراسة الشخصية الاسرائيلية ، وهو يعد احد المعالم الرئيسية على الطريق نحو فهم شامل لسيكولوجية العدو الاسرائيلى .

Basic References About Israeli Society*

Prepared by

EL SAYED YASSIN

Basic General Data :

1 — Bentwich, N., **Israel.** New York, E. Benn, 1952, Central Bureau of Statistics, Statistical Abstract of Israel, Jerusalem, 1949 - 66, Nos. 1 - 17.

Historical Development and Institutional Structure of the Yischuv :

2 — Joseph, B., **British Rule in Palestine**, Washington, Public Affairs Press, 1948.

3 — Peel Commission, **Palestine Royal Commission Report**, London, 1937.

The Establishment of the State :

4 — The Major Trends of Demographic Change : Matras. J., **Social Change in Israel**, Chicago : Aldine Publishing, 1965.

The Major Institutional Changes in the Transition from the Yishuv to the Statehood :

5 — Eisenstadt, S.N., The Social Structure of Israel, in : A. Ross (Ed.). **The Institutions of Advanced Societies**, Minneapolis, University of Minneapolis Press, 1958.

Economic Structure :

Economic Development in the Period of the Yishuv :

6 — Hovine, A., The Labour Force in Israel, **Jerusalem** Falk-**Project**, 1961.

Major Trends of Economic Development in Israel :

7 — Israel : Traditional and Modern Social Values and Economic Development, Annals of American Academy of Politi-

---

* Selected from Eisenstadt's Bibliography, in : Israeli Society. London, 1971.

cal and Social Sciences, Philadelphia American Academy of Political and Social Sciences, 1956.

8 — Halevi, N. and Klimov-Malul, R., The Development of Israeli Economy, Jerusalem, Bank of Israel Advisory Council for the Israel Economic and Sociological Research Project in Co-operation with the Histadrut Institute, Basle, 1965.

9 — Eisenstadt, S.N., Essays on Sociological Aspects of Political and Economic Development, The Hague, Mouton and Co., 1961.

10 — Zweig, F., The Jewish Trade Union Movement in Israel, **Jewish Journal of Sociology**, Vol. I, 1959.

Agricultural Development in Israel :

11 — Ben-David, J. (Ed.), Agricultural Planning and Village Comunity in Israel, Paris : Unesco, 1964, (Arid Zone Research Report XXIII).

Economic Absorption of Immigrants :

12 — Shuval, J., Immigrants on the Threshold, Chicago, Atherton Press, 1963.

13 — Occupational Interests and Sex Role Congruence, **Human Relations**, Vol. XVI, No. 2, 1963.

Social Organization and Stratification :

General Trends in the Development of Stratification in Israel :

14 — Sociological Aspects of the Economic Adaptation of Oriental Immigrants in Israel : A Case of Study in the Modernization, **Economic Development and Cultural Change**, Vol. IV, No. 3, 1956.

15 — Hanoch, G., Income Differentials in Israel Jerusalem, **The Falk-Project**, 1959 - 60, Report No. 5.

16 — Eisenstadt, S.N., The Oriental Jews in Israel, Jewish Social Studies, Vol. XII, 1950.

17 — Matras, J., 'Some Data on Intergenerational Occupational Mobility in Israel, **Population Studies**, XVIII, No. 2, 1963.

Developments in the Kibbutzim :

18 — Solidarity Work Group in Collective Settlements, **Human Organization**, Vol. 16, No. 3, 1958.

19 — Bar-Yosef, R., 'The Pattern of Early Socialization in the Collective Settlements in Israel, **Human Relations,** Vol. XII, No. 4, 1958.

20 — Ben-David, J., (Ed.), **Agricultural Planning and Village Community in Israel,** Paris, Unesco, 1964.

21 — The Family in Collective Settlements, **Transactions** of the **Fifth World Congress of Sociology,** Vol. IX, 1962.

Development in the Moshavim :

22 — Weintraub, D., and Lissak, M., 'Problems of Absorption of North African Immigrants in Smalholders Collective Settlements in Israel, **Jewish Journal of Sociology,** Vol. II, No. 3, 1961.

23 — Eisenstadt, S.N., Essays on Sociological Aspects of Political and Economic Development, **The Hague Mouton Publications,** 1961, Part II.

Occupational Selection and Mobility :

24 — Adler, C., The Role of Israel's School System in Elite Formation, Transactions of the Fifth World Congress of Sociology, 1962.

Immigration and Absorption of Immigrants and the Relationship Between Ethnic Groups :

25 — Value Orientations of Immigrants to Israel, **Sociometry,** Vol. XXVI, No. 1, 1963.

26 — The Role of Ideology as a Predisposing Frame of Reference for Immigrants, **Human Relations,** Vol. XII, No. 1, 1959.

27 — Shuval, J., Cultural Assimilation and Tension in Israel, **International Social Science Bulletin,** Vol. 8, No. 1, 1956.

28 — Shumsky, A., **The Cash of Cultures in Israel,** New York, Columbia University, 1955.

29 — Patai, R., **Israel Between East and West,** Philadelphia, Jewish Publication Society of America, 1957.

30 — Katz, E., and Eisenstadt, S.N., Observations on the Response of Israeli Organization to New Immigrants, **Administrative Science Quarterly,** Vol. V, No. 1, 1960.

31 — Dulzim, L., New Epoch of Immigration and Absorption, The Israel Year Book, Jerusalem, **Israel Year Book Publication,** 1966.

32 — Studies in Reference Groups Behaviour, Reference Norms and the Social Structure, **Human Relations,** Vol. 7, No. 2, 1954.

33 — Conditions of Communication Receptivity, **Public Opinion Quarterly,** Vol. 17, No. 3, 1953.

34 — Communication Process Among Immigrants in Israel, **Public Opinion Quarterly,** Vol. 16, No. 1, 1952.

35 — Berger, L., Dialectics of Immigration and Absorption, **The Israel Year Book,** Jerusalem, Israel Year Book Publication, 1966.

36 — Weingrod, A., **Reluctant Pioneers,** Ithaca, Cornell University Press, 1966.

Education :

Basic Data on the Educational System :

37 — Bentwich, J., **Education in the State of Israel,** London, Kegan Paul, 1965.

38 — Golan, S., Collective Education in the Kibbutz, **Psychiatry,** Journal for the Study of Interpersonal Processes, Vol. 22, No. 2, May 1959.

Family Structure and Youth Culture :

39 — Ben-David, J., Conforming and Deviant Images of Youth in a New Society, **Transactions of the Fith World Congress of Sociology,** Louvain, International Sociological Association, 1962.

40 — Youth and Youth Movements in Israel, **Jewish Journal of Sociology,** Vol. V, No. 1, 1963.

41 — Eisenstadt, S.N., Youth Culture and Social Structure in Israel, **British Journal of Sociology,** Vol. 2, 1951.

42 — Eisenstadt, S.N., and Ben-David, J., Inter-generational Tensions in Israel, **International Soc. Sc. Bulletin,** Vol. 8, No. 1, 1956.

Political Structure and Institutions.

Basic Structure of Political Institutions :

43 — Eisenstadt, S.N., Essays on the Sociological Aspects of Political and Economic Development, **The Hague, Mouton & Co., 1960.**

44 — Le Passage d'une Société de Pionniers à une Société Organisée : Aspects de la Sociologie Politique **d'Israël, Revue Française de Science Politique,** July-September, **1954.**

45 — Janowsky, O., **Foundations of Israel : Emergence of a Welfare State,** Princeton Van-Nostrand, Vol. I, 1959.

Culture, Values and Religion :

General Background and Problems :

46 — Institute of Contemporary Jewry. **Studies in Contemporary Jewish Life,** Jerusalem, The Hebrew University, **1964.**

Zionism and Nationalism :

47 — Zionism and Israel, **Jewish Journal of Sociology,** Vol. III, No. 2, **1961.**

48 — Halpern, B., **The Idea of the Jewish State,** Cambridge, Mass, Harvard University Press, 1961.

Minorities :

49 — Central Bureau of Statistics, Moslems, **Christians** and Druzes in Israel, Jerusalem, 1964 (Publication No. 17).

50 — Cohen, A., **Arab Border Villages in Israel, Manchester** University Press, 1965.

51 — Rosenfeld, H., The Arab Village Proletariat, **New Outlook,** Vol. V, No. 3, 1962.

52 — The Determinants of the Status of Arab-Village Women, Man, Article 95, Vol. IX, 1960.

53 — From Rural Peasantry to Rural Proletariat and Residual Peasantry : The Economic — Occupational Transformation of an Arab Village, in Robert A. Manners **(Ed.): Patterns and Processes of Culture,** Essays in Honour of Julian H. Steward, Chicago, Aldine Press (Forthcoming).

54 — Washitz, Y., Arabs in Israeli Politics, **New Outlook,** Vol. V. No. 3, 1962.

المحتـــــــويات

صفحة

صفحة



مطابع الأهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤/٢٧٢٩



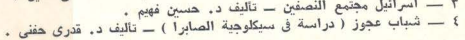
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
بالأهــرام

مركز للبحث العلمى يدرس العلاقات الدولية بهدف تقديم تصورات علمية للتطورات والنزاعات ذات التأثير على الشرق الاوسط عامة ، ويبحث بصفة خاصة فى القضايا الاسرائيلية والصراع العــربى الاسرائيلى .

مطبوعات صدرت عن المركز

١ — تجسيد الوهم (دراسة سيكولوجية للشخصية الاسرائيلية) تأليف د. قــدرى حفنى (١٩٧١) .
٢ — محاضر الكنيست الاسرائيلى ١٩٦٦ — ١٩٦٧ — الكتاب الاول (بالاشتراك مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية فى بيروت) (١٩٧١) .
٣ — محاضر المؤتمر الصهيونى الـ ٢٧ لعام ١٩٦٨ — الكتاب الاول — جزءان (بالاشتراك مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية فى بيروت) (١٩٧١) .
٤ — نمو الاقتصاد الاسرائيلى (دراسة فى الدخل القومى لاسرائيل ومكوناته) تأليف عثمان محمد عثمان (١٩٧٢) .
٥ — العسكرية الصهيونية (المؤسسة العسكرية الاسرائيلية . المنشأة والتطور) المجلد الاول — تأليف مجموعة من خبراء المركز (١٩٧٢) .
٦ — نهاية التاريخ (مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى) — تأليف د. عبدالوهاب المسيرى (١٩٧٣) .
٧ — وثائق عبد الناصر (الكتاب الاول : يناير ١٩٦٧ — ديسمبر ١٩٦٨ — الكتاب الثانى : يناير ١٩٦٩ — سبتمبر ١٩٧٠) (١٩٧٣) .
٨ — الشخصية العربية (بين المفهوم العربى والمفهوم الاسرائيلى) تأليف السيد يسين (١٩٧٤) .
٩ — التوسع الاسرائيلى (عــرض وتحليل مشروعات السلام الاسرائيلى) — اعداد محمد فيصل عبد المنعم وابراهيم كروان — تقديم د. على الدين هلال (١٩٧٤) .

تحت الطبــع



١ — العســكرية الصهيونية (العقيدة والاستراتيجية الحــربية الاسرائيلية) — المجلد الثانى — تأليف مجموعة من خبراء المركز .
٢ — أزمة الطاقة فى الولايات المتحدة الامريكية — تأليف د. مصطفى خليل .
٣ — اسرائيل مجتمع النصفين — تأليف د. حسين فهيم .
٤ — شباب عجوز (دراسة فى سيكولوجية الصابرا) — تأليف د. قدرى حفنى .

الثمن ٥٠ قرشا

مطابع الأهــرام التجارية

